

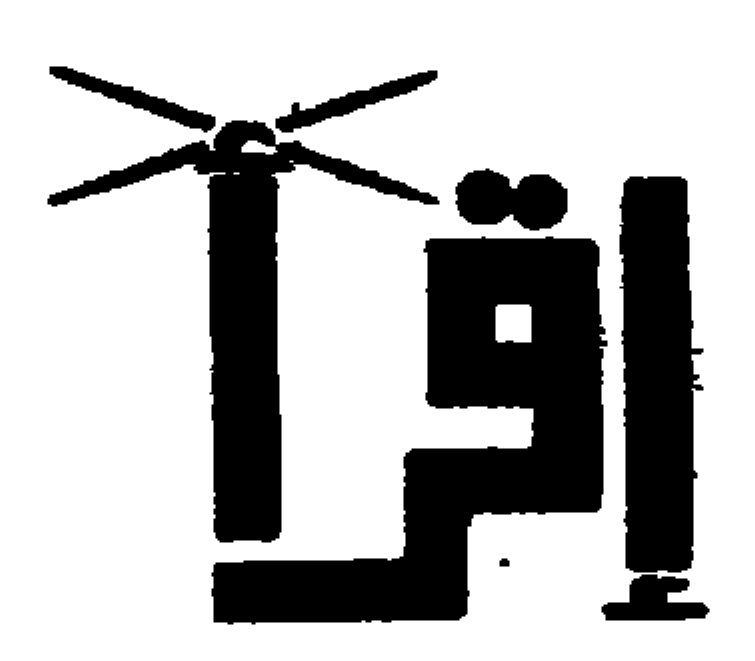

أحمد عبد المجيد

# سندباد دبلوماسى

اهداءات ٢٠٠٢

الشيخ/ عبد العزيز توفيق جاويد

شيخ المترجمين- القاهرة




تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا








مكتبة
شيخ المترجمين
عبد العزيز توفيق جاويد

أحمد عبد المجيد

# سندباد دبلوماسي

اقرأ ٣٧٦

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٧٦ – ديسمبر سنة ١٩٧٣

١ – المسجد الأقصى ببيت المقدس

٢ – طواحين الهواء بهولندة

٣ – برج إيفل بباريس

٤ – مسجد السلطان أحمد بإستنبول

٥ – كوبرى جولدن جيت بسان فرنسسكو

٦ – معبد جوبتر ببعلبك

٧ – الكولوزيوم بروما

٨ – آثار معبد البارثينون ببلاد اليونان

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع

# الإهـــداء

إلى شريكة حياتى ، التى قاسمتنى هذه الحياة ،
فى يسرها وعسرها ، وفى حلوها ومُرِّها .

**أحمد عبد المجيد**

# تمهيد

لست أدعى أنى أضيف جديداً ، أو أرد مفقوداً ، أو أعمر خراباً ، أو أشفى غلة ، أو أرتق فتقاً بهذا الكتاب ، إلا بقدر ما يزجيه من تسلية فى وقت الفراغ ، ومن دفع الملل عن النفس المكدودة بعد عنت أو مشقة ، ومن معارف من هنا وهناك .

فالنفوس إذا كلت عميت ، كما يقول الرسول الكريم . والكتاب عند الجاحظ ، لابد فيه « أن يكون نزهة تبهج النفس ، وأنساً يشرح الصدر ، ولابد فى تأليفه من حشد النوادر التى تعين على جلب راحة الفكر ، ومن سَوْق الغرائب والعجائب التى تبعث الدهش والعجب » .

ولقد جبل الناس على الميل إلى العلم بأحوال الغير ، ما ظهر منها وما بطن . وإنك لتنظر إلى حجرة جارك من خلال نافذة مفتوحة ، إذا أمنت عين الرقيب ، اندفاعاً وراء ما انطوت عليه النفس من حب معرفة ما هو ملك الغير ، والتطلع إلى ما يملكه الآخرون فى معاشهم ، بل إننا نتمنى السعادة التى نرى الغير ينعمون بها ، ونود لو كنا مكانهم نستمتع بما يستمتعون . ولو أن هذه السعادة حلت بنا ، لما أحسسنا بها كما شاهدناها وهى بين أيدى الآخرين ، بحكم رغبة التغلغل فى حياة هؤلاء الآخرين .

والرواية السينمائية التى تعرض حياة أسرة أو تطور مجتمع تلقى رواجاً وإقبالا على مشاهدتها ، والصحف والمجلات التى درجت على تخصيص مكان بها لأخبار المجتمع ، تكون أكثر ذيوعاً وتداولا بين الناس .

وأنا إذا تناولت موضوع هذا الكتاب بحسب أهمية الرحلات

وذكرياتها ، أو أسبقها إلى الذاكرة ، فربما تبعثرت مني هذه الذكريات وانتثرت ، واختلط القريب منها بالبعيد ، والقاصي بالدانى . ولكنى رأيت أن أكون فى سردها كالممسك بالمسبحة التى تتداعى حباتها ، الواحدة فى إثر جارتها . فى انتظام لا سبيل معه إلى تقديم أو تأخير .

وجدير بالإشارة ، أن الذكريات شيء يختلف كل الاختلاف عن المذكرات . فالذكريات إنما هى أحداث مرت براويها ؛ وهو يسردها بدون تنميق أو تجميل ، وبدون أن يستعين فى نقلها بأوراق مدونة ، أو وثائق مخطوطة . بل إن كاتبها يعتمد على ما تعيه ذاكرته من أحداث ، وعلى شذرات قصيرة مدونة ، تعتبر مفاتيح لقصص طويلة . وهذا العون من الذاكرة مع بعض رءوس مواضيع ، هو أساس كتب الرحلات .

أما المذكرات فهى التى تستند أولا وأخيراً على ما سبق لكاتبها أن جمعه ودونه وحفظه مرتبـاً مبوبـاً ، منسقـاً منمقـاً ، فى دقة وعناية ، لا تترك تاريخـاً إلا ذكرت ساعنه ، ولا حادثـاً إلا ذكرت أصحابه وما أحاط بهم وقت وقوعه من ظروف وملابسات .

من ذلك يتبين ، أن ما قصدته من كتابة هذه الرحلات ، وما حوته من ذكريات ، إنما هو الرواية والقصة والسرد لما وقعت عيناى عليه من أحداث ، وصداها فى نفسى ، ووصف ما أعيش فيه من بلدان وظروفها وعلاقتها ببلدى ، وما أستخلصه من كل ذلك من نفع ، أو أتأسى به من عبرة ، أو يفيد به غيرى من تجربة .

ولست أدعى أننى بذلت الكثير من الجهد ، وأنفقت الغزير من عصارة الفكر الذى يعكس مطالعاتى وما صادفنى فى ارتحالى من معارف ، يضمها هذا الكتاب على الصورة التى يراها القارىء بين يديه مبرأة من التكلف والاصطناع . ولكن فى استطاعتى أن أزعم ، أننى بذلت من ذات نفسى ومن صحتى ومن عقلى وفكرى وجهدى وأعصابى وشئونى فى

حلى وارتحالى ، ما سوف يلمسه القارئ من مطالعته هذه الذكريات ، وما انطوت عليه ، وطوته من أحداث ، كلفتنى المشقة والضنى والضيق بكثرة الناس من حولى حينًا ، ومن معاناة الوحدة والانطواء على نفسى أحيانًا ، وإن كنت أطلب للوحدة والكلف بها ، خلافًا لما درج عليه الناس وما تتطلبه طبيعة البشر من الارتباط والألفة ، وطبيعة وظيفتى من الاجتماع والاختلاط .

والذكريات أصداء لماض بعيد أو قريب ، أو هى أصوات تعلو وتخفت . تبعًا لبعدها أو قربها من ذاكرة راويها . أو قل إنها كموجات الراديو ومحطات الإرسال ، وما تكون عليه من وضوح أو غموض تبعًا لمدى الإرسال ومكانه .

وإذا كانت الوظيفة الدبلوماسية تقتضى من شاغلها أن يكون على حذر من الكشف عن خوافيها ، وما تحويه فى باطنها من أسرار ، فإن تناولى للجانب الشخصى والاجتماعى والاستقرائى الخاص بى وبرحلاتى وبنظرتى لما يحيط بى كفرد كتب عليه القدر أن يعانى ترف هذه الوظيفة ، وأن يعايش قيودها ، أقول إن تناولى لهذه الجوانب ، هو المباح لى سرده للذكرى إن لم يكن لنفع عام ، ما دمت لا أمس من قريب أو بعيد ، ما يعد مما لا يجوز الكشف عنه ، أو الخوض فيه .

أفمن الحتم على بعد أن وضح ما وضح من أمر ما أنا مقدم عليه من كتابة هذا الكتاب ، بوصفى أحد الذين شغلوا مناصب متعددة فى السلك الدبلوماسى ، أن أكتم فى صدرى أموراً لا ضير منها إذا تحقق العلم بها والانتفاع بما تناولته !

وإنه لمن الجناية فى يقينى ، ومن الجحود بأنعم الله على من فكر ونظر وبصيرة وتعليل وتحليل ، أن أتقاعس عن الكتابة فى هذه الشئون ، لتبقى فى أستار وغياهب ، لا ينفذ إليها ضوء ، أو يتسرب إليها هواء ، بحكم بهرج وظيفتى ، وما تنطوى عليه من أسرار .

وأنا فى سردى لما صادفنى فى هذه الوظيفة من ارتحال بين العديد من عواصم العالم ومدنه، وما خبرته من طباع الناس وأحوالهم السياسية والاجتماعية، لا أجاوز وظيفة آلة التصوير التى تنقل عدستها ما يواجهها من مناظر، أو مهمة جهاز تسجيل يلتقط شريطه كل ما يدور من قول أو لفظ أو نفس أو نبرة أو همسة. وفضلى فى ذلك لا يتعدى فضل من يثبت الفيلم فى آلة التصوير، أو من يعد شريط التسجيل الذى ينطبع عليه كل ما يدور حوله مهما خفتت الأصوات، فى أمانة ودقة وتماثل لا اختلاف فيه أو شبهة فى عدم صحته.

ولا أزعم أنى أتميز بأى فضل عن زملائى أعضاء السلك الدبلوماسى الذين لهم مثلٍ ما لى من ذكريات وارتحال، ولديهم فوق ما لدى من تجارب، ومرّ بهم أثرى وأندر مما مرّ بى من أحداث، بل ربما كانت حصيلتهم من الذكريات والرحلات والتجارب والأحداث، أحق بالذكر وأدعى إلى التدوين، ولكن جرأتى على التعرض للكتابة عن ذكرياتى من خلال رحلاتى الدبلوماسية، مردها إلى اشتغالى بنواح متباينة من الفنون، لم تقف عند حد التأليف والترجمة، بل إنها جاوزته إلى جوانب من النظم والموسيقى والغناء والتمثيل، وهى شئون تدعو إلى الألفة والتهوين من شأن الكتابة فى مجال الذكريات والرحلات، كما تدعو إلى التخفف مما للتأليف من هيبة ورهبة. فإن رؤيتك الأسد كل يوم يقلل من الذعر منه والرعب من جواره. وكذلك الحال بالنسبة للمجاورين للأماكن المقدسة، الذين تلمس فيهم التخفف من هيبتهم لهذه الأماكن، على عكس ما تدخله على قلبك من الروْع والهيبة وأنت مقبل عليها لأول وَهْلة.

ولقد أتيح لى أن أطلع على بعض ما صدر ونشر من كتب ضمت ذكريات لبعض رجال السلك الدبلوماسى فى أوربا، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: كتاب Les Ambassades (السفارات) لمؤلفه

Roger Peyrefitte ، وكتاب : The Laughing Diplomat لمؤلفه ، Daniel Varré ، وكتاب Le Diplomate لمؤلفه Iules Cambon[1] .

كما أسعدنى أن أطلع على ما دونه الأستاذ أحمد فراج طايع وزير الخارجية الأسبق فى كتابه « حديث دبلوماسى عن الأمم المتحدة » وماسرده فيه عن دوره خلال تمثيله لمصر فى اللجنة الخاصة ببحث البيانات التى ترسلها الدول الاستعمارية عن الأقاليم التى لا تتمتع بالحكم الذاتى فى سنتى ١٩٤٩ ، ١٩٥٠ . وكذلك دوره فى اللجنة الرابعة للجمعية العامة فى هاتين السنتين . ثم عندما تولى رياسة وفد مصر للجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٥٢ بوصفه وزيراً للخارجية .

وكان من حسن الطالع أن تضم مكتبتى مؤلفات السفير السابق الأستاذ أحمد رمزى : « من وحى فلسطين » وكتاب « منادمة الحروب » وكتاب « منادمة الماضى » وهى كتب تقوم بالتعريف بأحوال وسياسة الدول العربية التى عاش فيها وعايش أحداثها السياسية الكبرى وأودع فيها انطباعاته ونظراته واستشهاده بالتاريخ البعيد والقريب ، مستمداً موادها من عواطف وطنية وقومية مشبوبة ، ومستخلصاً من الأحداث الدروس والعبر والنصح الصريح ، حتى تجمعت له هذه الذكريات التى ضمنها كتبه المذكورة التى ألم فيها بالكثير والدقيق والحرى بالاطلاع ، والتأسى بما فيها من عِبَر .

وجدير بالذكر أن أسترعى النظر إلى أن مكتبتنا العربية ، تفتقر إلى أدب المذكرات وأدب الذكريات ، وأدب الرحلات ، وأدب التراجم . وأنت إذا وجدت شيئاً مما أسلفت ذكره ، فإنك لن تجد إلا اليسير المحدود . وأنت إذا وجدت المؤلفين لهذه الفنون من الأدب ، فإنك لن تجد

---

( ١ ) كان جول كامبون حاكماً للجزائر وكان سفيرا لفرنسا فى واشنجتون ١٩٠٧ - ١٩١٤ ثم سكرتيرا عاما لوزارة الخارجية ١٩١٥ ثم سفيرا فى برلين ١٩٢٠ وأصدر كتابه ( الدبلوماسى ) عام ١٩٢٥ طبعة ثانية .

القارىء الذى يقبل عليها ، الأمر الذى يصرف من يشاء أن يطرق هذه الأبواب ، عن أن يكتب ما لا يُقرأ ، وأن ينشر ما لا يُباع ، وأن يسرد ما لا يجد له سميعاً .

ولست أزعم أننى بما ذكرت من افتقار مكتبتنا إلى ما سردته من أبواب ، أجىء لأعدل المائل ، وأسد خروقاً فى ثوب أو حائط ، ولكن دعانى إلى ذلك أن أوفر على القارىء الاطلاع على كل ما ذكرته من فنون، إذا شاء تسلية أو دفعاً للملل ، فى كتاب تناول أدب الرحلات وأدب الذكريات ، وقصص الشعوب وسراديب السياسة ومعالم البلدان ومعارف عنها دانية وقاصية ، وترجمة ذاتية من خلال الارتحال وترجمة عامة لمن مررت بهم أومروا بحياتى من شخصيات عملاقة أو متهافتة تبعاً للملابسات والمناسبات .

وهذا الكتاب الذى أضعه بين يدى القارىء ، يفصح عن محتواه ومضمونه من عنوانه . وإذا أردت أن أضيف شيئاً إلى كل ما سردت ، قلت إن الكتاب يُعد بلغة مقررى الميزانيات ، حساباً ختامياً لرحلة طوت أغنى فترات العمر بالشباب والأمل والفتوة وحب المعرفة ، والتطلع إلى تحليل المرئيات والتغلغل فى أعماق النفوس ، إلى جانب ما يسرده من أحداث سياسية عالمية وما لها من صدى ، على مدى ثلاثين عاماً من الخدمة فى السلك الدبلوماسى المصرى ، كانت حافلة بما يغلى فى العالم من تطورات سياسية واقتصادية ، وما تقلب عليه من أحداث وحروب ، أبدلت أوضاع مناطق فيه وأزالت قديماً وجلبت حديثاً ، إتباعاً لسنن التاريخ وحتمية التطور ، وطبيعة البشر ، ونزولا على قول الله عز شأنه : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

أحمد عبد المجيد

# الفصل الأول

## عملى فى اليونان :

كنت قبل أن ألتحق بوظائف السلك الدبلوماسى عام ١٩٣٠ ، قد اشتغلت بالمحاماة ووظائف النيابة العامة . فترة كانت مع قصرها ، كافية لأن أقدس هاتين المهنتين تقديسًا حملنى على أن أزهد فيما عداهما من مهن ومناصب . ولولا حالة صحية لم يكن من المستطاع إغفالها ، كانت تقضى بسفرى خارج القطر لفترة طويلة ، لتغير مسارى ، ولكن للقدر مشيئة فوق كل مشيئة .

لقد علمت من طبيبى المعالج أن وزارة الخارجية سوف تعقد امتحانًا شاملا لاختيار ملاحق من المتقدمين . وكان أن قُبلت بعد نجاحى فى الامتحان ، وكشف الهيئة وكانت لجنة الامتحان تراعى طريقة المتقدم للامتحان فى حديثه وصوته وإيماءاته . ثم تطلب منه أن يسير فى الحجرة المتسعة جيئة وذهابًا ، كما يفعلون بخيول السباق فى « البادوك » قبل أن تجرى فى الأشواط التى تشترك فيها .

بقى أن نتقدم بمسوغات التعيين أو نقلها من الأماكن التى كنا نشغلها لمن كان منا فى وظيفة سابقة . على أن وزارة الخارجية ، كانت تنفرد آنذاك ( عام ١٩٣٠ ) بطلب شهادة مدعمة بالأسانيد ، يتبين منها ما يملكه ولى أمر الموظف من عقار يستطيع أن يمد من ريعه ابنه الموظف ، بقدر من المال يعادل مرتبه من الوزارة بسبب ضآلة المرتبات آنئذ .

وبعد أن تم تقديم المسوغات المطلوبة ، تم تحويلنا إلى إدارات الوزارة المختلفة ابتداء من إدارة المحفوظات فالحسابات فالعهد ، إلى الإدارات الفنية والسياسية ، حتى نلم فى بضعة شهور بكافة الأعمال المفروض أننا

سنمارسها فى البعثات الدبلوماسية والقنصلية المنتشرة فى أرجاء المعمورة .

وبعد أن أتممنا فترة التمرين ، لم يكن باقياً إلا انتظار حركة تنقلات تضع كلا منا فى البلد الموعود . وكانت اليونان من نصيبى ، حيث تم تعيينى سكرتيراً للقنصلية المصرية العامة فى بيريه .

لقد تلقيت النبأ بنشوة بالغة . لقد كنت مغرماً بقراءة تاريخ اليونان القديم ، وقراءة أدبها وما كتبه كتابها من قصص الميثولوجيا ، وما نظمه هوميروس فى الإلياذة والأوديسة وحروب طروادة . كما كنت أقرأ ترجمات قصيرة من شعر الشاعرة ( سافو ) ، التى كانت تمجد الحب والطبيعة ، وتعبر عن العاطفة الجياشة بأسلوب أنيق رشيق .

إن حضارة مصر القديمة ، قد ربطتها بحضارة اليونان القديمة ، وشائج وصلات لم تفتر ، بل زادتها الأيام فهماً وقرباً حتى عصرنا الحالى .

لقد رحت أستعرض مما قرأت عن اليونان ، مدنيات وحضارات راسخة القدم ، متينة البنيان ، كشف عنها الدارسون ، وأظهروها للعالم شاهداً على تقدم هؤلاء الإغريق .

ظهرت الحضارة اليونانية بعد الحضارة المصرية بآلاف السنين ، وبعد أن اتصل الإغريق القدامى بمصر وبآسيا الصغرى وبفينيقية ( سوريا ) ، اتصالا وثيقاً ، ويقول البروفيسور ( جورج سارتون ) فى مقدمة كتابه ( تاريخ العلوم ) : « إنه من السذاجة أن نفترض أن العلم بدأ فى بلاد الإغريق . ذلك أن المعجزة اليونانية ، سبقتها إلى الظهور ، آلاف الجهود العلمية فى مصر وبلاد ما بين النهرين . أما العلم اليونانى ، فيمكن أن يعد إحياء ، أكثر مما يعد اختراعاً » .

وقد أشار البروفيسور ( ألبرت فور ) فيما يتعلق باتصال اليونان وتأثرها بالحضارة المصرية القديمة ، إلى التشابه الكبير بين التماثيل الأولى لليونان والتماثيل المصرية ، وبخاصة التماثيل الجالسة فى البلدين منذ أقدم العصور .

وفى القرن السادس قبل الميلاد ، بدأت تظهر بواكير الفلسفة الطبيعية اليونانية . ويبدو من العسير ، تحديد الوقت الذى وصلت فيه المعارف الفلسفية المصرية والبابلية إلى اليونان .

ومن الثابت أن (طاليس) أول فلاسفة اليونان ، ومؤسس العلم اليونانى ، وأحد الحكماء السبعة ، أقام فى مصر سنوات طويلة ، تعلم فيها الرياضيات والفلك المصرى ، وأسس عند عودته ، الهندسة النظرية ، على أساس المعارف التجريبية المصرية .

أما ( فيثاغورس ) فقد هبط مصر ، وتلقى عن كهنتها العلوم الرياضية . كما أن أفلاطون ، بعد أن حكم بالإعدام بالسم على سقراط ، امتلأت نفسه اشمئزازاً من كل ما يتصل بالسياسة ، فاعتزل أولا فى ( ميجارا ) ثم شخص إلى مصر ، حيث تعلم الرياضيات ، وهو ما رواه البروفيسور ( ج. أردمان ) فى كتابه « تاريخ الفلسفة » .

* * *

واليونان التى تعد مهد الفلسفة فى العالم ، مدينة بهذه السمعة العلمية الرفيعة ، لفلاسفتها الثلاثة : سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو .

أما ( سقراط ) ، فرغم أنه لم يترك من بعده أى مؤلفات مكتوبة ، إلا أنه يُعد أحد كبار مفكرى العالم . ولقد كانت كتابات ( أفلاطون ) من بعده ، تعد الأداة الرئيسية التى نقلت إلى العالم تأثير سقراط الفكرى .

وكان مولد سقراط فى أثينا عام ٤٦٩ ق . م . وقد اشتغل فى مطلع حياته بالنحت كأبيه . ولم يكن يبالى جمع المال أو يُعنى بتكوين ثروة ، مما أورثه كره زوجته ودوام شجارها معه . وهو وإن اعترف بوجود الآلهة التقليدية فى عصره ، فإنه كان يعتقد فى قرارة نفسه بوجود مدبر واحد للكون ، بالغ السمو والعلو والقدرة .

وعلى وفرة علمه وحكمته ، كان يردد قوله : « أنا أعرف شيئاً واحداً وهو أنى لاأعرف شيئاً » . وكان يقول إنه ليس بحكيم ، ولكنه طالب

حكمة . وكانت طريقته فى التعليم والإقناع تستند إلى قدرته فى فن الحوار . وكانت محاوراته فى محاكمته ، وما زالت ، دروساً تُشعّ الحكمة والفلسفة .

وجاء أفلاطون بعد سقراط ليكمل رسالته . وقد رأى النور فى أثينا عام ٤٢٧ ق . م. وكان ثراء أسرته قد أفسح له مجال الاشتغال بالفلسفة ، بدون الحاجة إلى الكد فى سبيل الرزق . وقد ترك مؤلفات بلغ عددها ستة وخمسين كتاباً . ومن أشهر مؤلفاته كتاب « فيدو » الذى أبرز فيه تعاليم سقراط حول خلود الروح . وكتاب « الجمهورية » الذى اشتهر فيما بعد باسم « المدينة الفاضلة » .

وجاء من بعدهما — أرسطو — الذى كان يلقب بالمعلم الأول ، كما كان يعد من أعظم مفكرى العالم . وقد ولد فى مقدونيا عام ٣٨٣ ق . م . ، وتلقى العلم على يد — أفلاطون — مدى عشرين عاماً . وكان قد تلقى بعد وفاة أفلاطون دعوة من الملك فيليب المقدونى ليكون معلم ابنه الذى أصبح فيما بعد الإسكندر الأكبر . وكان يُعد معلماً ومستشاراً وصديقاً للإسكندر وعندما انشغل الإسكندر بفتوحاته شرقاً وغرباً ، افتتح أرسطو مدرسته ( لوكيون ) . وقد عُرف أتباعه وتلاميذه بالمشائين ، لأنه كان من عادته أن يمشى بينهم وهو يلقى عليهم الدروس .

ومن أشهر مؤلفاته : «أورجانون والأخلاق» (الذى ترجمه أحمد لطفى السيد) ، وفن الشعر ، والمنطق وتاريخ الحيوانات وعلم الفلك .

هذا البلد الغنى بهذه الكنوز من المعرفة الثرى بالنادر من الفلسفة والمنطق والفلك والنحت والشعر ، كان حرياً منى بكل تقدير ، كما أننى كنت ولم أزل حفياً به فى كل آن .

كان ( الفريد دى موسيه ) يصف اليونان بقوله : إنها أم الفنون وأرض الهيام» . أما أنها أم الفنون ، فهذه هى آثارها * التى تغالب الأيام ،

* ومن أشهر هذه الآثار معبد « الأكروبول » ومعبد « بركليس » صاحب العهد الزاهر الذى اشتهر بالعهد الذهبى . ومعابد كثيرة أخرى لم يبق منها إلا أعمدتها . وقد انتشرت آثار الإغريق فى جزر البحر الأبيض وفى أزمير بتركيا .

تشهد بحضارتها وفنونها ، وهذه هى مخطوطاتها من ملاحم وشعر وتمثيليات وفلسفة وفكر ومنطق ، تترجم عما بلغته من رفعة . وأما أنها أرض الهيام ، فهذه هى قصصها وأشعارها وملاحمها تروى قصص الحب والوفاء الذى تحكيه قصة ( بينيلوب ) زوجة ( أجا ممنون ) التى راوغت القواد من زملاء زوجها عندما طالت غيبته ، ولاحقوها بطلب زواجهم منها ، وما كانت تدعيه من أنها سوف تختار من بينهم زوجها عندما تنتهى من نسج ثوب لها من الصوف . وعندما كان يأتى المساء ، تلجأ إلى حل النسيج لتبدأ من غدها فى نسجه من جديد هذا إلى جانب قصة هيلانة التى قامت بسببها حروب طروادة .

لقد شاء القدر لى أن أبدأ أول صفحة فى كتاب عملى الوظيفى ، الدبلوماسى ، فى بلد كله فن وشعر وحب وجمال . ولم أنس الموسيقى ولكنى أستبقيها إلى موضعها القريب من هذا الفصل ، ولأتحدث عنها حديث هائم بما تلم وتحويه من عزف بارع أوصوت ساحر .

ودعت صحبى فى ليلة نابغية استمرت حتى الفجر ، أحياها الأستاذ الموسيقار محمد عبد الوهاب ، فى دار أحد أصدقائه وأصدقائى . وقد امتلأت الدار على سعتها بالمودّعين من الصحاب . وطال استمتاعنا بغناء عبد الوهاب . وأنسنا به ، وكأنما كنت أتزوّد من صوت عبد الوهاب قبل أن أنأى إلى مكان لا يصل إلىّ فيه صوته .

وبعد يوم من هذه الليلة ، سافرت إلى الإسكندرية بقطار الظهر . وكان كثير من الأهل والصحاب فى وداعى . وقبل تحرك القطار بخمس دقائق شاهدت عبد الوهاب . قادماً لتوديعى . ولم أكن أظن أن فى استطاعته أن يستيقظ فى مثل هذا الوقت . . . من الظهر . . . ولكنه كان يدّخر لى مفاجأة . فقد ناولنى (ألبوم) يضم عدداً وافراً من اسطواناته ، كان من بينها الكثير من نظمى .

لكم أسعدنى أن أحمل معى ما كنت أشفق من حرمانى من سماعه .

فلم تكن آنذاك قد اخترعت آلات التسجيل ، كما أنه لم تكن محطة إذاعة مصر قد أنشئت ، حتى أستطيع أن أستمع إليها وأنا فى أوربا . من أجل ذلك كانت هذه الهدية الفريدة ، بالغة القيمة بين ما أحمله من متاع .
وكان موقفى من هذا الألبوم أشبه بموقف ( شوبان ) من قبضة التراب التى حملها معه فى زجاجة ، عندما كان يهم بالرحيل عن وطنه بولونيا إلى باريس ، وظل يحتفظ بها أينما حل أو ارتحل ، فهى قطعة من وطنه وعطره وشذاه .
أبحرت من الإسكندرية على ظهر باخرة تركية اسمها ( إيجيه ) . وكم تمنيت أن تكون لنا بواخر تمخر عباب بحرنا المتوسط ، وترفع علمنا خفاقاً عالياً مع أعلام الدول الأخرى . وكأنما أراد الله أن يكرمنى ، فأحيانى لأرى بعد سنوات معدودة من رجائى ، بوارج لنا وبواخر ، تحمى أولاها شواطئنا ، وتبحر الأخرى إلى مختلف الموانى . ولقد كان الفضل الأول فى إنشاء بحرية تجارية لمصر ، يرجع إلى المغفور له محمد طلعت حرب ، الاقتصادى الكبير الذى حقق لمصر استقلالها الاقتصادى ، بمشروعاته المصرفية والصناعية والبحرية فى مختلف المدن والقطاعات .

كنت فى حاجة إلى الجلوس وحدى على سطح الباخرة قبيل الغروب . وكنت أحمل كتيباً يحتوى على معلومات عن اليونان ، رحت أقرأ فيه :
تسمى اليونان ( هيلاس ) باللغة اليونانية . وهى إحدى دول شبه جزيرة البلقان . وتحد اليونان شرقاً ببحر إيجيه ، وجنوباً بالبحر المتوسط ، وغرباً بالبحر الإيونى ، وشمالا ببلغاريا ويوجوسلافيا وألبانيا . وتبلغ مساحتها ١٣٣٠٠٠ كيلومتر مربع . وعدد سكانها ٧,٦٠٣,٦٠٠ نسمة ( عام ١٩٣٠ ) . وعاصمتها أثينا . ومدنها الكبرى هى بيريه وسالونيك وباتراس . وتعد اليونان من أضيق دول العالم مساحة بالنسبة لسكانها . كما تعد من أكثرها جبالا . ولشواطئها خلجان عديدة أشهرها خليج دورينثيا . ومناخ اليونان هو مناخ دول حوض البحر المتوسط . وصيفها طويل وجاف ، وشتاؤها قصير وممطر أحياناً ، وجميل ومشرق فى

أغلب أيامه . وتعتبر اليونان دولة زراعية . وهى تزرع الحبوب والكروم والتين والدخان والزيتون . وتصدر اليونان الأنبذة والتين والدخان وزيت الزيتون وبعض المعادن وكذلك الرخام . وبأرضها معادن أشهرها الحديد والزنك والمنجنيز والنحاس . أما صناعاتها فمتوسطة الجودة . وهى تتركز فى سالونيك وبيريه ؛ حيث يصنعون المنسوجات والمنتجات الكيماوية والجلود . وتستورد اليونان البترول والصوف والقطن والمنسوجات والملابس الجاهزة .

وكان الحكم فى اليونان ملكياً منذ عام ١٨٣٠ . ثم أصبحت جمهورية فى عام ١٩٢٤ . ثم عادت إلى الملكية عام ١٩٣٥ . وتتكون السلطة التشريعية من مجلسى النواب والشيوخ .

* * *

كان الليل قد زحف على فلول النهار ، بعد أن مالت الشمس إلى المغيب وراء الأفق ، فى موكب كله جلال ورونق وبهاء . وكانت حمرة الشفق فوق خد السماء ، تسعد النفس وتستأثر باهتمام العين وتدغدغ الحواس والمشاعر .

هنا نامت الأشباح بين أجفان بنات الماء ، وامتزج النور بالظلام ، وغلب السكون على الأصوات ، وتلاشت من النفوس أشجان وأشجان . هنا لثمات النسيم شوق وهيام ، ومداعبة الموجة للموجة حديث عبقرى اللسان . وليس ثمة ما يُعين على احتمال مشاق الحياة ويخفف من وحشتها مثل جمال الطبيعة وهى تتزين وتتجمل ، وقت الفجر ، وحين الضحى ، وساعة الغروب وعند المساء ، فهى لعوب تعرف مكامن فتنتها فتجلوها بهجة للناظرين .

وسط هذا الجلال البهيج ، أطلقت لفكرى العنان ، ليحملنى على محفته الأثيرية نحو آفاق من التأمل فى سر الوجود وحكمة الخالق .

كانت النجوم قد انتشرت فى السماء بعد أن غابت واختفت

( ڤينوس )* التى تسبق النجوم فى الظهور ، وتسبقها فى الرواح ، شأنها فى ذلك شأن رجال الإكليروس ورجال الدين من كل عقيدة ، فى بكورهم عند الصباح ، ورواحهم بعد غياب الشمس ، حيث لاتقع العين على أحد منهم فى الطرقات . بعد أن يرخى الليل سدوله ، انتشالاً لأرواحهم المتعبدة من غمرة مايضطرب فيه الناس . وكنت أولى وجهى شطر ما أنا مقبل عليه من بلد رأيت بعض أهله بيننا فى مصر والإسكندرية ، وإن لم أكن رأيت من أرضه شيئاً . وعدت بالذاكرة إلى ما مضى من تاريخى القصير فى الوظائف العامة . ورأيت أنى كنت فى المحاماة ( القضاء المترافع ) أدافع عن المتهم ، إما لتبرئته أو لتخفيف الحكم عليه . ورأيت أنى كنت فى وظائف النيابة العامة ( القضاء الواقف ) أقوم بالدفاع عن المجتمع الذى يعيث فى مختلف قطاعاته المنحرفون ، حتى يقعوا ويقفوا أمام النيابة التى تكشف النقاب عن جرائمهم وتطالب بتطبيق العقوبات التى تتناسب مع جرائمهم . ورأيت أنى فى وظيفتى الدبلوماسية الجديدة ، سوف أتعرض للدفاع عن حق وطنى فى أى مكان أرى فيه انتقاصاً من قدره ، أوتجريحه ، أوالتجنى عليه . ولاعجب فى أن القدر كان يرسم لى خطاى ومسارى ودورى فى الحياة منذ البداية ، ولكن مثار العجب ، أن يكون سيرى فى طرق متحدة الغاية ، ومتباينة المسالك والدروب .

وهكذا تكون مصائرنا كالسحب الشاردة فى سماء الحياة ، أمام دفع رياح القدر والمصير ، التى تذهب بها نحو النهاية المحتومة ، والغاية التى مابعدها غاية ، مهما اختلفت المسالك .

* * *

بعد ليلتين اثنتين ، وأقل من نهارين فى عرض البحر ، وصلنا بيريه ثغر اليونان . كانت المنازل مقامة فوق مرتفع بدت معه كأنها

* ( فينوس ) هى كوكب الزهرة ثانى الكواكب قرباً من الشمس . ويسبقها فى ذلك ( ميركورى ) وهو الكوكب عطارد . أما الأرض فهى ثالث الكواكب قرباً من الشمس .

( انفتياتر) يعلو بعضها بعضاً . وبعد أن ودعت من كنت عرفتهم من يونانيي مصر على ظهر الباخرة، أتممت إجراءات الجوازات والجمرك ، وغادرت الميناء فى تاكسى حمل حقائبى إلى دار القنصلية . لم أجد صعوبة فى كل هذه المرحلة بسبب سهولة التفاهم باللغة العربية التى يعرفها فى الميناء كثيرون من الأهالى .

بودى أن أنجح فى أن أستل من فكر القارئ ، مايمكن أن يساوره من الظن بأنى أقوم بعملية (مونتاج ) ، لاأستبقى من الذكريات إلا كل ماهو جميل ، كما يفعل (المونتير) بالفيلم ولكننى ، كما سبق أن ذكرت ، فيلم فوتوغرافى ، أو شريط تسجيل ، أدون ذكرياتى كما وقعت ، وأستدنيها بعد أن بعدت أحداثها ، مستعيناً برءوس مواضيع ،هى كل عدتى فيما أدون ، مع القصد فى السرد

أعود بعد هذا الاستدراك لأقول ، إننى وصلت إلى دار القنصلية العامة ، الساعة التاسعة صباحاً ، وهو موعد يعد مبكراً بالنسبة لعمل البعثات التمثيلية ، بسبب ماهو ملقى عليهم من واجبات اجتماعية هى النصف الثانى ، إن لم تكن اكثر قليلا ، من واجباتهم المكتبية .

ولما فتح لى المستخدم اليونانى دار االقنصلية ، أدخلنى إلى غرفة الاستقبال ، حيث وافانى كهل مهذب ، أظهر لى كثيراً من الاحترام الذى رددته بأحسن منه . وراح يتحدث عن اليونان، بالفرنسية ، حديثاً حملنى على أن أقول بينى وبين نفسى : لقد صدق ظنى ، وهذا برهان حذلقة أعضاء السلك الدبلوماسى من الزملاء ، وهذا فيما يبدو ، كبيرهم هنا . وإلا فما معنى امتناعه عن الحديث بالعربى . . . . . »

ولم يطل بى الوقت حتى وصل أحد الزملاء الذى أظهر للكهل المهذب كثيراً من التعالى ، حمل الرجل على الانصراف . فقد كان الرجل المهذب ، هو مترجم القنصلية ، وكان قد تلقى من الزميل أمراً بإنجاز عمل عاجل ، لم يكن أتمه ، فترك الحجرة مهرولا . . .

بعد ليلة عصيبة فى حر ورطوبة بيريه ، انتقلت إلى بنسيون حجز لى فيه الزملاء حجرة تطل على البحر ذات مدخل واسع فسيح ، كان يصلح صالونًا للاستقبال . وراقت لى هذه الضاحية التى عرفت أنها تُدعى « فيوفاليرن » . وكان البنسيون يواجبه البحر وعلى كورنيش جميل هادئ نظيف . استبشرت خيراً بهذا القرب من البحر . ولم يحدث فى حياتى أن سكنت بعيداً من نهر أو بحر . وليس أحب إلى من أن أرى أول ماأرى صفحة الماء ولاأكثر وحشة لنفسى من أن أحرم من مجرى للماء يومًا أو بعض يوم . فإن سكنت بعيدا عنه سعيت إليه مشتاقًا .

كان علىّ فى ثانى يوم لوصولى ، أن أقصد المفوضية فى أثينا . والمسافة يقطعها مترو سريع فى ربع الساعة . ولم يكن لمصر سفارات قبل عام ١٩٣٦ عندما تم عقد معاهدة مع بريطانيا ، وتبادل البلدان التمثيل الدبلوماسى على مستوى السفارات . وفى ذلك العام أنشأت مصر فى الأربع العواصم الكبرى فى العالم سفارات لها هى فيما عدا لندن : روما و واشنطون و باريس .

كنت قد وقفت على علم وفضل الوزير المفوض لمصر فى أثينا ، الأستاذ الكبير إسماعيل كامل قبل أن أراه . ولكنى بعد أن حادثنى وألفته وجدت أن مايخفيه من واسع معارفه ، مردّه ، إلى تواضعه الكبير . لقد تعلمت منه فى الفترة الوجيزة التى قضاها قبل أن ينتقل إلى طهران ، أثمن مايحرص المرء على أن يمتلكه : شجاعة الرأى ، وتحمل المسئولية ، وقوة الإيمان . وقد كان صوفيًا ، واسع النظرة إلى كنه الحياة وزخارف الدنيا . وكان عطوفًا رحيمًا ، كأنما صيغ قلبه من محبة وحنان . كان إذا مرض أحدنا ، عاده فى مسكنه ، وأغدق على من يقوم بخدمته مبلغًا يصيب الخادم بالدوران . ثم لايلبث أن يبعث للمريض بالمجلات والزهور والسجاير والحلوى ، ثم يواليه بالسؤال حتى يشفى مما ألم به .

تعتبر أثينا من المدن الأوربية القليلة التى تبلغ الحرارة فيها حداً

يدفع بمن لايقدر من الأهالى على الذهاب إلى المتنزهات أو إلى البحر ، تدفع بهم إلى الجلوس أمام منازلهم مثلما كان الحال فى قاهرتنا القديمة وكان يزيدم من حرارة الجو فى أثينا ، انتشار تكسية جدران الدور الأول من العمارات ومداخلها بالرخام الذى يختزن حرارة الشمس نهاراً ويشعها سعيراً فى الليل .

وكان من عادة الوزير المفوض ، فى الليالى التى لايكون فيها داعياً أو مدعواً ، أن يجمع أعضاء المفوضية وأعضاء القنصلية العامة إلى عشاء يقيمه فى سطح المفوضية الذى أمر بإعداده لهذا الغرض ، فكان متنفساً ومتعة يزيد من التلذذ بها ، أحاديث المغفور له الوزير المفوض والأستاذ الكبير القنصل العام حسين رمزى ، حول التصوف والصوفية . وكان القنصل العام قد تخصص فى علم النفس الجنائى . وكان كثير الحديث عن البروفيسور « لمبروزو » أستاذ هذه المادة التى أحبها واختارها عندما كان يطلب العلم فى روما دارساً للقانون ولعلم النفس الجنائى ، وكان هذا العلم قد أحال حياة القنصل العام تعلقاً بتطبيق نظريات أستاذه « لمبروزو » على كل من يقع نظره عليه . فهذا مجرم بالوراثة ، وهذا يحمل وجهه ملامح المغامرين ، وهذا يميل إلى الخيانة إذا استثير . وكنا إذا ذهبنا إلى حفل كوكتيل ، يروح يتفحص وجوه المدعوين ليقع على فرائس تطبيق نظرياته . وكان كثيراً مايسر فى أذنى بما يكون قد وقع عليه من اكتشاف . وقد ألف ثلاثة كتب قيمة فى هذا الفن ، ياحبذا لو عمل أنجاله على إصدارها تكريماً لذكراه .

وكنا نمضى الليل على مائدة الوزير المفوض حول أحاديث شجية يثيرها حيناً القنصل العام وحيناً الوزير المفوض ، ثم نعرج على آخر أخبار المدينة وأنباء المفوضيات والحوادث المحلية ذات الدلالات السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية والتعليق على مايصلنا من أنباء مصر .

فى هذا الجو الأنيق كنا نتعلم كيف يمكن بحديث رشيق أن يكسب

الممثل الدبلوماسي محبة من حوله ومن يتعامل معهم . وكيف أنه عن هذا الطريق ،، يصل إلى طلبه في يسر ، يتعذر على غيره لاستحالة ذلك بما يقيمه حول نفسه من حواجز التعالى . والتشبث بتوافه الأمور . وكان وزيرنا المفوض مدار أحاديث الإعجاب من أرقى المجتمعات وأعلى الطبقات ومن كبار رجال الدولة . وكان عند نقله موضع أسف الرسميين والدبلوماسيين وشخصيات المجتمع الرفيع .

كان عملى فى القنصلية يشتمل على جوانب متعددة . فقد كنت أقوم بأعمال إحصائية وإدارية وحسابية وبعض الأعمال المتعلقة بجوازات السفر بعد أن تمر على نائب القنصل العام لمنحها تأشيرة الدخول أو المرور . وقد سكت على مضض . ولكنى قلت لنفسى : وماذا كنت تنتظر ! هل حضرت للمفاوضة أو لعقد اتفاقية ثقافية أوتجارية ! إن التدرج سنة الوظيفة الحكومية . ورضيت قانعاً بهذه الفلسفة الحكيمة . وحمدت الله على أن جو اليونان قد أشاع فى نفسى فلسفة الأمور .

لاحظت أن تأشيرات الدخول والمرور قد قل طلابها . ثم تبين لنا أعجب مايمكن أن يخطر على البال . لقد توصل بعض الأشقياء من المهاجرين إلى تزوير أختام القنصلية التى توضع على جوازات السفر ، وتزوير طوابع القيمة التى يدفعها حامل الجواز . ثم فتحوا مكتباً بالقرب من القنصلية يتولى سراً هذه العملية المربحة لهم والخاسرة بالنسبة للدولة المصرية إذن فقد ظهر لنا منافس فى الحى نفسه ولم يكن من المستطاع أن نضع يدنا على هذا المكتب ، لولا أن مراقبة الجوازات فى الإسكندرية شكت فى أختام تأشيرة ونوع الطوابع القنصلية . وبهذا تحرك الموضوع حتى وضعت السلطات اليونانية يدها على هذه العصابة الجريئة . وقد كان من نتائج ذلك ، الحرص على وضع خاتم نحاسى لاسبيل إلى تزويره ، كما حدث على يد البارعين من الأرمن المهاجرين إلى اليونان من تركيا .

انتدبت للعمل بالمفوضية بدلا من زميل قام بإجازة طويلة . وقد

أفسح لى هذا الانتداب المجال للاطلاع على اقتصاديات اليونان من خلال الاطلاع على التقارير الاقتصادية والنشرات الاقتصادية التى كانت ترد للمفوضية . كانت اليونان توازن ميزانها التجارى بكل مشقة . وكانت عند العجز تؤجل الديون سنة بعد أخرى متحملة فوائد التأخير . وكانت الشركات الأجنبية من بريطانية وبلجيكية و إيطالية وفرنسية تحتكر المرافق العامة من طرق إلى ترام إلى أوتوبيس إلى مياه إلى كهرباء إلى فتح الشوارع الجديدة هذا إلى جانب تلغراف ماركونى والتليفون وكذلك السكة الحديد .

وقد لاحظت أن أحد الشوارع الكبرى الذى يربط العاصمة أثينا بضاحية ( نيو فاليرون ) ثم بيريه ، قد أقيم عند بدايته ونهايته كشك لتحصيل أجرة المرور من السيارات مع اختلاف الأجرة تبعاً لنوع السيارة إن كانت نقلا أو للركاب . ثم علمت أن شركة بلجيكية تحملت شق الطريق ، ولم يكن لدى الحكومة اليونانية فائض للصرف على هذا المشروع من الميزانية فتكفلت الشركة بالقيام بهذه العملية فى التحصيل ، حتى إذا استوفت أموالها تركت الأمر للحكومة اليونانية .

وكان مما أضر باقتصاد اليونان ، وصول أفواج اليونانيين الذين كانوا يقيمون فى تركيا ، بعد تبادلهم مع الأتراك الذين كانوا يقيمون فى اليونان . وقد بلغ عدد العائدين من تركيا فيما عدا استانبول ، مليوناً من الأنفس تنفيذاً للمعاهدات والاتفاقيات المبرمة فى لوزان منذ عام ١٩٢٣ بين تركيا واليونان بعد انتهاء الأعمال الحربية بين البلدين .

كان وصول هذه الأفواج يتطلب وظائف لهم ومساكن ومرافق . وقد رأينهم وهم يقيمون فى منازل مؤقتة من الصفيح . كان عبؤهم مما ينوء به كاهل أية دولة تفاجأ به أو يفرض عليها .

واضطرت الحكومة إلى فرض ضرائب جديدة . واضطر التجار إلى استنباط طرق للكسب ، كانت فى نظرهم مشروعة ، لأنها توازن بين دخلهم ومصروفهم ، بدون مراعاة لما يتخلف عنها من ضرر بالغير .

فلقد لجأت المطاعم على سبيل المثال إلى استعمال مسلى مغشوش كان أثره يظهر بأسرع مما يظهر به أثر الخمر على شاربها . وكانت أشهر المطاعم فى أثينا ، مطعم البانثيون ومطعم أفيروف . وقد كتبت إحدى المجلات الهزلية إعلانًا بارعًا حاذقًا ، انتقاداً لهذه الظاهرة التى تضر بسمعة اليونان لدى السائحين ، الذين لم يكونوا بالكثرة التى تدر الآن على اليونان ملايين ومئات الملايين من الدولارات . كان الإعلان يقول :

« يعلن مطعم أفيروف أن مايستعمله من المسلى لاتزيد نسبة الغش فيه عن سبعين فى المائة » .

وجاء تصرف شركة النور الكهربائى ضغثًا على إبالة . وكانت الشركة بلجيكية . قد رأت أن ترفع فى هذه الأزمة الخانقة سعر استهلاك الكيلوات بنسبة ثلث السعر القائم .

كان يرأس الوزارة فى ذلك الحين من عام ١٩٣٢ ، مسيو « إليثيريوس فينيزيلوس » وهو من مواليد جزيرة كريت ١٨٦٤ — ١٩٣٦ . وقد تولى رياسة الوزارة ثلاث مرات . وهو سياسى صلب العود صعب المراس لايسهل الإيقاع به أو توريطه . وكان إذا تمكن من خصمه كال له الصاع صاعين أو يزيد وعندما علم بأمر إقدام شركة النور على رفع سعر الاستهلاك : أصدر تعليماته بتقديم الوقت ساعتين فى الصيف ، حتى يفوت على الشركة أكبر قدر من الاستغلال . وما إن رأت الشركة تدهور الإيرادات حتى لجأ مديرها إلى رئيس الوزراء لينهى إليه قرار الشركة بالعودة إلى سعر الاستهلاك السابق ، غير أن رئيس الوزراء طلب إنزال السعر ، مقابل تقديم الوقت ساعة واحدة . وقد قبل المدير صاغراً .

انتهت مدة انتدابى بالمفوضية وعدت إلى القنصلية العامة . كانت العطلة للقنصلية تتمشى مع عطلة الحكومة والقنصليات الأخرى وتقع يوم الأحد . وذات أحد من هذه الآحاد ، ذهبت مع بعض زملاء العمل إلى ميدان السباق (إيبودروم) . وأيبو باللغة اليونانية تعنى الخيل ،

ودروم - تعنى الأرض أوالميدان وكان المطار على هذا النسق يسمى ( أيرودروم ) أى أرض الطيران . وكان هذا الأحد يوافق آخر أسبوع لموسم السباق قبل حلول الصيف . وقد استرعوا أنظارنا عند الدخول من باب السباق للاحتفاظ بكعب تذكرة الدخول ، التى سوف يُجرى على كل تذاكر الدخول ، سحب لجائزة سيعلن عنها عند نهاية السباق. وكان الشوط الأخير فى هذا اليوم هو الذى سيجرى عليه السحب . وقد أبلغنا خبير ببواطن الخيل من موظفى الإدارة ، أن هذا الشوط سوف تتسابق فيه كل الخيول التى لم تنجح مطلقاً فى الوصول لا إلى مُجلى ولا إلى مُصلىً . بل كانت هى الخيول ( المازيت ) أى خائبة الرجاء وكان الحصان الذى سيفوز فى هذا السباق سيكون من نصيب الرقم الذى سيجرى عليه السحب . وجرت الخيول ، وكان لابد من أن يتقدم واحد منها على الآخرين . وسمعنا نداءات بالميكروفون تنادى بالرقم الفائز . ورحنا نتفحص كعوب تذاكرنا وإذا برقم تذكرتى يطابق الرقم المسحوب ولما تم علم الإدارة بذلك ، جاءنى ( سايس ) يقود الحصان الفائز ليسلمه لى يداً بيد ، ويخلى ذمته وذمة مجلس الإدارة . وذهبنا إلى مدير السباق وشرحت له أمرى وأفهمته أنى أنزل فى بنسيون ، وبحسب ماأعلم ليس فيه موضع لقدم إنسان لالرجل حصان . وكلمة من هنا وكلمة من هناك ، انتهى الأمر ببيع الحصان أمامنا بطريق المزايدة ، ورسا المزاد على أحد الحاضرين الذى كان يبدو فحلاً فى صورة معلمى العربات وكان المبلغ يعادل عشرين جنيها إسترلينياً فى ذلك الأوان . وهكذا تتبدل حظوظ الناس وحظوظ الخيول . فمن بعد سايس إلى مدرب إلى جوكى إلى دكتور إلى وجبات فى مواعيدها ينزل قدر الحصان إلى جرعربة ، وتحمل شطط ( عربجى ) لايفتر كرباجه عن الضرب ، ولاصوته عن الصياح ، ومن أين له أن يعلم أن هذا الحصان هو ابن جليمو ابن ماليتيس ابن أوليمب ابن هيلين .وأنه كان فى سابق العصر والأوان

محط أنظار المتراهنين وآمالهم ، وجامع مطامعهم ومبدد أموالهم :
وقديماً قال المتنبي :

« أنف العزيز بقطع العز يُجتَدَعُ »

* * *

كانت الحياة السياسية لليونان فى تلك الفترة من التاريخ ، أى فى الثلاثينات ، حياة هادئة ، بعد حروبها مع الأتراك فى عهد الغازى مصطفى كمال ، وخروجها «مندحرة» ، وبعد أن تكبدت خسائر جسيمة من جراء هزيمتها فى ( اينونو ) برغم مظاهرة بريطانيا لها وانسحاب فرنسا وإيطاليا من الأراضى التى كانوا احتلوها فى تركيا ، مقابل منحهما امتيازات اقتصادية من تركيا . وفى نهاية يناير من عام ١٩٢٣ توصل عصمت إينونو مع الحلفاء إلى اتفاق حول الحدود فى تراقيا وحول ملكية كثير من جزر بحر إيجه ، وحول إجراء تبادل إجبارى بين الأقليات اليونانية والتركية ، وقد تم الاتفاق على كل هذه الشئون فى معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ . وكان هذا التبادل ، قد كبد اليونان — كما سبق وأشرنا إلى ذلك — التزامات اقتصادية ناءت بحملها ؛ وذلك عند إتمام التبادل الذى تأخر تنفيذه حتى أواخر العشرينات ، وأصابها بنزيف مالى خطير أضر بميزانيتها العامة وميزان مدفوعاتها .

وكانت علاقة اليونان بجاراتها ، علاقة صداقة ؛ فيما عدا بعض مناوشات مع بلغاريا حول حق الصيد فى نهر ماريتزا الذى يجرى فى أراضى البلدين .

أما علاقة اليونان بمصر فقد كانت فى أوج مراتبها . وكنا نعتبر من رعايا الدولة الأكثر رعاية . وكان رعايا اليونان فى مصر ينعمون فى ظلال وارفة من الدعة والمال الوفير بحكم النظم التى كانت بريطانيا تساعد على إبقائها للأجانب . ولم أجد بلداً كان يرحب ترحيباً بدوياً برعايا بلد آخر مثلما كان يفعل أهل اليونان بمن يحل من المصريين ببلادهم .

فقد كانت اليونان تستقبل الكثيرين من رعايا مصر فى مصايفها فى ( جليفادا ) و ( فوليا غمينى ) وفى (كيفيسيا ) وفى الجزر المنتشرة التى كانت أكثرها شهرة جزيرة ( لوتراكى ) بسبب فاكهتها ومياهها المعدنية ورخص أسعارها نظراً لقوة عملتنا الشرائية بالنسبة لعملة اليونان (الدراخمة ) أى الدرهم فى ذلك الحين .

* * *

كانت الحياة العامة للشعب اليونانى تجذبنى وتسترعى اهتمامى . فالشعب اليونانى شعب كادح وقت عمله ، مرح وقت فراغه . ولم يحدث أن رأيت تشييع جنازة ، مدى عامين من إقامتى ، حتى كاد يستقر فى ذهنى أن اليونانى لا يموت . وكأنما يعيش الشعب وفقاً لمذهب إيليا أبو ماضى :

وتمتع بالصبح ما دمت فيه
لا تخف أن يزول حتى يزولا

وهو شعب طروب لا يمل من عزف الموسيقى أو الاستماع إليها ، والرقص أينما اتسع المجال له ، فإن لم يتسع ، خلقوا مناسبته .

ولقد وزع كبير الآلهة ( زيوس ) الأعمال فيما بينها . فهناك آلهة للجمال ، وآلهة للحب وآلهة للحكمة وآلهة للشعر وآلهة للصيد وآلهة للخصب وآلهة للخمر . ولقد قام رئيسهم رب الأرباب « زيوس » بهذا التوزيع منعاً لتنازع الاختصاص الذى كثيراً ما يقع بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة القضائية فى عالم الناس ، والذى كان ( مونتسكيو ) . أول المفكرين فيه .

ومن حسن الطالع أن البنسيون الذى نزلت به فى ضاحية ، «فيوفاليرون» كان يملكه رجل يونانى ممن هاجروا إلى أمريكا وعاد بعد أن أصاب قدراً من الثروة رأى أن يستثمرها فى أرض الوطن . وكان هو دليلى إلى كل مكان أحتاج فيه إلى فهم ما يدور حولى . وفيما عدا ذلك ، فقد كان

يكفيني ، وأنا وحدى ، عددٌ من الكلمات اليونانية أستعملها فى المطعم والمواصلات والسينما وقص الشعر . أما المشتريات فلم تكن تزيد عن شراء علبة سجاير عندما كنت أدخن . وكان النوع الذى أدخنه طويل الاسم ، يصعب علىّ نطقه من الذاكرة .

فكنت أدون الاسم فى نوتة معى . وأشفع الطلب بكلمة ( من فضلك ) . فتكون الجملة المفيدة . . . « إينا بابا ستراتوس نوميرو إيكوسى سس باراكا لو كيرى » . ومعناها : « اعطنى من فضلك يا مسيو ، علبة سجاير بابا ستراتوس رقم ٦ » . وظللت حتى آخر يوم لى فى اليونان أقوم بالدور الآتى : أقف أمام كشك أو دكان سجاير ، وأخرج النوتة من جيبى وأمضى فى تلاوة الموشح أو النشيد الصباحى أمام البائع الذى كان يستحثنى على المزيد من الحديث — وهم أهل حوار — ولكنه يفهم من البلاهة التى ترتسم على وجهى ، أن ما قلته هو كل ما عندى من لغة الإغريق .

أما الطلبات فى المقاهى فأمرها هين . وكنت أجلس فى مقهى قريب من مسكنى . وقد عرف أمرى بائع فستق يتردد على المقهى . وذات يوم فاجأنى بقوله بلغة قاهرية سليمة : تلعب فرد وجوز . . . وفى يوم آخر قصدنى وأنا بالمقهى ، الذى علم من صاحبه أنى مصرى ، شيخ مهدم فى ثياب رثة بالية ، يتوكأ على عصا . ورأيته يقول لى همساً بلغة قاهرية سليمة : لله يا بيه . فقلت له وأنا ذاهل من المفاجأة : سائل وشحاذ وقادم من مصر ؟ فقال لى الرجل فى توجع وندم : الله يلعن البورصة وكونتراتات القطن .

وكانت المقاهى تغص بروادها ليلا ونهاراً . وهى كثيرة كثرة حملتنى على أن أرد على صديق سألنى عند عودتى عما لفت نظرى قبل كل شىء فى اليونان ، بقولى : كثرة المقاهى ، حتى لتستطيع أن تعدّ بين القهوة والقهوة ، عشرين قهوة . . .

* * *

كانت الموسيقى ، منذ أن بدأت أميز بين الأصوات ، شاغلى وصبابة نفسى ومهوى خاطرى . واليونان تعزف موسيقاها المحلية وتعزف معها الموسيقى الغربية بمجرد طبعها على أسطوانات تصل إليها كبشاير الفاكهة . وهى من حيث الموسيقى ، تنفتح على كافة البلدان الأوربية أو الأمريكية ، وبخاصة ما تعلق منها بموسيقى الرقص ، التى يترجمون كلماتها الأجنبية إلى كلمات يونانية بدقة لا تحس أنها كانت من قبل بأى لغة سوى هذه اللغة اليونانية التى تستمع إليها .

ولست أنكر فضل اليونان ، ويدها عندى فى متابعتى للموسيقى الغربية وتأصيلها فى نفسى وتعميقها فى مشاعرى وإحساسى ومذاقى . وكنت أقصد القاعات التى تقدم الموسيقى الكلاسيكية أو الخفيفة كلما استطعت إلى ذلك سبيلا . ولكننى أردت برغبة ملحة ، أن أستمع إلى موسيقى اليونان الشعبية . فهذه هى الصورة التى أراها ناطقة بحقيقة مشاعر الشعب ومعاناته وآماله . وهى اللسان المعبر عما فى مكنون النفوس وخفايا المشاعر .

عرضت هذه الرغبة على صديقى ودليلى ( ليو ) صاحب البنسيون وسقراط مشاكلى وجالينوس متاعبى . ولقد أشفق من أن أترك الفنادق الكبرى مثل فندق ( جراند بريطانى ) وقاعات الموسيقى وحفلات موسيقى الحجرات وسوليست البيانو أو الفايلون أو التشيللو ، ومطاعم ( البانثيون ) ( وأفيروف ) ، وصالات الشاى بشارع الأكاديمى وباتيسيرى ( ياناكى ) ، لأذهب إلى مطعم شعبى لأستمع إلى موسيقى اليونان الشعبية . إلا أن إصرارى كان أقوى من منطقه .

وذات مساء صحبنى إلى ( تافيرنا ) ، يعكس كل سنتيمتر فيها حقيقة حياة الشعب الكادح المكدود . لقد كان يؤمها كل من ناله نصب أو رهق ، ليغرق همه فى جوها الصاخب المرح وفى كاسات من الأوزو

( الزبيب ) أو نبيذ الرتسينا الذى يستخرجونه من أشجار ( اليوكاليبتوس ) ، وفى تناول شواء الأوازى السمينة التى يخترقها سيخ يلف بها فوق نار فحم ، بمقدار وبفن وبطريقة خاصة يكتم سرها كل محل عن الآخر كجزئيات الدواء أو مقادير البارفان ، أوسر ( طعمية ) الحلوجى ونيفة الدهان .

وقد كان الإغريق القدامى ، أحذق أهل الأرض وأكثرهم علماً بالفلسفة والنحت والتمثيل والشواء . ولن تخفق فى أن تجد فى كل ميثولوجيا وصفاً لحفل يصنعون فيه هذا اللون من شواء الأوازى ، فى الهواء الطلق ، على جرعات وفيرة من النبيذ الأحمر ، الذى يثير كوامن نفوسهم ويدفعهم إلى الرقص الشعبى النابض بالحركة البارعة ، على إيقاع تصفيق جماعى متقن محكم ، كأنما قد رسمت إيقاعاته نوتة موسيقية .

وكنت منذ وصولى ، أستمع إلى أغنية تمسك بتلابيب أذنى ولا تدعها إلى أن أنام . وكنت أسمعها مذاعة من جرامافونات أو راديو أو بيانو أو كمان يمرعازفه على الأماكن العامة أو البيانولا التى تذرع الطرقات أو فى فترات الاستراحة بالسينما أو فى صالات الرقص والمنتديات والحدائق العامة . ولم أكن أعرف لها اسماً لأسأل عن خطبها وأصلها وفصلها ، إلا إذا (( دندنت )) بمقطع منها لمن أريد سؤاله ، وهو أمر غير مستساغ ولا مستطاع . وشاء الله أن يكشف لى عن سر هذه الأغنية التى لم ينقص إلا أن تتدفق إذا فتحت صنبور الماء ، مع الماء .

ذلك أننى عندما صحبنى دليلى الحكيم « ليو » إلى ( التافرنا ) الشعبية[1] ، رأيت سيدة شابة تعتلى مسرحاً متواضعاً ، وأصوات الحاضرين تطالبها بأغنية بالذات . وبعد مقدمة من عزف الآلات لموسيقى يونانية شعبية ، انطلقت حنجرة المغنية بالأغنية التى بلبلت

---

( ١ ) هذه المحلات يطلقون عليها اسم (البزوكيا) والاسم مشتق من آلة (البزق) التى تعزف أحياناً مع التخت الشرقى . وقد اشتهر السوريون والترك بعزفها .

أفكارى ردحاً من الزمن ، بدون أن أعرف السبيل إلى قصتها . كانت السيدة المغنية تذيع المقطوعة بتأثر بالغ ، يكاد ينتزع الدمع من المآقى قبل أن ينتزع تصفيق المشاهدين .

ولم ألبث أن سألت « ليو » بلهفة أفلتت منى ، عن قصة هذه الأغنية ، وسر انتشارها كل هذا الانتشار والذيوع .

أجابنى بأن الأغنية تحكى قصة واقعية حدثت منذ عهد قريب . فقد حدث أن أحبت أرملة متوسطة العمر ، شاباً غضاً بضاً ، وسيم الوجه ، ممتشق القوام ، حلو الحديث واللفتة والابتسام . وقد اتخذته الأرمل صديقاً ورفيقاً . وراح الفتى يرفل فيما كانت تغدقه عليه من نعم ومال وفير وعيش رغيد . ولم يلبث الربيع النضير أن مل الخريف الذابل ، وراح الفتى الريان يتطلع إلى ربيع فى مثل ربيع عمره . تاركاً جفاف الغصون وذبول الأوراق لقدرها .

وأحست الأرملة بغدر رفيقها . وحاولت أن تثنيه باللين تارة ، وبإغرائه بمزيد من المال أخرى ، وبالتهديد أخيراً ، والفتى سادر فى غيه . فقد كان حبه لفتاته أقوى من أى إغراء أو تهديد ، كما أن حب الأرملة للفتى كان هو كل ما تعيش من أجله . وفى ليلة اشتجر فيها الخلاف بينهما ، وفى لحظة غاب فيها الوعى وسيطر جنون الغيرة ، راحت الأرملة تخرج من حقيبتها مسدساً ، لتصوب نحو رفيقها رصاصة استقرت فى قلبه ، ومات لتوه . وراحت تبكيه فى جنون حتى فقدت عقلها ولم تصدق أنه مات بل هو فى غفوة لا يلبث بعدها أن يفيق . وكان مآلها مصحة أمراض عقلية حيث قضت فيها نحبها بعد قليل . وسرعان ما التقط خيط القصة شاعر شعبى ومؤلف موسيقى ، تعاونا على إخراجها فى صورة درامية ، وموسيقى عاطفية نابضة الإيقاع ، لم تلبث أن استحوذت على مشاعر الجماهير ، طول مدة إقامتى فى اليونان التى امتدت نحو عامين .

وكانت كلمات الأغنية تجرى على الوجه التالى ، مع تصرف تقتضيه الترجمة من لغة إلى لغة إلى لغة .

اصْحَ يا حبيبى ، ألم تسمع ندائى !
لطالما كنت تُجيبُ . كما يُجيب الحبيب
ألم تسمع ندائى ، يا حبيبى يا حبيبى !
أما زلت نائماً . كالبدر فى المغيب .
ولكن . يا إلهى ! لقد مات حبيبى !
أنا قتلته بيدى ! نعم قتلت حبيبى .
وكيف يصحو قتيلٌ ، يناديه قاتلهُ .
لقد قتلت حبيبى ، بيدى قتلت حبيبى .

* * *

لا بد لكل حلم جميل ، من أن يصحو صاحبه على واقع الحياة . فذات صباح ، ورد مع بريد القنصلية الذى يفضه القنصل العام ، كتابٌ يتضمن أمر نقلى إلى القنصلية العامة بسان فرنسسكو ، بمثل وظيفتى ، وبمرتبى نفسه وبدلاته من تمثيل وغلاء واغتراب . وكان الغلاء فى أمريكا وأنباؤه التى كانت تصلنا من الزملاء المارين ، قد أطاح بكل فرحة لهذا النقل .

ولقد بادر القنصل العام ذو القلب الكبير والعلم الفياض ، بإبلاغى النبأ فى مكتبى الذى انتقل إليه تدفعه عاطفة رحيمة حانية ، كان يُخفيها ، إشفاقاً علىّ من ذلك الغلاء الذى سوف أراه يدب على الأرض فى أى شق فى أمريكا ، ليزرى بمرتباتنا الضئيلة . ولم تكن الوزارة تعترف فى تلك الحقبة من التاريخ عام ١٩٣٢ بالغلاء إلا فى لندن والقدس . أما أمريكا فهى سواء بسواء كبيروت واليونان وإزمير ومارسيليا وحلب . ولم يكن وضع المرتبات يخضع لدراسات اقتصادية ووالية على يد أصحاب اختصاص ، ولكنه كان نتاج دراسة مبتسرة ، وعلى هدى تقارير

قديمة وحالات اقتصادية شملها التغير والتطور والتقدير ، إلى جانب نظرة الجهات الرسمية المسئولة تجاه الوظائف الدبلوماسية ، كما سيأتى بيانه فى موضعه من هذا الكتاب ، وموقف المجالس النيابية من هذه الوظائف التى لم تكن تعترف بفائدتها وجدواها ، بل تسكت على مضض لبقائها .

وكان القنصل العام يقول لى وهو فى موقف العزاء ، مواساة لى فى هذا الرزء والمصاب ، إننى سوف أرى مناطق لن يتسنى لأى ثرى أن يزورها إلا بإنفاق مبالغ طائلة . وإننى ما أزال فى مستهل حياتى ومقتبل عمرى ، والمشقة يقل وزنها لدى الشباب . ثم أردف قائلا بأسلوب آخر من العزاء ، إننى فى اعتقاده ، لن أستبدل أسلوب حياتى فى أى بلد أحل فيه ، بل سأبقى على طابعى ، كمصرنا الفرعونية القديمة . التى كانت تفرض ، حتى على غزاتها ، ديانتها ولغتها وعاداتها وتقاليدها .

وقال إنه سيذكرنى بعدم تسرب أى تغيير إلى نفسى ، إذا كتب الله لنا اللقاء . ولم أشأ أن يستمر الموقف دراميا . فقلت له متبسطاً ، ربما يتغير وزنى . . . فى أمريكا . . . بالنقص طبعاً .

* * *

بعد أيام معدودات ، كنت قد أنجزت إجراءات سفرى على باخرة يونانية من ثغر بيريه . وعندما كنت أاوح لزملائى من أعضاء المفوضية والقنصلية مودعاً من فوق ظهر الباخرة ، كانت تقف إلى جانبى سيدة أمريكية فى طريقها إلى مصر . وكانت تسألنى عندما تأثرت كثيراً بمنظر هذا الوداع بين زملاء فى وظائف متناثرة فى أنحاء العالم : ترى كم من السنين تمضى حتى يتلاقى بعضكم ببعض بعد هذا الوداع ! فأجبتها بقولى ، ربما لا يلتقى بعضنا ببعض إذا قضى بعضنا نحبه . وربما تمضى عشرات السنين ليلتقى بعدها من يبقى على قيد الحياة بزملائه .

جعلت مصر فى طريقى . وكان الانتقال على أيامنا بالبواخر ليس إلا . وبالقطار فوق الأرض . أما الطيران فلم يكن مستعملا إلا فى أضيق

الحدود ، وفى المهرجانات ، وفى أمريكا للانتقال المحلى بين ولايات وولايات . أما فى أوربا فلم يكن قد شب عن الطوق . ولكنه كان موضع تجارب ، كتلك التجربة التى قامت بها فرنسا عام ١٩١٤ بتنظيم قدوم ( فدرين ) و ( بونيه ) طائرين من باريس إلى القاهرة . وما تلاها بعد الحرب من تجارب عديدة حتى استوى هذا الاختراع على ساقه . وأصبح الرابط بين قارات ومدن العالم . الذى بز الصوت فى انطلاقه وسرعته . والذى يمكنه القضاء على ما فى العالم من حيوات فى دقائق !

كان ركاب هذه الباخرة اليونانية « سالونيك » يعلمون أنها ستعرج وهى فى طريقها إلى الإسكندرية ، على قبرص لإنزال ركاب وبضائع بالجزيرة . وكانت مدة التفريغ كافية لأن نتجول ساعات فى جزيرة أنجبت كثيراً من أبنائها المنتشرين فى الإسكندرية والقاهرة وغيرهما من مدن القطر. كما كنا نعتمد عليها فى استيراد بغال مصلحة التنظيم لأعمال النظافة من كنس ورش ، قبل ميكنة هذا المرفق . هذا إذا تركنا الجانب التاريخى الذى نجلوه مع جانبه الجغرافى فيما يلى من سطور :

كانت قبرص من أملاك تركيا التى انسلخت عنها مع ما انسلخ من أملاك الإمبراطورية العثمانية بعد هزيمتها هى وألمانيا وبلغاريا والنمسا فى الحرب الأولى ١٩١٤–١٩١٨. وقد احتلتها بريطانيا منذ ذلك التاريخ .

رست الباخرة بميناء ليماسول ، وبدت الميناء نظيفة ومرتبة . وكانت الإدارة فى كل مرافق الجزيرة ذات صبغة بريطانية عسكرية . ذلك أن بريطانيا العريقة بمعرفة المراكز الاستراتيجية فى العالم ، كجبل طارق ومالطة والسويس وعدن ، اتخذت من قبرص قاعدة عسكرية لها ، واعتبرتها كما لو كانت حاملة طائرات وقوات ، تربض وسط البحر المتوسط ، كما تستخدمها للتزود منها بالوقود والتموين لبوارجها وبواخرها وهى فى طريقها إلى الشرق الأقصى . أما عاصمة الجزيرة فهى نيقوسيا ، مقر الحاكم العام فى ذلك الحين . وأكبر مدنها ليماسول ولارنوسيا

وفوماجوستا وبافوسى وكيرينا . وقد رتبت لنا إدارة الباخرة رحلة إلى نيقوسيا وفوماجوستا . ومما تتميز به مدن الجزيرة ، النظافة ، وحسن استقبال الأهالى لزوار جزيرتهم . وهى إلى جانب ذلك تتميز بفاكهتها ومياهها ونبيذها . ومن أشهر معالم ( فوداجوستا ) قلعة ( عطيل ) الذى اتخذ ( شيكسبير ) من قصة قتله لزوجته ( ديدمونة ) دراما من دراماته التى تتلخص فى الشك والغيرة الذى بذر بذورها ( ياجو ) صديق ( عطيل ) فى صدره بسبب ما كان يبتغيه منها وصدها له ، وذلك بإيهامه بأنها تعشق أحداً غيره ، وأن منديل هذا الآخر قد وُجد فى حجرتها ، فلم يطق ( عطيل ) الصبر على ما سمع وسارع إليها حيث كتم أنفاسها خنقاً .

وقد أبلغنا الدليل أن عطيل عاش فى هذه المدينة من ١٥٠٥ إلى ١٥٠٨ . حيث بنى قلعته فيها التى اشتهرت باسمه وأصبحت مزاراً للهابطين إلى الجزيرة .

وتنقسم الجزيرة إلى قسم يونانى يمثل سكانه ٨٢٪ من عدد السكان الذى كان يبلغ آنذاك ٤٥٠ ألف نسمة ، وإلى قسم تركى ، يمثل سكانه ١٢٪ من مجموع سكان الجزيرة . وكانت المناوشات بين القسمين تثور وتهدأ شأن البراكين . وما زال هذا شأنها حتى اليوم .

ولقد جاهدت قبرص فى سبيل التخلص من الحكم البريطانى وظلت مدى أعوام طويلة تقاوم وتحارب قوات الاحتلال فى حروب عصابات فى الجبال ، إلى أن أعلنت بريطانيا استقلال الجزيرة عام ١٩٦٠ ، محتفظة بجزء من أرضها ذى سيادة بريطانية تستخدمه بريطانيا تعاقدياً فى أغراضها الدفاعية فقط ، وهو ما تشبث به الأب مكاريوس حاكم ورئيس الجزيرة الحالى . وما أراد أن يجنب به توريط بلاده فى مشاكل بريطانيا . على أن هذه الأرض المتفق عليها ، تعتبر من حيث الملكية أرضاً قبرصية سوف يأتى اليوم الذى تتمتع فيه بسيادة الوطن .

* * *

وما تزال قبرص مسرحاً للاشتباكات بين سكان قسميها اليونانى والتركى ، وهى من أجل موقعها الاستراتيجى فى البحر المتوسط . تشترك فى بحث مشاكلها الناجمة عن هذين القسمين ، أكبر دول حلف الأطلسى ، توسلا إلى حل . لا يزال توقعه بعيد المدى ، كما تساهم قوات دولية ، للحيلولة دون اشتباك العنصرين المتصارعين .

* * *

## الفصل الثانى

### فى سان فرنسسكو :

أبحرت من الإسكندرية بالباخرة فى ٢٥ سبتمبر عام ١٩٣٢ ، فى طريقى إلى مرسيليا . وكنت قد ودعت أهلى وأصدقائى . وقد حرصت على أن أودع المغفور له أمير الشعراء أحمد شوقى فى كازينوسان ستيفانو بالرمل . ولم أكن أعلم أن هذا الوداع هو آخر عهدى برؤيته . حيث قد وافاه الأجل المحتوم فى الشهر التالى ، أكتوبر ١٩٣٢ .

وقد بادرنى بقوله ، إنه علم بنقلى إلى أمريكا من محمد عبدالوهاب . وقد أشفق على من الغلاء الطاحن فى أمريكا وتأثيره على كل ما يتصل بالحياة العامة ومتطلباتها . ثم راح يتعجب من أمر هذه البلاد التى تحرم تعاطى المشروبات الروحية على أبنائها وعلى من يكون من الأجانب على أرضها . وماذا يكون العمل لو أن بعضهم لا تحتمل صحته الانقطاع عن تناول هذه المشروبات ! فأجبته بأننى بسؤالى عن ذلك ، علمت أن هناك بعض صيدليات ، تصرف (روشتات) ، موصى بها من أطباء بصرف مقادير

من المشروبات الروحية لمن لا يطيقون التحريم .

وهنا ضحك رحمه الله بكل جوارحه وهو يقول « تبقى فرجت » .

وكان رحمه الله يشير إلى قانون تحريم المشروبات الروحية في كافة الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٣٣ أى فى نهاية عهد الرئيس هربرت هوفر ( ١٩٢٩ – ١٩٣٣ ) وبداية عهد تولى فرانكلين روزفلت رياسة الجمهورية عام ١٩٣٣ ، الذى كانت الإباحة من بين برنامج انتخابه ، بعد أن تفاقمت الحوادث الجنائية المترتبة على التحريم ، وأضيفت إلى قائمة الجرائم القائمة . وهى على التوالى : تهريب الخمور Boot-Legging ، وخطف الأطفال للحصول على فدية Kidnapping وإدارة أماكن تقدم لروادها خموراً مغشوشة كانت تسمى Speak Easy وقد شاهدت الليلة الأولى التى أبيح فيها الشراب ، الذى لم يكن تتجاوز نسبة الكحول فيه $\frac{1}{2}$ ١ ٪ للبيرة ، و ٢ ٪ للنبيذ ، وسريان هذا التحديد مدة ثلاثة أشهر ثم الإباحة المطلقة . وقد سهر الأهالى فى تلك الليلة إلى منتصف ليلة الإباحة الذى يبدأ التصريح فيه عند الدقيقة الأولى بعد الساعة ١٢ مساء لينطلقوا بعدها إلى محال الشراب فى فرحة عارمة وابتهاج يتعذر وصفه .

كان من المصادفات السعيدة . أن الباخرة التى أبحرت عليها ، تحمل اسم الكاتب الفرنسى الكبير « بيير لوتى » ، الذى كان ضابطاً فى البحرية الفرنسية ، وعاش فى المدة من ١٨٥٠ إلى ١٩٢٣ . وهو من الروائيين الذين اتخذوا من حياة الريف وأهله مادة غنية بالأضواء والألوان التى تغمر النفوس بالبشر والصفاء والبساطة والحكمة .

وقد اشتهر عنه اهتمامه بدراسة مدنيات الشرق وحضاراته القديمة . وكان من بين الأماكن التى استرعت انتباهه وأعارها تفكيره ، تركيا وما كان لها من دور فى التاريخ . وقد شخص إلى إستانبول ، وأقام بها فترة من الوقت فى حى « فندكلى » الذى ما يزال الناس هناك يعرفون

المنزل الذى شغله فى ذلك الحى . ومن أعماله الأدبية ( زواج لوتى ) ، ( أخى إيف ) ، ( مدام كريزانتيم ) وغيرها . وقد انتخب عضواً فى ( الأكاديمى فرانسيز ) ، مجمع الخالدين .

كانت الرحلة بالباخرة إلى مارسيليا تستغرق خمسة أيام . وكنت أعددت نفسى لهذا القدر من الفراغ الذى أستطيع أن أقرأ فيه الكثير عن الولايات المتحدة ، وإذا أضفت إليها أياماً خمسة أخرى بالباخرة من ميناء ( شيربورج ) الفرنسى على الشاطئ الأطلسى إلى ميناء نيويورك ، وأياماً أربعة أخرى بالسكة الحديدية إلى ( أوكلند ) ثم بالانتقال على Ferry Boat إلى ( سان فرنسيسكو ) ، أمكن أن تتصور معى مبلغ الوقت الذى يتوفر لى إنفاقه فى الاطلاع على ما أحضرته من كتب وكتيبات تاريخية وسياسية .

اخترت لنفسى مكاناً قصياً فوق ظهر المركب ، ووضعت بطاقتى على كرسى طويل مما يستأجره الركاب طوال الرحلة ، ورحت أقرأ نبذة من هنا ونبذة من هناك ، تتناول مواضيع جغرافية وتاريخية وسياسية عن الولايات المتحدة ، خرجت منها بأن جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية تحد من الشمال والجنوب والشرق والغرب ، بكندا والمكسيك والمحيط الأطلسى والمحيط الباسفيكى على التوالى . وهى تتكون من ٤٨ ولاية تضاف إليها ولاية كولومبيا ومناطق ألاسكا وهاواى وبورتوريكو والجزر العذراء وساموس وجوام ومنطقة قناة بناما . وتبلغ مساحتها ٧,٨٢٧,٦٨٠ كيلومتراً مربعاً . كما أن سكانها كانوا عند رحلتى إليها يقرب تعدادهم من ١٦٠ مليون نسمة . وقد سميت عاصمتها باسم محررها ( واشنجتون ) الذى قاوم الاحتلال البريطانى ، حتى تحققت للبلاد السيادة . ومن أهم مدنها نيويورك وشيكاجو وفيلادلفيا ولوس أنجيلوس وديترويت . وهى تزرع فى هذا المدى الشاسع الوسيع من الأراضى ، كافة المزروعات ، بسبب تباين الأجواء فيها . وهى تعد نظراً لزراعتها الآلية وتقدمها العلمى فى مختلف المجالات ، من أولى دول العالم فى إنتاج القطن والقمح والذرة والدخان . كما أن منتجات

الألبان بها تفوق أى بلد آخر فى العالم . ويوجد بها معظم أنواع المعادن . وهى من أجل ذلك تعتبر الدولة الصناعية الأولى فى العالم ، كما أنها الأولى فى مجال الإنتاج الحيوانى والثروة الحيوانية ، كما أنها الأولى فى مجال العلوم .

ولقد توالى على حكم أجزاء منها الفرنسيون والأسبان والإنجليز الذين حكموا أغلب ولاياتها فى القرن السابع عشر . وقام الأهالى بسبب فداحة الضرائب التى فرضتها عليهم بريطانيا بثورتهم عام ١٧٧٥ ، التى استمرت ثمانية أعوام من ١٧٧٥ — ١٧٨٣ . وفى ٤ يولية من عام ١٧٨٦ أعلنت ثلاث عشرة ولاية الاستقلال بزعامة الجنرال « جورج واشنجتون » الذى كان يعاونه جنرال ( لافاييت ) الفرنسى و ( روشامبو ) وغيرهما ، الأمر الذى حمل بريطانيا على إصدار قرارها بالاعتراف بسيادة الولايات المتحدة التى تولى رياستها ( جورج واشنجتون ) فى ظل دستور فيديرالى . وتتابعت الولايات الأخرى فى الانضمام لهذه الولايات الثلاثة عشر . وقد اشتركت أمريكا فى الحرب العالمية الأولى عندما دخلتها عام ١٩١٧ بعد تردد كان مرده إلى تمسكها بمذهب العزلة والحياد الذى أعلنه ( مونرو ) ، مما سيأتى شرحه فى موضعه من هذا الفصل . وكان لمساهمة أمريكا الفضل الأكبر فى كسب الحلفاء الحرب ضد ألمانيا والنمسا وتركيا وبلغاريا ) .

عندما مررت بالوزارة ، قبل قيامى بهذه الرحلة تنفيذاً لأمر نقلى ، علمت أن اثنين من الزملاء الذين رشحوا قبلى لسان فرنسيسكو قد اعتذرا ، برغم أنهما كانا من الموسرين . وكانا يعلمان — كما كنت أعلم — تأزم الحالة الاقتصادية فى الولايات المتحدة ، التى ينعكس أثرها ويكابدها من يعمل هنالك فى ظل تلك الظروف ، وبمثل مرتباتنا الهزيلة .

كانت أمريكا منذ عام ١٩٢٩ تعانى تضخماً هز موازينها هزاً عنيفاً . فقد اختلت ميزانيتها العامة وميزان مدفوعاتها مما أدى إلى هذا التضخم الذى ينشأ نتيجة لارتفاع أسعار الحاجيات نظراً لكثرة المال المتداول عن الحد المألوف ، ووجوده فى يد طبقة محدودة من الناس ، لديها القدرة على

الشراء . وقلته فى يد طبقة كبيرة العدد ، هى أكثر حاجة وأطلب لمستلزمات المعيشة الضرورية . وقد ترتب على هذا التضخم إفلاس الكثير من البيوت المالية والبنوك والفنادق الكبرى والمشروعات الضخمة ، وتدهورت أسعار الأسهم والسندات . وبإيجاز كانت الولايات المتحدة فى المدة من عام ١٩٢٩ — ١٩٣٤ تمر بأعصب أوقاتها المالية . أما مرتباتنا من ماهية وبدل تمثيل وبدل غلاء وبدل اغتراب ، فقد كانت فى مجموعها لا تزيد عن الثلاثين جنيهاً ترتفع إلى خمسين أو ستين جنيهاً للقنصل العام . وهى مرتبات كانت لا تكاد تفى بأجر السكن ، أما باقى متطلبات المعيشة فكان علينا أن نغطيه من أموالنا الخاصة ، وفقاً لما انتهى إليه التعهد المأخوذ بذلك عند التحاقنا بالخدمة .

من أجل ذلك ، زهد الزملاء فى السفر إلى أمريكا ، وكفى الله الموسرين شر الإنفاق . ولم أستطع أنا أن أتخلف .

خبرنى بحق السماء وناطحاتها ، ماذا أفعل وأصنع برؤيتى نجوم هوليود ومليونيرات لوس أنجيلوس ومنتديات ونوادى شارع برودوى وماركت ستريت وفيفث أفينيو ومغانى شاطئ الباسفيك وحمامات سالادا بيتش وبالم بيتش وبالم سبرنجز وأكابولكو ولاس فيجاس . إذا كان خواء الجيب يحول دون مجرد التمتع بترتيل هذه الأسماء !

ومثل ما ذكرت من أماكن لم تكن مطمعاً منا للتطلع إليها من بعيد . ولكنها كانت كالأحلام التى ينعم برؤيتها النائم من فرط ما تمناها وهو يقظان . فقد كنا نعمل حساب القوت ، الذى لم يكن يزيد عن القوت الذى تمناه حافظ إبراهيم عندما قال :

نحن نرضى بالقوت من هذه الدنيا وإن بات دون قوت النعام *

لو وقعت على من قال : ( جنة بلاناس ، لا تنداس ) ، لعركت أذنه ،

---

* من المشهور عن النعام أنه إذا لم يجد ما يقتات به ، ابتلع الحصى والزلط .

حتى يقر بقوله : ( وجنة بلا أموال . كثيرة الأهوال ) .

رجعت بأفكارى القهقرى . أو بلغة السينمائيين ، أعدت شريطاً بطريقة ( Flash Back ) لعشرات السنين ، كان تذكرى لهاعزاء لما أحاط بى من وساوس . وتنفيساً عما أحسست به من مرارة .

فقد كان لوزارة الخارجية فى عهد الحماية البريطانية ١٩١٤–١٩٢٢ ، وجود داخلى . بمعنى أنها لم تكن تمارس أى نشاط خارجى كالمفاوضة أو تبادل التمثيل الدبلوماسى مع مختلف الدول . بل كان بها قسمان ، قسم إفرنجى وقسم عربى . وكان القسم الإفرنجى يتلقى مذكرات المعتمدين الأجانب بمصر الذين كانوا يعرفون باسم ( القناصل الجنرال ) . ثم يحيلها للقسم العربى الذى يقوم بترجمتها لعرضها على المسئولين . وكان القسمان يتبعان مجلس الوزراء .

وبعد إعلان استقلال مصر ، وصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، أخذت حكومة السلطان فؤاد الذى أصبح ملكاً بموجب ذلك التصريح ، فى وضع أساس لوزارة الخارجية ونظامها ، تمهيداً لإنشاء بعثات دبلوماسية وقنصلية فى مختلف الدول ، كمظهر من مظاهر الدولة المستقلة . وقد بدأت هذه البعثات التمثيلية تمارس أعمالها ابتداء من عام ١٩٢٤ بعد أن عاد من كانت الحكومة قد أوفدتهم [١] من خيرة الشباب ، إلى باريس ولندن للتخصص فى العلوم السياسية والاقتصادية .

وكانت البعثات التمثيلية تنشأ بحسب الحاجة إليها . ولم تكن تزيد درجة الممثل عن درجة الوزير المفوض أو القائم بالأعمال إلى أن تم توقيع معاهدة عام ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا وتبادل البلدان التمثيل على مستوى

---

( ١ ) تألفت البعثات الأولى لوزارة الخارجية من الأساتذة : عبد الخالق حسونة ، ومحمد كامل عبد الرحيم ، وأحمد ممدوح مرسى ، حسين راضى ، عبد الكريم صفوت ، محمد وجيه رستم ، أحمد جلال عبد الرازق ، أحمد فتحى العقاد ، أحمد حقى .

السفراء . وعند ذلك أنشأت مصر إلى جانب سفارتها فى لندن سفارات فى فرنسا وروما وواشنجتون .

وقبل بداية العهد بإنشاء وزارة الخارجية ، تولاها بطرس غالى باشا وزيراً ، ثم تولاها بعد ذلك ، بالإضافة إلى رياسته للوزارة. ثم تولاها أحمد حشمت باشا الذى تركها إلى وزارة المعارف . وعند صدور التصريح المذكور أشرف فؤاد سليم الحجازى باشا بتكليف من الملك فؤاد على تنظيم هذه الوزارة وفقاً للنظم المعمول بها فى الدول التى سبقتنا فى هذا المضمار .

وقد عكف على وضع النظم المطلوبة ، ولكنه لم يستطع أن يستمر فى مهمته بالنظر للحواجز والمنحنيات الخطيرة التى كان يضعها فى طريقه ، أصحاب الميل والهوى .

فى ذلك العهد الذى حضرنا جانباً منه فى الثلاثينات ، كانت تتحكم فى الوظائف الدبلوماسية نزعة طبقية. وكانت بعض العواصم تعتبر وقفاً على أسام خاصة ، لا يصح لغيرها مجرد التفكير فى شغل وظيفة بها .

كما كانت رغبات أصحاب هذه الأسامى تدرس بعناية لتحقيقها .

وكما أن الحال فى الهند ، كان يجرى على أن كل إنسان يخضع لنموذج وقالب يتأثر بالمولد والسلالة والطبقة . لا حق له فى سواه ، كذلك كان الحال فى أول عهد الوزارة بالعمل . ونذكر لوجه الحق ، أن هذا الأسلوب قد واجهته معظم وزارات الخارجية فى العالم ، إن لم تكن كلها ، لاعتبارات مختلفة . وكان أى تفكير عن المساواة يعتبر شيئاً لا معنى له ، ولا يجوز التفكير فيه ، وكان يثار فى برلمانات هذه الدول بدون جدوى .

ونود أن نذكر أن هذا الحال دام إلى أن سقطت الحواجز بين الطبقات فى الأربعينات ، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، وبعد أن طرأ على الأوضاع الدستورية ما طرأ من تطور ، وبعد أن تقوضت أركان الحكم المطلق فى عدة بلدان ، وبعد أن بزغ فجر النظم الديموقراطية ، وانطلق التطور الصناعى الجارف ، الذى بدل وعدل ، وأقام جديداً من

الأفكار على أنقاض تقاليد بالية لم تقو على مقاومة هذا التيار العارم .

ورحت أغرق همى فيما كان بين يدى من كتب وكتيبات . وفى فصل من فصول كتاب يبحث عن موقف أمريكا من دول أوربا ، وحكمة عزلتها وحيادها ، وعزوفها عن المشاركة فى الأوضاع العالمية وتطورها ، وجدت المؤلف المتحرر يقول : لقد استقر فى الأذهان ، ورسب فى العقول . أن الوصف الذى ينطبق على علاقة أوربا بالدول التى كانت تسيطر عليها فى آسيا أو أفريقيا ، هو الذى يسمى بالاستعمار . وهى كلمة يبغضها الآسيوى أو الأفريقى من كل قلبه ، نظراً لما تسبغه من معانى التحكم والسيطرة على مصائر ملايين من البشر . أما إذا تحكمت دولة آسيوية فى دولة آسيوية أخرى ( اليابان فى منشوريا ) أو ( الحبشة فى إريتريا والصومال ) فإن ذلك لا يعتبر استعماراً، بل يسمى غزواً أو ضماً. وكان مجرد ذكر اسم الغرب ، يكفى لإلقاء تبعة الاستعمار فى العالم كله عليه . وهو لذلك كان موضع كراهية الشعوب المغلوبة على أمرها .

ولم تكن أمريكا فى تلك الفترة التى تميزت باستعمار الغرب لمعظم دول قارتى آسيا وأفريقيا ، موضع نفور تلك الشعوب المقهورة . فقد تبرأت من الاستعمار ، وازداد موقفها وضوحاً بالتزامها مذهب العزلة والحياد . وقد كان نحالق هذه السياسة هو الرئيس ( جيمس مونرو ) الرئيس الخامس للولايات المتحدة وكانت رياسته من ١٨١٧ — ١٨٢٥. وقد أوضح سياسة الولايات المتحدة فى رسالة أعلنها فى ٢ ديسمبر ١٨٢٣ . وكانت الرسالة تنادى بأن أمريكا للأمريكيين ، وأن أوربا للأوربيين ، بدون السماح لتدخل قارة فى شئون القارة الأخرى . وبهذا المنطق أصبحت الأمريكتان كائناً واحداً ، وكياناً مستقلا تنظمه هذه السياسة المعلنة التى تضع حداً لأى تدخل . وكان مما دعا ( الرئيس مونرو ) إلى وضع هذه السياسة والمناداة بها وإعلانها على الملأ ، ما حدث من تدخل بروسيا والنمسا وروسيا فى شئون بعض جمهوريات أمريكا الجنوبية، على أثر إخماد الثورة الأسبانية .

وتبلغ مساحة أمريكا الجنوبية ١٧،٨٠٠،٠٠٠ كيلومتر مربع ، كما يبلغ عدد سكانها ١٢٠ مليون نسمة . وهى تتكون من جمهوريات : كولومبيا والإكواتور وبوليفيا وبيرو ، وشيلى ، وفينزويلا ، وغيانا ، والبرازيل ، وباراجواى وأوروجواى ، والأرجنتين . كانت هذه الجمهوريات الغنية بمواردها الطبيعية* ، وثرواتها الزراعية والحيوانية والمعدنية والبترولية ، مثار اهتمام الولايات المتحدة بإبعاد كل طامح ودخيل عنها .

وكانت الولايات المتحدة بأموالها ونفوذها وطموح قادتها ، قد رأت استغلال تلك المناطق وجعلها منطقة نفوذ وأسواق لتجارتها . وراحت البعثات الأمريكية تدرس أحوال هذه المستعمرات للارتباط بها باتفاقيات ومعاهدات تترك المظهر الخارجى للاستقلال بدون أن تمسه بسوء ، ثم تستولى بطرقها المشروعة حيناً وغير المشروعة أحياناً كثيرة ، على خيراتها وثرواتها بحكم الامتيازات التى كانت تمنحها حكومات هذه الجمهوريات للشركات الأمريكية الاحتكارية .

وجدير بالذكر فى هذا الموضع ، أن عامل الزمن وتطور النزعات الوطنية فى السياسة والاقتصاد ، والتطلع إلى الاستئثار بخيرات هذه الجمهوريات قد سرت شرارته فى أكثرها ، برغم ما تتعرض له الجمهورية التى تحمل لواء التمرد من ضغط وعنف وأساليب سلوكية لا يقرها عرف أو قانون** .

---

* من الطبيعى أن تكون جمهوريات أمريكا الوسطى : جواتيمالا وسالفادور ، ونيكاراجوا وهندوراس وكوستاريكا وبناما مما يشملها ( مذهب مونرو ) .

** رسم (جون بلانك ) الأستاذ بمعهد (بروكنجز) صورة كاريكاتورية فى إحدى محاضراته ، أوضح فيها : أن علاقة الولايات المتحدة بأمريكا الجنوبية تمثل رجلا ثرياً عثر على قريب له من الفقراء ، أسكنه فى بدروم منزله وكلفه بأعمال شاقة يعود نفعها على الثرى ولا يترك لقريبه إلا الفتات .

إذن فقد كان حيادها وعزلتها مقصوداً بهما تفرغها لما بين يديها من وليمة دسمة ، متعددة الأصناف ، لا تحب أن يشاركها فيها شريك . من أجل ذلك زهدت أمريكا فى الاهتمام بشئون أوربا التى لم تجن من ورائها إلا الخسارة . فقد رأت أنها عندما خرجت من عزلتها واشتركت مع الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٩ وكان دخولها عام ١٩١٧ ، بعد أن أقنعها الغرب واليهود بمنطقهما وبلاغتهما بما سوف يترتب من نتائج فى حال انتصار ألمانيا ، وما سوف تتعرض هى له بطريق غير مباشر ، نقول ، رأت أمريكا فداحة ما خسرته من رجالها وأموالها وعتادها فى سبيل نصرة قضية الحلفاء وكانت الأموال التى تصل إلى الغرب تعتبر ديون حرب واجبة الأداء بعد انتصار الغرب فى تلك الحرب . إلا أنه برغم كل جهود أمريكا وبعثاتها ووفودها وما عقدته من مؤتمرات لبحث دفع هذه الديون من جانب دول الغرب ، فقد ذهب سعيها عبثاً . بل إن التعويضات التى كانت فرضتها معاهدة ( فرساى ) على ألمانيا ، ربما كانت تساعد دول أوربا على دفع ما عليها من ديون لأمريكا ، إلا أن هذه التعويضات أيضاً ، كان مصيرها عدم الوفاء من جانب ألمانيا ، لأسباب دولية يضيق هذا المجال عن ذكرها .

* * *

وإذا أضفنا إلى هذا العزوف من جانب أمريكا عن التدخل فى شئون أوربا ، عدم ظهور البترول فى منطقة الشرق الأوسط ، فيما عدا إيران والعراق وحقول الموصل ، إلى أن دفعها دفعاً قوياً إلى التدخل فى شئون هذه المنطقة ، ظهوره بكمياته الوفيرة الضخمة فى السعودية والبحرين وعمان وقطر وغيرها ، لتحمى شركاتها وامتيازاتها ، فإن الأمر يصبح فى غير حاجة لمزيد من الشرح ، لهذا الزهد والعزوف .

ولست فى موقف تقويم سلوكى دولى لتصرفات أوربا أو أمريكا ، ولكننى أستعرض من خلال قراءاتى عن الأحداث الدولية ، موقف كل

من الجانبين فى تلك الحقبة من الزمن فى أوائل الثلاثينات .

وعندما كانت سياسة الهند تقرر فى لندن، وسياسة إندونيسيا تقرر فى لاهاى ، وسياسة الكونجو تقرر فى بروكسل ، وسياسة شمال أفريقيا فى باريس ، وسياسة ليبيا تقرر فى روما. كانت الولايات المتحدة فى شغل عن كل ذلك بمشاكلها داخل قارتها . وكانت إذا وصلت إلى آذانها صرخات أهالى فلسطين ، الذين تجبرهم سياسة الانتداب البريطانى على قبول أفواج اليهود المهاجرين إلى فلسطين بأعداد تفوق المتفق عليه فى صك الانتداب ، تعميقاً جذرياً لسياسة الاستعمار الاستيطانى ، لم تكن أمريكا تعير ذلك أى اهتمام ، متسترة وراء سياسة العزلة تارة ، أو بالاحتجاج تارة أخرى بانشغالها بمشاكلها الاقتصادية التى داهمتها . وإن كان الواقع يكمن فى أن النفوذ الصهيونى فى الولايات المتحدة ، كان يحمل المسئولين على السكوت عما يجرى فى فلسطين ، استناداً إلى مذهب مونرو .

ومهما يكن من أمر ما يحدث فى الأقطار الأخرى فى العالم ، فإن الساسة الأمريكيين كانوا يكافحون فى سبيل أن تبقى أمريكا بعيدة عن مواطن النزاع ، حفاظاً على اقتصادها وعلى تقاليدها ونظمها الديموقراطية. وكان عام ١٩٣٢ قد أخذ يكشف عن أطماع الفاشية فى إيطاليا، وقرب تولى هتلر للحكم فى ألمانيا كرئيس للدولة. وكان مذهب (مونرو) يفرض على أمريكا جوانب نظرية، وأخرى عملية . فمن الجوانب النظرية ، أن وزارة الخارجية فى واشنجتون كانت تحدد مجالات المسئولية ، وترسم السياسة الخارجية ، وتخطط الدور الرئيسى الذى يجب ألا يتجاوزه رئيس البعثة الدبلوماسية .

ومن الجوانب العملية للعزلة أمران : أولهما انتظار ورود تقارير عن مشاكل أوربا من بعثاتها التمثيلية فى الخارج ، لتقف الوزارة على ما يدور فى العالم من مشاكل ، بدون الإقدام على التدخل . ولم يحدث أن اتخذ

قرار عملى إزاء مشكل عالمى فى تلك الآونة ، بل إن التفكير حتى فى المصالح الأمريكية . كانت تمليه أحداث خارجية .

وكان التصرف حيال أى موقف ، وتحديد أى دور ، وتخطيط أى عمل يبدو من الأمور المستحيلة ، طالما أن السياسة الخارجية لأمريكا تبدو مع تقيدها بمذهب العزلة ، بمثابة مناطيد كشف اتجاه الريح التى تثبت فى المطارات لمعرفة الأحوال الجوية لا غير .

أما ثانى الأمرين ، فهو يتلخص فى أنه ، طالما كان عمل الدبلوماسى الأمريكى ، فى ظل العزلة ، هو كتابة تقارير وتقييم مواقف ، فإن الصعوبة التى تواجهه ، هى فقدان الضابط والقياس الذى يحدد على ضوئه ما يجب إبلاغه وما يجوز إغفاله وما يترجح بين هذا وذاك .

* * *

ورحت أقرأ فى كتاب آخر فصلا كتبه ( أرنولد توينبى ) جاء فيه : «مهما اختلف غير الغربيين من الناس فى العالم فيما بينهم ، من حيث الجنس أو اللغة أو المدنية أو العقيدة الدينية ، إلا أنه ، إذا سألهم أى غربى عن رأيهم فى الغرب أو فى أمريكا ، فسوف يسمعهم يجمعون على إجابة واحدة لا تتغير ، يستوى فى ذلك الروس والعرب والهندوس والصينيون واليابانيون وباقى الأجناس . لقد أصبح الغرب زعيم العدوان فى الأزمنة الحديثة ، ولكل من هذه الأجناس سالفة الذكر ، معاناته الشخصية من العدوان الغربى . فسوف يذكر الروس أن بلادهم غزاها الغرب خمس مرات ابتداء من عام ١٦١٠ حتى عام ١٨١٢ ، على عهد نابليون بونابرت . وسوف يذكر الأفريقيون أنهم استعبدوا ودفع بهم عبر الأطلسى من أجل خدمة الأوربيين المستعمرين للأمريكتين ، واستخدامهم كآلات لتحقيق جشع سادتهم الغربيين فى جمع الثروة . وسوف يذكر من بقى من السلف من السكان الأصليين لشمال أمريكا « الهنود الحمر » ، أن أجدادهم قد أزيحوا على مراحل وأبيدوا فى معارك ،

ليفسحوا الطريق أمام الدخلاء من أوربى الغرب إلى جانب عبيدهم من الأفريقيين » .

* * *

بعد خمسة أيام من الإبحار من الإسكندرية ، وصلت الباخرة إلى ميناء مارسيليا ، الذى لم أستطع أن ألتقى فيه إلا بضوضاء شارعه الرئيسى ( كانا بييرى ) الذى يحرمك ضوضاؤه من التحدث إلى نفسك .

وغادرت مارسيليا بقطار المساء إلى باريس التى علمت من وكلاء شركة كوك أن ظهر اليوم التالى قد تحدد لمغادرتها بقطار خاص بركاب الباخرة الألمانية ( بريمن ) ينقلهم إلى ميناء ( شيربورج ) على المحيط الأطلسى للإبحار منه إلى نيويورك . ولم أقم فى باريس إلا بزيارة متحف اللوفر . الذى تقول النشرة التى اشتريتها مع صور تذكارية للمتحف ، بأنه كان قصراً ملكياً بدأ إنشاءه ( فرنسوا الأول ) وراح كل من جاء بعده من الملوك يضيف شيئاً ويقيم جناحاً ويتم واجهة ، إلى أن انتهى العمل فيه ، فى عهد نابليون الثالث عام ١٨٤٨ . وقد تقلب على بناء القصر عشرات من المهندسين ابتداء من ( ليسكوأندرو) حتى ، ( جان جوجون ) الذى تولى عند نهاية البناء . عملية الديكور التى بدا بعدها القصر شيئاً يفوق **كل** تصور أو خيال .

وقد تحول هذا القصر العظيم ، بعد الثورة الفرنسية ١٧٨٩ إلى متحف أو قصر للفنون . وتضم جدرانه وأبهاؤه وأجنحته مجموعات من الرسم والنحت والتحف من إنتاج أكبر فنانى العالم ، والتى تعد من أغنى وأثمن مقتنيات فى العالم . ومن بينها لوحة ( موناليزا ) الشهيره التى رسمها ( ليونارد دافنشى ) و ( فينوس ) ، و ( آلهة الحرب المجنحة ) « نيكى » إلى جانب آلاف غيرها من التماثيل والصور .

**ويعد متحف اللوفر من أكثر المتاحف ارتياداً من الجماهير من**

الزائرين أو الدارسين أو الباحثين . ولا يكفى أسبوع للزائر المحقق لرؤية أهم محتويات القصر .

لم تنقع هذه الزيارة غلتى وظمئى إلى باريس . بل لعلها زادتنى شوقاً إليها . كالحبيب الهائم الذى إذا هبّ عليه نسيم من أحب ، زاد هيامه اشتعالا . كما لم أستمتع بمشارف مارسيليا وضواحيها الرائعة .

إن أكثر ما يجذب السائحين فى فرنسا ، بعد القصور والمتاحف ، جو المرح والاسترواح والاستمتاع الحر بالحياة ، الذى يسود كل أنحاء فرنسا ، حيث السعادة ترفرف أينما كنت فوق أرضها ، وحيث الشعور بأنك مدعو بتحمس وترحاب لمشاركة أهلها مرحهم وسعادتهم . ولقد منيت النفس وأنا راحل عنها . كطفل أبعدوه عمن أحب ، بزيارة تشفى الغليل وتملأ العين .

قام بعد الظهر القطار الخاص بركاب الباخرة ( بريمن ) إلى ( شير بورج ) ، حيث ترسو الباخرة ( بريمن ) على مبعدة من الميناء الذى لم يكن يسمح عمق مياهه بدخولها . وقد كانت فى ذلك الحين من عام ١٩٣٢ تعد أضخم باخرة فى العالم . وتبلغ حمولتها خمسين ألف طن ، بنيت خصيصاً لعبور الأطلسى . وكانت من عجائب الصناعة البحرية الألمانية قبل الحرب وقبل بناء إنجلترا لباخرتيها ( كوين مارى وكوين إليزابيث ) وبناء فرنسا باخرتها الجميلة ( إيل دى فرانس ) . وكانت حمولة هذه البواخر تبلغ ثمانين ألف طن للواحدة ، بعد سنوات من بناء ( بريمن ) .

وكأنما كانت دول العالم تتبارى لإنتاج مدن عائمة عبر الأطلسى بين موانى أوربا ونيويورك ، تجمع إلى جانب السرعة متعة الحياة للقادرين فوق ظهرها ، وملء أيام السفر باهتمامات مختلفة وحفلات متنوعة واستعراضات متعددة . وقد حصلت الباخرة ( بريمن ) فى هذه الرحلة على الشريط الأزرق لقطعها المسافة من ( شيربورج ) إلى ( نيويورك ) فى أربعة أيام وثمانى ساعات . وكان بالباخرة مصاعد تحمل الركاب إلى السطح

نظراً لتعدد الأدوار التى كانت تزيد عن ثمانية أدوار . من القاع حتى السطح الأعلى . وبها صالونات وسينما وتياترو وصالات رقص وجمنازيوم ومشارب للبيرة الألمانية ( بير جارتن ) وبارات وملاعب تنس طاولة وصالون للبليارد و اليابانى ، وأحواض سباحة ومكتبات وصالونات حلاقة ، ودور مخصص لبيع ما يخطر على بال المسافرين ، من ملابس إلى أدوات زينة إلى تحف تذكارية إلى محلات زهور فى استطاعتك أن تكلفها بإرسال ما تود إرساله من الزهور إلى صديق فى مناسبة من المناسبات توافق أيام الرحلة ، أينما كانت إقامته فى أى عاصمة من العواصم .

وللباخرة صحيفة تطبع محلياً وتتلقى الإدارة المشرفة أنباءها من البرقيات التى تصلها باللاسلكى ، فيجد كل راكب صحيفته على مائدة الفطور .

وأرجو ملاحظة أنى أكتب عن هذا الحدث عام ١٩٣٢ ، لا فى عصر الفضاء والصواريخ والأقمار ، الذى جب كل عجيبة ، حتى لم يبق فى العالم ما ندهش له .

وصلنا ميناء نيويورك فى الزمن المحدد تماماً ، حيث طالعنا أول ماطالعنا ، تمثال الحرية وجزيرة مانهاتن ونهر هدسون والعمارات الناطحة للسحاب .

وكان يقف بيننا شاب أمريكى متحمس لبلده يصف لنا ما نراه من معالم ، فخوراً بما يرتسم على وجوهنا من دهشة . وقد سأله شاب إنجليزى كان يقف فى الحلقة التى كانت تتابع الوصف ، عن أمر يتعلق بمبنى روكفلر ، وبعد أن أجابه أردف هو يسأل الإنجليزى عن هذه الطلاقة فى اللغة الإنجليزية ، فأجابه مبتسماً ، بأنه يبدو أن إخواننا الأمريكيين قد نسوا أن على الجانب الآخر من الأطلسى توجد جزر بريطانية يتحدث أهلها الإنجليزية .

* * *

هبطت الميناء الكبير مع الهابطين . وتمت إجراءات الخروج من [illegible] وأصبحت وجهاً لوجه أمام هذه المدينة

العملاقة ، التى لا يكفى أن نقول إنها ضخمة فخمة ، أو مكتظة مكتنزة ، ولندع التفكير فى الاسم المناسب لضخامتها ، ولنمض فيما نحن بسبيله . تعتبر نيويورك أكبر ميناء للولايات المتحدة . وهى تقوم فوق جزيرة مانهاتن التى يطوقها ذراعا نهر هدسون عن يمين وعن شمال . وعندما بلغتها كان عدد سكانها يقترب من الثمانية ملايين نسمة . وبفضل موقعها على ساحل المحيط الأطلسى ومرور نهر هدسون تحت قدميها ، وما يتبع ذلك من سهولة النقل البحرى ، وسرعة تسلم البضائع وتوزيعها ، أصبحت نيويورك من أكبر مراكز التجارة والصناعة والاقتصاد والمال فى العالم أجمع .

كان اختيارى قد وقع على فندق قرأت اسمه فى صحيفة الباخرة ، فقصدته بالتاكسى الذى كان يعرض على شاشة صغيرة أمام الراكب ، شريطاً يحتوى على إعلانات مصورة وبرامج للسينما والتياترو وصالات الاستعراض وقاعات الموسيقى والفنادق والمطاعم ودور الأزياء ، مما يهم السائح الوقوف عليه لإزجاء وقت فراغه أو لشراء ما يريد . ولم أعرها اهتماماً إلا بقدر ما تثير الموسيقى اهتمام الأصم . وتطور الشريط إلى عرض صور متاحف ومكتبات وكنائس وناطحات ورحلات نهرية إلى آخر ما يهتم به السائح المحدود .

ورحت أفكر وأنا أمام هذا الشريط : ماذا آخذ وماذا أدع من هذه المدينة التى يلزم لرؤيتها الجهد والصحة والوقت واحتمال الضوضاء والمال الذى قال عنه ( سومرست موم ) إنه الحاسة السادسة التى بدونها لا يكون استمتاعنا بالحواس الخمس المعروفة مستكملا . وانتهى تفكيرى إلى أننى ما دمت فى نيويورك فلابد من اقتحام ما أطيقه منها بوسائل لا ترهق ولا تزهق . وتذكرت ما قاله ( جورج . لى . مالورى ) ، المستكشف البريطانى الشهير ، عندما سأله سائل عما حمله على أن يقهر قمة جبل ( إفرست ) بين الهند والتبت الذى يبلغ ارتفاعه (٨٨٨٢) متراً ،

وكانت إجابته ببساطة : « لأنها موجودة » .

فهذه المدينة التى يبدو التجول فيها : قريباً من تسلق جبل ( إفرست ) ، أصبحت أمامى ، وأنا أمامها ، ولا مناص من أن أقهر منها ما أستطيع . والله المستعان .

علمت من الأوتيل الذى نزلت به ، أنهم يعدون زيارة لمعالم نيويورك ، بسيارة خاصة لمن يرغب الاشتراك من النزلاء . وقد قيّدت اسمى لرحلة الغد ، من الصباح حتى الغروب ، وهذا أضعف الإيمان .

وكان على أن أمرّ من فورى على قنصليتنا العامة فى الشارع الخامس لتسليم رسالة خاصة للقنصل العام . وكانت الساعة الحادية عشرة صباحاً . فقمت وأنا محرج لأداء هذه المهمة . وكفى ما فيه الزملاء من ضيق .

كان القنصل [1] العام من الأعلام النابهين من أبناء مصر . وقد كان أستاذاً بكلية التجارة قبل التحاقه بالسلك الدبلوماسى . وكان حجة فى المسائل المالية والاقتصادية العالمية . وله عقلية حسابية رياضية تضارع الآلات الحاسبة . فى استطاعته أن يخبرك باسم اليوم الذى يوافق ٧ يولية بعد مائة عام أو قبل مائة عام . وكانت نبوءاته من واقع دراسته للصحف المالية فى أمريكا ، يمكن الاعتماد عليها فى شراء أو بيع أسهم بعض الشركات الصناعية . ولم يكن يقدم على ذلك ، ولكنه كان يتبرع بهذه النبوءات لأصدقائه الأمريكيين الذين كانوا يستشيرونه . وكان لا يقنع إلا بالقمة فى أى عمل يقوم به . بل حتى فى هواياته . فقد كان حجة فى لعبة ( البريدج ) . وكان طهى الطعام من هواياته . وقد حصل على دبلوم ومدالية بالامتياز فى فن الطهى من باريس بعد أن أدى امتحاناً فى ذلك . وقديماً كان الطهاة والسقاة فى بلاط ملوك فرنسا يحملون ألقاباً نبيلة .

وكانت تقاريره الاقتصادية واتصالاته بالمسئولين ومجادلاته مع

---

(1) [illegible] الأستاذ اليش عازر .

زملائه تتسم بطابع خاص يفرض عليك الاهتمام بما يكتب عنه ، والاستماع إلى ما يتحدث فيه ، والاقتناع بما ينصح به .

وبعد أن تحدثنا عن أنباء مصر والوزارة ، سألني إن كنت علمت شيئاً عن اقتراح تقدم به للاقتصار على نائب قنصل واحد بدلا من اثنين عنده ، وتوزيع مرتب النائب المنقول على من سيقومون بعمله من أعضاء القنصلية . فقلت له وأنا مشفق عليه من الإجابة ، إن الوزارة أخذت بالشق الأول من الاقتراح ، وشرعت فعلا فى نقل أحد نائبى القنصل العام — وذكرت له اسمه — ورفضت الشق الثانى الخاص بأيلولة مرتبه . وما إن انتهيت من حديثى حتى راح الرجل يمشى فى الحجرة جيئة وذهاباً كالأسد الحبيس . ثم استدار ليقول لى : ليس المهم أمر نقل أحد النائبين . ولكن هل تعلم الوزارة مقدار ما يؤديه النائب المنقول لزملائه من خدمات لا تعوض ! إنه خير من يفلفل الأرز ، ويسبك الطعام ويهيئ اللحم ويحشو ورق العنب وغيره مما يحتاج إلى حشو . وكل ما ذكرته نقطة من بحر معارفه فى الطهى . وأى موظف دبلوماسى فى الوزارة يستطيع أن يكون نائب قنصل ناجح ، ولكن لا يستطيع أى نائب قنصل أن يكون طاهياً ماهراً موهوباً مرغوباً . لابد أن يكون أحد الزملاء من القناصل حط عينه عليه لضمه إلى قنصليته . ولكن لنيويورك وضعاً خاصاً بها بسبب غلائها يتطلب وجوده . ومثل هذه الظروف تختفى فى مدن أخرى . وماذا يفعل بموهبته فى مثل هذه المدن !

ورحنا نهدئ من ثائرته ، حتى استسلم لعوادى القدر كما قال .

ولما أردت أن أستأذن قال لى إننا سنتناول الطعام جميعاً . ولما اعتذرت وشكرته قال : أنت مكلف ولست مدعواً . فنحن نشكو قلة الأيدى فى العمل وفى المنزل . وقد أرسلك الله عوناً لنا اليوم . فليس معى سوى زميلين لا أعتمد عليهما كثيراً فى تجهيز الطعام . أما الآخران ، فأحدهما

من حدثتك عن طهيه ، والآخر فى إجازة . ولما أنبأته بأنى لا أجيد حتى سلق البيض ، قال لا بأس نبقى نتركك لغسل الأوانى .

كانت مواعيد العمل فى قنصلياتنا فى أمريكا تبدأ الساعة التاسعة صباحاً وتنتهى فى الساعة الرابعة . وعندما أزفت ساعة الانصراف . وهبطنا الشارع ، راح القنصل العام يصدر أوامره للزميلين لشراء مستلزمات العشاء وفقاً لاختصاص كل زميل . على أن نلتقى فى ( المأوى ) على حد تسميته ، أى المسكن . وكانوا يعيشون جميعاً — خمسة أعضاء — فى شقة واحدة . وكانت حجرة المعيشة ، هى حجرة الأكل ولعب البريدج والطاولة والدومينو والشطرنج وسماع الموسيقى والأخبار من الراديو ، وقراءة الصحف والمجلات ولم يكن التليفزيون قد ظهر إلى الوجود . وباختصار كانت هذه الحجرة هى المرجع والمآل والملجأ والمأوى فى أيام الضنك وما أكثرها .

عندما اكتمل عددنا راح يرشد كل زميل إلى عمله ، كقائد الأوركسترا الماهر ، فواحد يقشر البطاطس وآخر يجهز اللحم وثالث يقوم بإعداد الأرز ورابع يقوم بتحضير السلطة والفاكهة . وجلسنا حول المائده المستديرة ، عندما كانت الساعة قد بلغت الثامنة . وراح القنصل العام يعتذر عن سكنهم جميعاً معاً بسبب عجز المرتبات والمساعدات العائلية عن الوفاء بمتطلبات المعيشة . وعلى المرء أن يتنازل عن قدر من الحرية فى سبيل تخطى أزمة توشك أن تكون إفلاساً . وعلى ذكر الإفلاس راح فى طلاقة يتحدث عن التضخم Inflation الذى كانت تعانيه أمريكا آنذاك . كما راح يتحدث عن ميزان المدفوعات وزيادة الوارد عن الصادر وخروج الكثير من رءوس الأموال الأمريكية لاستثمارها فى أمريكا الجنوبية أو فى أوربا نظراً لزيادة الفائدة ، الأمر الذى يحرم الخزينة من الضرائب المقررة عليها ، كما يمنع من تداول فوائدها فى أمريكا . ولما رأى أن الحديث أصبح ترابيديا ، تحول فى لباقة للتحدث فى مجالات السينما والمسرح

والموسيقى والتصوير ، حديث محيط ملم بكل هذه الشئون ، متابع لها عن علم وإدراك .

وبعد أن قمت بنصيبى من غسل الأوانى ، استأذنت فى الانصراف وخرجت مودعاً هؤلاء الزملاء الذين يكدحون ويجدون بين عمل دقيق وحرمان مضن ، ويدفعون من تضحياتهم ضريبة لوطنهم ، مهما عانوا من قسوة الحياة ، ومن عمل يشحنهم بالتجارب لمستقبلهم القريب .

فى اليوم التالى قمت بالسيارة المعدة للسائحين لمشاهدة معالم ، أو النزر اليسير من معالم المدينة الكبرى . وقد شاهدنا متاحف ومعارض ومكتبات وكنائس قديمة ، وحدائق نموذجية ، برعت يد الإنسان فى تنسيقها استجلاباً للمتعة ، بالنظر إليها والعناية بها . وكان كل ما يقع عليه نظرى ، جديداً لامعاً براقاً لا يثير مشاعر قادم مثلى من مصر واليونان ، مهبط الفنون القديمة الموغلة فى أغوار التاريخ . فكل ما فى أمريكا من آثار ، لم يتعرض بعد لعدوان الزمن ، ولم تنل منها الأيام شيئاً ، فظلت زاهية بهيجة فى أعين المشاهدين المشدوهين من أثر روعة البناء ، وبراعة المعمار ، وأثر الغنى والإنفاق على كل ما يقع تحت العين من مرئيات . وانتهت الجولة وقد ارتحت نفساً من أننى وإن لم أستطع أن أقهر قمة الإفرست ، إلا أننى تسلقت أقدامه ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

فى صباح اليوم التالى كنت فى مقعدى بالقطار الذى ينهب الولايات نهباً فى طريقه إلى أوكلند بولاية كاليفورنيا ، من الشاطئ الأطلسى إلى الشاطئ الباسيفيكى ، مخترقاً القارة ، وقاطعاً ما يقرب من أربعة آلاف كيلو متر ، وطاوياً أكثر من عشر ولايات . وكان القطار مزوداً بعربة فى نهايته مخصصة لتناول المرطبات والقراءة ومشاهدة المناظر ، كانت مقصدى ومرادى معظم أوقات السفر . وكانت مقاعدنا تنقلب بطريقة أوتوماتيكية إلى أسرة فى الليل . وبعد أربع ليال وخمسة أيام تقريباً ، بلغنا أوكلند التى سبق ذكرها وهى نهاية الرحلة . وكان لا بد لى من أن أستقل

باخرة صغيرة تقطع بنا خليج سان فرنسسكو إلى مدينة سان فرنسسكو فى الجانب المقابل . أما اليوم ، فقد أصبح الكوبرى الحديد الذى يزيد طوله عن ثمانية كيلو مترات . يربط بين أوكلند وسان فرنسسكو مخترقاً هذا الخليج الذى تتوسطه جزيرة ( الكازار ) التى يقع فيها سجن ( سان كوانتن ) الذى اشتهر بنزول ( آل كابونى ) به فترة من الوقت . كان مدخل الكوبرى قبل إنشائه يدعى ( جولدن جيت ) أى البوابة الذهبية وقد تكون هذه التسمية مستمدة ومستلهمة من منظر الشفق عند الغروب الذهبي فى هذا المكان .

أحببت سان فرنسسكو* من أول نظرة . فهى فاتنة لعوب ، تزدان عند المساء بثريات منازلها المنثرة فوق تلالها السبعة . وتتيه بأنوار خليجها ليلا بما يمخر فيه من بواخر . وتتأنق بما تضع على وجهها من غلالات الضباب عند الصباح وحينما يأتى الغروب ، حتى لا تكشف عن مفاتنها إلا بقدر . وكان عدد سكانها يبلغ ٨٠٠ ألف نسمة عام ١٩٣٢ . وهى أكبر موانئ أمريكا على المحيط الباسيفيكى . وتعد من أكثر الموانئ حركة . وتقع على الخليج المسمى باسمها . كما أنها تعد مركزاً صناعياً هاماً فى ولاية كاليفورنيا . وقد اشتهرت فيما بعد بأنها كانت مركزاً للاجتماعات التى وضعت أسس ميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ .

بعد شهور قليلة وصل القنصل العام . وكانت السيدة زوجته قد أصرت على أن تصحب معها طاهية ( وسفرجى ) من أهالى النوبة . ولا أدرى . كيف غاب عنهما ما هو شائع عن قيام التمييز العنصرى بأمريكا . فقد أمضينا نهاراً بطوله فى البحث عن فندق يقبل نزول النوبيين ، بدون

---

* من معالم سان فرنسيسكو الفاتنة : ضاحيتها (مونتريه ) وغاباتها ذات الشجر الأحمر ، وخليجها الذى يقوم عليه كوبرى ( الباب الذهبى ) وتلالها السبعة ومدينة الملاهى وحديقتها النباتية التى تضم أكبر ، وأكمل مجموعة من أحواض الأسماك فى العالم . ثم ترامها المتسلق .

جدوى ، إلى أن أشار علينا صديق بأن نذهب بالخادمين إلى فندق صيني فى الحى الصينى المفترى عليه فى الأفلام الأمريكية لكثرة ما يجرى فيه من حوادث . فقد كنت أخترقه ليلا ولا ألحظ فيه إلا الهدوء الشامل . وقد رحب مستخدمو الفندق بنا وأكرموا الخادمين اللذين أفهمناهما أننا كنا نبحث عن أماكن خالية لهما حتى لا نجرح شعورهما .

وقد يمكن الاحتجاج بأن الفندق يضم طوائف من مختلف الاتجاهات . وقد يؤذى بعضها وجود ملونين فى الفندق . ولكن بماذا يمكن الاحتجاج به . عندما عثرنا على ڤيلا صغيرة مستقلة للقنصل العام . كانت على مبعدة من القنصلية بما يعادل المسافة بين القاهرة وشبين الكوم . التماساً لإيجارها المعتدل . حيث أخفينا الخادمين إلى أن تم توقيع العقد طول مدة عمل القنصل العام ، إلا إذا أبدى من جانبه رغبة فى الانتقال إلى مسكن آخر . فقد حدث أن رأى صاحب الدار فى اليوم التالى الخادمين فى المنزل فكاد أن يصعق ، وعقد الإيجار قيد فى يديه .

كان القنصل العام * من أبلغ المصريين حديثاً وكتابة باللغة الإنجليزية . وقد وقفت على ذلك من اطلاعى على كتابه القيم الذى أصدرته دار نشر كبرى فى لندن . كان هذا الكتاب هو : ( سيلان . أرض الجمال الخالد Ceylon, Land of eternal beauty ) . وقد علمت من القنصل العام أن والده كان من كبار رجال الثورة العرابية التى قادها أحمد عرابى لمحاربة الإنجليز فى عهد الخديو توفيق ، هو طلبه باشا .

وكان نفى عرابى وصحبه إلى جزيرة سيلان هو العقوبة التى أصدرها الخديو آنذاك . وقد ولد القنصل العام بالجزيرة وظل مع والده إلى أن صدر أمر الإفراج عن المنفيين بعد أن أمضوا عشر سنوات . كانت بلاغته

---

* كان القنصل العام هو الأستاذ على فؤاد طلبة ابن اللواء طلبة باشا أحد أعوان أحمد عرابى باشا .

مثار عجب الأمريكيين المثقفين . وكانت كتاباته إلى الدوائر التى كنا نتعامل معها موضع إعجاب وتقدير . وقد توالت عليه الدعوات لإلقاء محاضرات فى الجامعات والنوادى والهيئات ، حيث كان يلبيها عن طيب خاطر .

ويقضى البروتوكول الموضوع والمعمول به ، أن يقوم القنصل العام بتسليم براءة تعيينه إلى محافظ المدينة . وكان المحافظ يقيم فى مدينة ( ساكرامنتو ) مقر المحافظة . وقد صحبته فى زيارته . وكانت المدينة تقع على نهر سميت باسمه . وكان عدد سكانها آنذاك ١٣٧ ألف نسمة . وتبعد عن سان فرنسسكو بنحو مائتى ميل . وهى عاصمة الولاية .

لم يكن يعكر صفو إقامتنا فى سان فرنسسكو سوى ما وصلت إليه مرتباتنا من انخفاض ، برغم غلاء كان يأخذ بالخناق . فقد أخطرنا البنك الذى كنا نتعامل معه ، بالتغيير الذى طرأ على مرتباتنا . فبعد أن تلقى البنك أوامر من الجهات الرئيسية المختصة ، بأن إنجلترا قررت الخروج عن قاعدة الذهب فى نهاية شهر سبتمبر ١٩٣٢ فإن الجنيه الإنجليزى أصبحت قيمته ٣,٨٨٦ دولارات . وكان هدف إنجلترا من هذا الخفض وخروجها عن قاعدة الذهب ، تصريف بضائعها بزيادة صادراتها .

ومعنى هذا بالأرقام ، وبسبب ارتباط عملتنا المصرية آنذاك بالجنيه الإسترلينى ، أن مرتباتنا تفقد أكثر من خمسيها ، كما يسرى هذا على ما كان مفتوحاً لى من حساب إضافى من أسرتى شهرياً .

قمنا بإخطار الوزارة برقياً بذلك ، فأجابت الوزارة بكتاب جاء فيه ، إنها تقوم بدراسة الموضوع وستخطرنا فى الوقت المناسب ، وأن الموضوع قيد عنايتها . ولم يكن الأمر يتطلب أى بحث أو عناية . وكان لا يزيد عن فتح اعتماد إضافى لتغطية ما لحق مرتباتنا من خسارة . ولكن الدراسة والعناية استمرت إلى أن انتقلت من سان فرنسسكو بعد ذلك التاريخ بما [illegible] . ولم يكن من اللائق أن

نلجأ إلى أهلنا فى مثل هذا الأمر . ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وكان ما يصلنى من أهلى يفوق ما يصلنى من مرتب من الوزارة. وكنت من أجل ذلك أسارع إلى الرد على خطابات أهلى قبل ردى على خطابات الوزارة ، والذمة والعدل يقضيان بذلك .

وقد حدث أن أرسلت الإدارة المالية ما يسمى فى عرفها ( بمناقضة ) تعترض فيها على تصرف مالى أتيته بدون وجه حق . وتعجلت منى الرد أكثر من مرة إلى أن أجبت بالتعليل المطلوب . وكان ما أتيته من إثم ومعصية يتلخص فى أنى جاوزت حقى بأخذى سرير نوم فى سفرى بالقطار إلى سان فرنسسكو برغم أن درجتى المالية لاتسمح إلا بالمبيت فوق مقعدى ، ولأن الأسرة لا يمسها إلا أصحاب الدرجات الرابعة فما فوق .

واقد قلت فى ردى على هذه المناقضة العجيبة إن مدة السفر تبلغ أربع ليال . وأن ما تطلبه الوزارة لا يقوى عليه سوى ( فقير هندى ) ممن يشهرون أرواحهم فى وجه ماديتهم ليقهروها ويتم لهم الانتصار عليها . وفى استطاعة أحدهم أن يقف على ساق واحدة أسبوعاً أو ما شابه . وكنت أود أن أستطيع ذلك ولكنه فوق طاقتى . وقد جاءنى الرد بإعفائى من توريد الفرق المطلوب دفعه إلى خزينة القنصلية مع التنبيه بعدم العودة إلى استعمال هذه اللهجة فى مخاطبة الإدارة .

انتظرنا طويلا نتيجة دراسة الوزارة لوضعنا المالى الذى لا يحتمل التأخير . وذات يوم سألنى القنصل العام عما يمكن تدبيره . فقلت له إن لدينا متوفراً من بعض اعتمادات القنصلية من الإيجار والتدفئة والمشتروات والاعتمادات العامة . فإذا استعملنا هذا المتوفر من الاعتمادات فى علاج ما طرأ على مرتباتنا من نقص ، خرجنا من الأزمة بستر وسلام ، إلى أن ننتقل من سان فرنسسكو إلى بلد آخر يكون أقل حدة فى غلائه ، لندفع فيه ما يكون قد تراكم علينا من ديون قبل الوزارة . وأذكر أننى ظللت أدفع هذه الديون بعد انتقالى من سان فرنسسكو ، ولمدة عامين . أما

فى أيامنا هذه . فإن الوزارة عند تغيير قيمة العملة فى بلد من البلاد ، تبادر بإخطار بعثاتها الدبلوماسية التى تتأثر بهذا التغيير ، ليصرف موظفوها ما كانوا يصرفونه قبل ما طرأ من تغيير لا يد لهم فيه ولا حيلة لهم فى دفعه .

* * *

كانت علاقة مصر بأمريكا فى ذلك الحين علاقة عادية. فلم تكن مشكلة فلسطين قد برزت إلى السطح . وليس بيننا وبين أمريكا من مشاكل سوى هذه المسألة . ولم تكن قد ورثت ملكوت وسلطان بريطانيا فى الشرق الأوسط حتى يقع معها احتكاك ، مرده إلى اقترابها من منطقتنا. ولعلها فوق هذا وذاك ، كانت مرتاحة لما يجرى فى فلسطين على يد سلطة الانتداب البريطانية ، ورعايتها لليهود . كذلك كانت الحالة الاقتصادية والميزان التجارى بين البلدين يجريان بصورة طبيعية . وكانت أعمالنا فى القنصلية لا تقتطع من وقتنا إلا أقله .

وكنت أشرف على بعثة الطلبة المصريين فى جامعة ( بيركلى )* التى كان من طلبتها خبير السدود العالمى المرحوم محمد أحمد سليم ، والدكتور حسين عارف الذى أصبح وكيلا لجامعة القاهرة ، والمهندسان الزراعان الكبيران يوسف وفا وعادل حجازى . وكانوا جميعاً من النابهين الذين كفونى الكلام عند التحدى ، كما كفونى مؤونة مراجعة أساتذتهم بالجامعة ، منذ أن كانت تقارير هؤلاء الأساتذة ، ( تطيل الرقبة ) .

وفيما عدا ذلك ، لم يكن أمامى ما أعمله إلى جانب عملى القنصلى المحدود .

وكان على أن أقوم بدراسة موضوعين ، كنت قد تلقيت وأنا بالوزارة

---

* ( بيركلى ) مدينة جامعية صغيرة تحتل الجامعة ثلاثة أرباع مساحتها . وكان الوصول إليها يتم بواسطة بواخر صغيرة من سان فرنسسكو عبر خليج سان فرنسسكو . وكنت ألاحظ فتيات من اليابان والصين والفيليبيين يعملن فى المطاعم والمقاهى والنوادى ليحصلن فى أوقات فراغهن على مصاريف الجامعة .

تعليمات من أكبر المسئولين فيها بزيارتهما وكتابة تقارير عنهما. وكان الموضع الأول، مصنعاً يقع غير بعيد من سان فرنسسكو، ويقوم بتصنيع وتعليب السردين. فلنا شواطئ تبلغ أربعة آلاف كيلو يمتلئ الكثير منها بالسردين الذى يبقى مهملا حتى يدب إليه الفساد. وكان الموضع الثانى يقع فى بلدة قريبة من سان فرنسسكو تدعى (سالوما) تمتلئ بمزارع لتربية الدواجن وتفريخها Hatchery على ضوء العلم الحديث للانتفاع بها فى تنمية وإكثار الدجاج والدواجن الأخرى والبيض. كما زرت بها معامل ومختبرات للبحث والتحليل. وقد قمت بمهمتى وبعثت بتقارير عن مشاهداتى أرفقت بها كتيبات وصوراً تشرح العمل فى الموضعين. وقد شاء الله بعد أكثر من ربع قرن أن أرى المشروعين فى رعاية مؤسسة الثروة المائية والهيئة العليا للثروة الحيوانية، اللتين حققتا نجاحاً يتزايد عاماً بعد عام.

ولم يكن أمامى من عمل أعمله بعد ذلك إلا الواجبات المكتبية الروتينية، والمهام القنصلية المحدودة فى بلد ناء مثل سان فرنسسكو، رعايانا المصريون فيه أربعة.

من أجل ذلك انصرف اهتمامى إلى بعض دراسات أدبية. وكنت قد تعرفت إلى سيدة أمريكية متزوجة من عالم يابانى كان أستاذاً لأدب اللغة اليابانية فى جامعة بيركلى، إلى جانب تخصصه فى دراسة عمر الخيام. وكان رامى قد حبب إلى عمر الخيام الذى ترجمه إلى العربية من الفارسية التى درسها فى باريس. وقد حببنى رامى فى عمر الخيام كشاعر غنى بالمعانى الطريفة البعيدة المرامى. أما صديقى اليابانى فقد حببه إلى من ناحية فلسفته وعمق تفكيره وانصراف ألفاظه إلى غير ما هو ظاهر من معانيها. وقد أشار على بالاطلاع على ترجمة فيتز جيرالد Fitzgerald للخيام بالإنجليزية، لأنها فى اعتقاده خير الترجمات لرباعياته وأقربها إلى روحه.

وكنا نمضى ساعات هانئة فى داره الصغيرة الأنيقة الرشيقة التى تكاد الزهور فيها من فرط الانسجام بين ألوانها تؤلف قصيدة حلوة الوزن والقافية

والنغم . وذات يوم قال لى : ألم يدهشك زواجى من أمريكية ؟ . فأجبته، بأننى لم أدهش لأننى أعلم أن زوجته من مريدى عمر الخيام ، وقد تفوق الوشائج فى الأدب ، وشائج الرحم . ولكننى كنت أقول لنفسى ، إنه ربما جاء لينتقم ( لمدام بترفلاى ) بطلة أوبرا ( بوتشينى ) الشهيرة .

وراح الرجل يضحك وراحت السيدة زوجته تصفق، وكان الفضل فى هذا المرح المهذب، لانسجام الرفقة ، ولمشروب يابانى يصنعونه من الشعير ، ويتناولونه فى جرعات صغيرة كالدواء .

ثم وقعت فى يدى مجموعة باللغة الإنجليزية لأعمال (فردريك شيللر ) الشاعر الألمانى ، فاخترت منها للترجمة مسرحية ( دون كارلوس ) . أو ( فيليب الثانى ) وقمت بترجمتها ، وملأت بها فراغاً كنت أفرق منه.

ومن حسن طالعى أن تعرفت ذات مساء وأنا فى بهو الفندق الذى كنت أنزل به ، بأديب أمريكى وصاحب دار نشر ومجلة أدبية يدعى ( هار واجنر ) . وما إن لمس من حديثى أنى أميل إلى فنون الكتابة والشعر والموسيقى والرسم ، حتى اهتم بأمرى وصحبنى إلى داره حيث قدمنى إلى أسرته وأحفاده . وكانت إحدى حفيداته رسامة . وكانت تعمل سكرتيرة له ، وهى التى كانت همزة الوصل بيننا للانتقال بى إلى مكتبه أو إلى داره بسيارتها الصغيرة . وكان الرجل مولعاً بجمع أمثال مختلف الشعوب وطبعها ونشرها. وذات يوم طلب منى أن أجمع له ما أتذكره من أمثلة عربية ومصرية شعبية . وكانت حصيلتى منها كبيرة ، أضفت إليها الكثير من الشعر الذى يذهب مذهب المثل أو الحكمة ، بما كان فى حوزتى من دواوين الشعر .

وقد فرح الرجل الأديب بهذه المجموعة عندما اكتملت ، وصاغها بالطريقة التى تضمن الإقبال عليها من القراء ، وأصدرها باسمه وباسمى . وبفضل هذا الكتاب ضمنى إلى ناد يدعى **Bohemian Club** يعد من أرقى النوادى وأغلاها من حيث قيمة الاشتراك . وكان هذا النادى

لا يضم إلا كتاب غرب أمريكا Western Writers ، أو من يكون له عمل أدبى منشور من المقيمين فى سان فرنسسكو أو المارين بها لفترة من الوقت . وكان الانضمام لهذا النادى بمثابة ورقة اعتماد لدى أرقى الطبقات بالمدينة .

ثم ضمنى الصديق الأديب إلى ناد آخر يدعى ( سيكوايا كلوب ) أى الشجرة الضخمة . وكان من أهم أنشطة هذا النادى القيام بالرحلات القريبة والبعيدة . وجدير بالذكر أنى كنت عضو شرف ، لا أدفع رسوماً للناديين . ومن فضل هذا النادى الأخير على أننى استطعت أن أرى مدينة فى كندا ومدينة فى المكسيك ، بالقرب من الحدود .

فى الرحلة الأولى التى خطط لها بعض أعضاء النادى الذين اشتاقوا إلى دفيق من خمر يتناولونه فى غير فزع أو رعب ، كما يفعل العصفور وهو يحسو الماء من جدول ، وعينه لا تنفك جائلة فيما حولها ، خوفاً من قدر خبىء ؛ رأوا أن يذهبوا إلى مدينة ( سياتل ) فى أقصى شمال كاليفورنيا ، ومنها نخترق الحدود الكندية إلى بلدة تسمى ( نلسون ) .

وقد تم لهم ما أرادوا ، وأمضينا أياماً معدودات ، وعدنا وبعضنا على حال وصفه حافظ إبراهيم بقوله :

واسقنا يا نديم حتى ترانا لا نطيق الكلام إلا بهمس

كانت مدينة ( نلسون ) الكندية من المدن التى تزدحم بالعمليات التجارية والمبادلات مع الولايات المتحدة . وقد رأيت بها بعض الهنود الحمر من أهل البلاد الأصليين الذين ما زالوا يتمسكون بغطاء رأسهم التقليدى مع قميص وسروال . وقد رأيتهم مسالمين ، على قدر كبير من الأدب المشوب بالحذر ، من فرط ما لحقهم من أذى المدنية الحديثة على يد الرجل الأبيض ، وكانوا يقيمون فى أطراف المدينة ولا يهبطون إلا لمشترى ضرورياتهم . وهم يقومون فى قراهم بصناعات يدوية صغيرة يشتريها السائح كتذكار لجنس يوشك أن ينقرض . كما يقومون بصناعات نسجية

لقطع من الصوف تلمح فيها الدقة والصبر الطويل . ومنهم من يقوم بالزراعة وتربية الماشية ورعايتها ، كما أن من بينهم من يقوم بتعليم رمى السهام كرياضة عرفت طريقها إلى النوادى الأمريكية .

وفى رحلة أخرى قطعت مع أعضاء النادى المشتركين فيها ، ما يقرب من الألف كيلو . ففى كاليفورنيا طريق يدعى ( ١٠٠١ ) ، وهو يرمز إلى المسافة التى تقع بين سان فرنسسكو ومدينة مكسيكو . ومما وقفت عليه بالنسبة لهذه الطرق التى لم يكن يوازيها ، بل ولعلها لم تزل لا يدانيها أى طرق أخرى فى أى بلد آخر فى العالم ، أن هذه الطرق التى يطلقون عليها اسم ( هاى واى ) ، لها ميزانية خاصة . تتألف حصيلتها من رسم يضاف على كل جالون بنزين تستهلكه السيارات من كافة الأنواع . فكان يضاف مبلغ اثنين من السنتات ( أربعة مليمات ) فوق ثمن كل جالون يصرف من محطات البنزين . وهذه الحصيلة ، تخصص بكاملها لإنشاء وصيانة الطرق فى ولاية كاليفورنيا .

لقد سرنا فى طريق (١٠٠١) إلىأن وصلنا بعد استراحات فى الطريق إلى مدينة سان دييجو فى كاليفورنيا ثم هبطنا جنوباً مخترقين الحدود المكسيكية إلى بلدة ( جواريه ) التى سميت باسم البطل المكسيكى ( بنيتو جواريه )الذى عاش بين ١٨٠٦ ـ ١٨٧٢ ، وهو الذى حارب الملك جوزيف ماكسمليان والحملة الفرنسية التى عاونها الخديو إسماعيل بحملة مصرية ، لم أكن أرتاح لأن يعلم أحد ممن حولى شيئاً من ذلك . وفى هذه الموقعة انتصر البطل المكسيكى وتم على يديه استقلال المكسيك .

وقد شاهدت فى البرارى المحيطة بهذهالمدينة قطعان الماشية والخيول التى لا يحصيها العد ، وهى التى نراها فى أفلام رعاة البقر ، وكنت أرى فارساً واحداً على حصانه ومعه كلبه ومساعد له ، وهو يسير بها ويحركها كما لو كانت سلسلة بين أصابعه .

تيسر لى بمحض الصدفة أن أرى لوس أنجيلوس وهوليود ، فى زيارة لأداء مهمة لصديق كريم ، لبحث إمكان تصدير أفلام العرض الثانى Second Run الأمريكية من الدرجة المتوسطة لدار سينما من الدرجة الأولى فى القاهرة ، استأجرها موظف مصرى كبير ، يهم أمره صديق ، بعد أن استقال من وظيفته الحكومية ليتفرغ للأعمال الحرة . لبيت واجب الأخوة ، وشددت رحلى إلى عاصمة السينما العالمية ( لوس أنجيلوس ) لمقابلة المدير المختص فى شركة فوكس بشئون تصدير الأفلام والتعاقد عليها . وقد رحب محدثى بالعرض وطلب أن أترك له فرصة للبحث ومراجعة مجلس الإدارة ولتقدير مبلغ التأمين الواجب دفعه قبل تنفيذ مثل هذه الصفقة . ثم أشار على بالاتصال بأصدقائى فى مصر لإبلاغهم بقبول طلبهم من ناحية الشكل ، وأن ما يتبقى يخضع لقبول شروط الاتفاق التى تتم بموجب مكاتبات بين الطرفين حيث يتولى فى نهايتها وكيل الشركة فى الشرق الأوسط إبرام العقد الذى تم فيما بعد على أحسن وجه . وقد صاحب التوفيق ، ذلك الموظف الكبير ، فى عمله الحر الذى اختاره .

ودارت الأيام ، وعاد الموظف الكبير للعمل بالحكومة ، فى منصب يستطيع منه أن يرفعنى — وما كان ذلك ليدور بخلدى أو أسعى إليه — أو ( يسخطنى ) وهو ما آثر أن يصنعه . ولم يسعنى عندها ، إلا أن أردد قول فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق ، الفيلسوف الحكيم ، فى مثل هذا الموقف : « ما رأيت خيراً أثمر أذى ، مثل يدى عنده . وأعوذ بالله أن آسف على معروف ، وإن وضعته عند من لم يحفظه » .

على أنى قد استمتعت برحلتى إلى لوس أنجيلوس التى تزدحم بأعمال تفوق عدد سكانها البالغ ستة ملايين نسمة . فهى مركز صناعى وتجارى هام وخصوصاً لشئون السينما والاستعراض . كما أنها تعتبر مركزاً هاماً لتجارة الصادر والوارد ، وواسطة للتبادل التجارى بين الولايات الأمريكية فى الشرق والجنوب .

وبعد أن جلت فيها جولة بالسيارات السياحية ( Sightseeing ) اتجهنا إلى هوليود التى تستغل ( الاستوديوهات ) أرضها تقريباً، فيما عدا بعض مطاعم ومحال تجارية مبعثرة . وكانت السيارة تحمل رخصة بالمرور داخل استوديو خاص بشركة ( بارامونت ) التى رأينا على جانبى طريق السيارة مدناً تقام وأخرى تزال والممثلين والممثلات ينتقلون من مكان إلى آخر فى ملابس أدوارهم ، وذلك فى فترة الراحة من التصوير . وعلى مشارف هوليوود تقع ضاحية بيفرلى هيلز التى تنتثر فوقها قصور ملوك السينما ، حيث التباين فى الذوق المعمارى وفى الزخرفة وفى الإنارة وفى الأثاث وفى تنظيم الحدائق المحيطة بهذه القصور ، وهى الشىء الوحيد الذى استطعنا أن نراه ، إلى جانب المنظر الخارجى للمبانى الرشيقة المتعالية.

وكان المرشد فى السيارة يشير إلى تلك القصور ويذكر أسماء أصحابها ، مصحوبة بأشهر رواياتهم ، كأنهم قواد معارك اشتهروا بمعاركهم التى خاضوها فى حياتهم .

وقد لاحظت فى لوس أنجيلوس كثرة من فاتنات الفتيات اللواتى يجذب جمالهن الأنظار ، يقمن بالخدمة فى المطاعم والملاهى والمقاهى ومشارب اللبن . وعلمت أنهن الفراشات اللواتى جذبتهن أضواء السينما ، ولم ينجحن فى الالتحاق بالسينما ، لعلة صوتية أو تشويهات خفية فى أجسادهن ، لا تراها سوى عين ( الكاميرامان ) بعدساته المكبرة التى تكشف ما يخفى وما يستجن .

* * *

قرأت كتاباً أهدانيه صديقى الناشر ( هار واجنر ) من تأليفه ، عن حياة شاعر كان كثيراً ما يتلو لى شعره . وأمدنى بدواوينه الشعرية الفلسفية ذات العمق والصفاء والنقاء ، التى تلمسها وأنت تراها ، من خلال قراءتك ، تتهادى شفافة هفافة بروحانية تسمو على ما يضطرب فيه البشر من معاص وآثام . اسم هذا الشاعر ، ( جواكيم ميلر ) . وهو يعد من

أعظم شعراء غرب أمريكا . وقد أقطعته ولاية كاليفورنيا أرضاً فوق ربوة فى إحدى ضواحى سان فرنسسكو ، تشرف على المدينة وعلى الخليج . وراح يبنى فيها بنفسه أكواخاً متناثرة ، ويؤثثها ليدعو إليها أدباء من أمريكا ومن فرنسا ومن إنجلترا ومن ألمانيا ، لينزلوا بها ضيوفاً عليه .

لم يكن يتقاضى الشاعر من نشر شعره فى الكتب والمجلات سنتاً واحداً. بل كان يرصد أثمان ما يباع منها ، وكانت طبعاتها تنفد بعد قليل ، لمؤسسات الخير . وكانت له فى هذا التصرف فلسفة تنم عن شفافية روحه وتجرده من مغريات الحياة . فكان يقول إن الشعر موهبة يستنزل وحيها من السماء التى تستجيب إليه ، فينظم ما ينظم بدون أن يلقى فى سبيل ذلك أى عنت أو عناء ، فإنما النظم من فيض الله ، يستوجب من قائله أن ينفق أجره فى سبيل الله . أما ما كان يكتبه فى الصحف والمجلات والدوريات من سياسة إلى أدب إلى نقد مسرح أو كتب ، إلى الحديث عن الجديد من الفنون التعبيرية أو التشكيلية ، فهذا وحده الذى يرى أنه يستحق عليه أجراً يعيش منه مقابل ما بذله فى إنتاجه من كد وبحث .

لقد عاش الشاعر ( جواكيم ميللر ) فى الفترة من ١٨٦٠ - ١٩٢٥ . ولم يترك سوى ابنة واحدة . وكان قد تزوج فى شبابه من فتاة من إحدى قبائل الهنود الحمر ، أسبغ عليها من محبته وعطفه وحدبه ما كان يعتبره تعويضاً لما ناله قومها من قومه .

فلما توفيت بدون عقب ، رثاها فى قصائد عديدة رثاء ينم عن مدى لوعته وأساه فى فقدها . وبعد عشر سنوات من وحدة مضنية وهم مقيم ، تزوج من سيدة أمريكية ، أنجب منها ابنة هى التى زرتها فى دار الأسرة التى سبقت الإشارة إليها. وكانت الدار وهى رابضة فوق هضبة متوسطة الارتفاع ، تحكى شمم صاحبها وأنفته ونقاءه وصفاءه . رأيت من حولها الشجر والزروع والكروم تنمو فوق تلال وفى وديان ترتع فيها الماشية من أبقار وأغنام ومن دواب ومن أفراس وخيول ، كانت تبدو للعين من بعيد

بألوانها المختلفة كما لو كانت أزهاراً ووروداً تتماوج مع النسيم .

زرت الابنة العانس التى كانت تبلغ الخمسين من عمرها ، وقد استقبلتنى مع والدتها الطاعنة فى السن ببشاشة وترحاب . ولم تكن تعلم من أمرى شيئاً إلا ما يشى به لون بشرتى ، وهى وشاية لا تحدد جنساً بعينه أو مكاناً بذاته . قادتنى إلى متحف صغير لمخلفات أبيها . ثم أشارت إلى الأكواخ التى كان يبنيها بنفسه الشاعر ( ميللر ) ليستقبل فيها ضيوفه وزائريه من كبار كتاب الغرب أمثال ويلز وشو وأناتول فرانس .

راحت الابنة تتحدث عن أبيها وآثاره الأدبية ، بطلاقة وانشراح . وكنت أنصت ، وأنا مأخوذ بما أرى من نورانية شفافة تحيط بوجهها وما أشاهد من هالة من الحب والتقديس لذكرى أبيها . وكانت تتميز بابتسامة أعظم فرحاً من الفجر ، وأكثر صفاء من نداه وما لبثت أن أمسكت بكفى بين يديها ، وألقت عليهما نظرة عجلى ، ثم أطلقتهما فى اتئاد ، ورمت بعينيها إلى بعيد غير منظور . ومضت تتحدث بدون أن تغير اتجاه نظرها ، حديثاً كأنه سيمفونية ذات بداية ووقفات وبطء وسرعة ، وأنا مصغ كأحسن ما يكون الإصغاء . قالت : إننى من الشرق ، ثم أردفت تقول : وهذا أمر طبيعى ، فلون بشرتك يشى بذلك . ولكنى أقول إنك قادم من بلد ذى حضارة موغلة فى القدم يزيد عمرها عن الخمسة آلاف عام . وأنت راحل إلى بلد تقدسه كل الأديان . وسوف تقلع عن التدخين ، بعد فترة من الوقت . وسوف تتزوج بعد وقت قريب . وسوف تنصرف فى وقت متأخر من عمرك إلى إصدار كتب عن مهنتك وعن هواياتك ، لن تصيب منها إلا الذكر الطيب .

عندما عدت إلى سان فرنسسكو بعد هذه الجلسة الوامضة بما وراء الغيب ، كنت مشغولا بما استمعت إليه بعض الوقت ، لم ألبث بعده حتى أغرقتنى الحياة المحيطة ، فى بحرها الطامى ، ولم أعد أعى مما سمعت شيئاً أو ألتفت إليه بالا

وعزيز على ألا أتحدث عن الموسيقى فى أمريكا وأنا بسبيل استعراضى لذكرياتى خلال فترة إقامتى بها . إن سان فرنسسكو كانت تتميز بكثرة قاعات الموسيقى بها وبمسارح الاستعراض التى كانت تغص بمن لم يواتهم الحظ من الذكور أو الإناث ، أو ممن ارتفعت بهم السن من رجال وإناث ، عن دخول الأولين جنة السينما ، وبقاء الآخرين فى رياضها الفيحاء . وكانت بها أوبرا أنيقة أقيمت على أحدث طرق البناء الحديث المزود بكل ما هيأه العلم لهذا اللون من فنون الغناء . كانت هذه الأوبرا تسمى ( War Memorial Theatre ) أى مسرح ذكرى الحرب . وكانت تعزف بها فرق أوروبية زائرة إلى جانب فرقتها الفيلهارمونيك ، إلى جانب مسرحيات موسيقية عالمية وأمريكية . ولم يكن الجاز يعزف بها قبل أن ينتصر على هذه التقاليد كما سيأتى تفصيله . وهى لذلك كانت ملجئ من غارات الجاز وصراخ آلاته ، ودق طبوله الداعية إلى الرقص أو النزال .

وللموسيقى فى الولايات المتحدة قصة . فقبل عام ١٩٠٠ ، كان أغلب الموسيقيين وقائدو الفرق والمؤلفون الأمريكيون ، من مواليد أوربا من المهاجرين . وطبيعى أن تكون أغلب موسيقاهم ، كلاسيكية كانت أو شعبية ، متأثرة إلى حد بعيد بالموسيقى الأوربية ، فى القالب والأسلوب . غير أنه كان من الغريب فى تلك الأيام أيضاً ، أن يعتقد كثير من الأمريكيين ، بعدم صلاحية الموسيقيين والمغنين والمغنيات ، إذا لم يكونوا نازحين من أوربا . فكان يتحتم أن تتأثر الأغانى بالطابع الألمانى ، وأن تتأثر موسيقى الرقص بإيقاعات الفالس القادم من فيينا ، وأن يشيع طابع المازوركا والبولكا النازح من أوربا الوسطى ، بين موسيقاهم ، وإلا انصرف القوم عن الاستماع إلى ما يعزف خارجاً عما تقدم ذكره . كذلك كان الحال بالنسبة لمؤلفى موسيقى المسرح . فلقد نزح أغلبهم من إيرلندا ومن المجر ومن تشيكوسلوفاكيا ومن ألمانيا ومن روسيا . وكانوا يكتبون موسيقاهم

بحيث تميز الأذن مدى سيطرة الطابع الأوربى وأثره على ما يعزفون وما يؤلفون وما يغنون .

ثم ظهر الجاز ، الذى كان الفضل الأول فى ظهوره وانتشاره ، يعود إلى ( لويس أرمسترونج ) الذى أصبح يلقب ( أبو الجاز ) . وتعتبر مدينة ( نيواورليانز ) التى ولد بها ، عاصمة الجاز . ومن أشهر الآلات التى اشتهر ( أرمسترونج ) بالعزف عليها ، آلة الكلارنيت ، التى كان يعزف عليها وهو يقود فرقه الموسيقية التى غزا بها العالم .

وقد وصف ( والتر دمروش ) أحد مشاهير قادة الفرق الموسيقية الأمريكية الحديثة ، الجاز بقوله : ( إنه سيدة تتحلى بإيقاعات مغرية ، شقت طريقها راقصة حول العالم ، من بلاد الإسكيمو فى النصف الشمالى ، إلى أقصى جزر بحار الجنوب ) .

واليوم تقام حفلات ( الجاز ) فى قاعة ( كرنيجى ) التى لم يكن يعزف فيها سوى السيمفونيات . وهكذا نرى الطبل الإفريقى الذى انتقل من أدغال الكونغو ، عندما دفع بالأفريقيين إلى أمريكا ، يسود فرق الجاز ويعزف فى أرقى المسارح فى أمريكا وأوربا ، وأشهر قاعات الموسيقى فى طوكيو باليابان ، وفى مسرح ( البلاديوم ) فى لندن .

* * *

بعد أسابيع من الجلسة الروحية التى أجرتها الآنسة ( هيلين ميللر ) ابنة الشاعر ( جواكيم ميللر ) ، تلقت القنصلية العامة من الوزارة قراراً بنقلى إلى القدس ، وكان ذلك فى شهر فبراير عام ١٩٣٤ . وقد استعدت ما دار من حديث الآنسة ( هيلين ) عن ارتحالى إلى بلد تقدسه كل الأديان . إذن فها هى إحدى نبوءاتها تتحقق . ولم أدرك آنئذ كنه هذه القوة الخفية على الاستشفاف أو رؤية الحوادث غير المنظورة .

على أن ذلك قد تهيأ لى معرفته بعد أعوام طويلة . فى صيف عام ١٩٦٩ أسعدنى الحظ بلقاء الأستاذ العالم الكبير دكتور رءوف عبيد مؤلف

كتاب « الإنسان روح لا جسد » ، الذى اطلعت فيه على مصدر هذه الظاهرة التى صادفتنى فى سان فرنسسكو ، وعما يملكه الإنسان من قوى خفية للاستشفاف بالسمع والبصر . وكتابه هذا القيم ، بجزأيه ، حجة ومرجع ثبت فى هذه الشئون ، التى ما إن فهمتها حتى استبان لى كل ما كان يغمض على من ظواهر خارقة . ثم اطلعت من بعد ذلك على كتاب للأستاذ عبدالعزيز جادو بعنوان « خلود الروح » . وخرجت من اطلاعى على الكتابين بمفهوم لهذا الاستشفاف الذى يتمتع به قلة من الناس ، آمل أن أوفق فى وصفه فى هذه النبذة القصيرة التالية :

تبرز خطورة دور العلم الروحى الحديث فى الكشف عن مجاهل الإنسان ، فى أنه علم يقوم بتقديم أجل الخدمات للحقائق العلمية وللمجتمع المتحضر وللعصر الذى نحياه . فهو علم لا يقل فى خطورة دوره عن أى علم من العلوم التى تتبوأ مقاماً سامقاً فى دور العلم والجامعات . بل لعله يعد من أخطرها شأناً ، لفرط اتصاله بالتنقيب فى أعماق الإنسان ، بل فى أعماق الظواهر الحيوية بوجه عام .

ولدى كل إنسان ، فوق حواسه الخمس المعروفة ، حاستان أخريان مختلفتان تماماً . ولكل منهما أهمية جلى . فهما ذات قيمة كبيرة لا تقدر ، فى زيادة مقدرة الفرد على فهم الحياة ، كالبصر بالنسبة إلى أية حاسة من الحواس الأخرى . كما أنهما تمدان الإنسان بقوى قادرة قاهرة . إن هاتين القوتين القديرتين ، هما ، الجلاء البصرى ، (Clairvoyance) والجلاء السمعى (Clairaudiance) . وتعتبر الأولى امتداداً لحاسة بصرنا ، ويطلق عليها الاستشفاف ، وهى قوة رؤية الأشياء أو الحوادث غير المنظورة . كما تعتبر الثانية امتداداً لحاسة سمعنا وإدراكنا وفهمنا . وعن طريق الجلاء البصرى أو المكاشفة ، نرى الأشياء عن بعد حتى ولو كانت على مسافة آلاف الأميال أو السنين .

وكذلك الإدراك عن غير طريق الحواس ، يعتبر من القدرات التى

يختص بها بعض الناس ، وهم الذين يمكن استخدامهم كوسطاء . إذن لقد كانت الآنسة ( هيلين ميللر ) تتمتع بالكشف البصرى ، فقالت ما قالت ، على ضوء مرئيات عينية بدت لها وهى فى شبه إغفاءة أو تحليق روحى .

وكان على أن أنفذ أمر النقل من فورى . فكلما طال البقاء فى أحضان هذا الغلاء ، ارتفع رقم الدين الذى علينا دفعه للوزارة حين ميسرة.

ولم يكن من شىء يعكر صفو هذه الحياة الناعمة الباسمة الحالمة ، سوى غلاء لا نستطيع دفعه أو قهره . على أنه لم يستطع برغم جبروته أن يحرمنا مناعم سان فرنسسكو الجميلة الفاتنة ، التى لم تقع العين على أجمل من مناظرها فى شرق أو فى غرب . ولا وجدت آنس منها للمقيم والعابر ، كأنما قد اجتمع فيها الأمن والحنان ، شأنها فى ذلك شأن باريس وروما من بين كل عواصم العالم ومدنها ، حيث لا إحساس بغربة أو حنين .

وتذكرت قولا لأبى الفرج الأصفهانى فى كتابه «الأغانى» جاء فيه : « فى طباع البشر محبة الانتقال من شىء إلى شىء ، والاستراحة من معهود إلى مستجد . وكل منتقل إليه ، أشهى إلى النفس من المنتقل عنه ، والمنتظر أغلى على القلب من الموجود » .

ولست أدرى ، أين أدارى وجهى ، فى حيائه وخجله ، من الأصدقاء الذين رأوا أمريكا فى هذه السنوات الأخيرة ١٩٦٠ — ١٩٧١ ، إذا ما قرأوا هذه الذكريات ، التى ضمت أنباء عن أمريكا فى عهد من الصعب قياسه بما وصلت إليه الآن من طفرات يعجز العقل عن اللحاق بها . ولعلى إذا قارنت عهدى بأمريكا ، بعهد هؤلاء الأصدقاء بها فى سنواتها الأخيرة ، بما بين الطائرة التى تسبق الصوت ، وسفن الفضاء ( سايوز وأبوللو ) ، أكون قد توخيت العدل فى المقارنة ، والحق فى التبيين ، أو أكون فى هذا الشأن ، قد وصفت أمريكا مثلما وصف الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ، باريس ، فى كتابه : « تخليص

الإبريز فى تلخيص باريز » .

أخذت فى الإعداد لسفرى . وودعت أصدقائى ، وكان أكثرهم تأثراً ( هار واجنر ) الذى قال لى مداعباً : « إذا شئت أن أحدث فى أمرك الرئيس روزفلت ، فعلت ! » . . .

حملتنى طائرة من مطار سان فرنسسكو إلى مطار نيويورك فى رحلة تقطع فيها حول أربعة آلاف كيلو فى ٢٤ ساعة متواصلة ، مع هبوط فى عدة محطات فى الطريق . فى ذلك الزمن ، ١٩٣٤ ، كان السفر الطويل بالطائرة يعد غزواً للفضاء . فقد بقيت الراكب الوحيد بعد أن غادر الطائرة فى الطريق باقى الركاب . وكنت فى نظر المضيفات بالطائرة ، ( لندبرج ) الشرق ، وكان العهد برحلته قريباً . وانهالت على فى مطار نيويورك ( أوتوجرافات ) المضيفات لكتابة كلمة هنا وكلمة هناك عن الأمان فى الرحلة والراحة فى الخدمة والاستعداد الذى يغطى كل الطلبات ولو رآنى من بعيد أحد الناس ، لخالنى نجماً سينمائيا حاز جائزة الأوسكار أوأديباً من الشرق حاز جائزة ( البولتزر ) .

ومن نيويورك أبحرت على الباخرة ( أكسكاليبور ) التى تقطع المسافة بين نيويورك والإسكندرية فى ٢٢ يوماً . وكان خط سيرها كالآتى :

نيويورك — جبل طارق — جزر الباليار — ( ماجوركا ومايوركا ) — مارسيليا — جنوا — نابولى — مضيق ميسينا — الإسكندرية .

ولقد مررنا ببوغاز جبل طارق ، ورأينا الصخرة التى تتشبث بها بريطانيا ، ، عندما كانت عظمى ، رغبة منها فى الاحتفاظ بمداخل ومخارج البحر المتوسط وقواعد فى جزر وموانئ تحت احتلالها ، مثل مالطة وقبرص وقناة السويس وميناء عدن وبوغاز باب المندب ، ثم مسقط وعمان ، ليبقى طريقها إلى الهند ، قبل استقلالها ، مفتوحاً أمام بوارجها الحربية وقوافل بواخرها التجارية ، فى أى وقت .

ولم يبق لها من بعد عظمتها القديمة وهذا التحكم الفريد فى بابه ،

سوى هذه الصخرة التى راحت تتشبث بها تشبث الشحيح الذى يوشك أن يفقد آخر دراهمه .

طالعتنا بعد صخرة جبل طارق ، جزيرة ( ماجوركا ) أكبر جزر الباليار التى تقع بالقرب من شاطئ أسبانيا الشرق . وهى جزيرة يقطنها ٢٧٠ ألف نسمة . وهى وما جاورها من جزر مقصد السياح من كل صوب وبخاصة من أمريكا وإنجلترا وفرنسا ، وتدر ملايين الدولارات على أسبانياسنويا. ويقصدها زائروهاللمتعة والاستشفاءواللهو فى جو مرح معتدل رخيص . وأمضينا بهذه الجزيرة يوماً من أسعد أيام الرحلة من صباحه الباكر حتى غروب الشمس ، أتيح لنا فيه أن نرى حياة أسبانيا مصغرة فى هذه الجزيرة . وكانت الأسواق تغص بالباعة والمشترين . وكان الشراء فى حد ذاته متعة والانتقال من سوق إلى سوق ومن حى إلى حى يملأ النفس بالسعادة . وكانت الجزيرة عندما ترسو بمينائها باخرة كبيرة — كالعهد ببور سعيد — تدب فيها الحياة، أو لعلنا نقول ، تفور إذ أن الحياة فيها على الدوام زاهية نابضة . وتنقلب ساحاتها وطرقها إلى مسارح للغناء والرقص الأسبانى الذى تدب فى أوصاله الدماء العربية الدافقة بالحيوية والحركة والتحرر والانطلاق . وفى غنائهم نبرة أسى لعلها رسبت فى حناجرهم العربية أصلا ، لتنعى ملكاً فى الأندلس أضاعه أهله .

وانقضت أيام الرحلة الاثنان والعشرون التى أمضيناها فى هذا الجو المرح الذى زاده انشراحاً ، فوج كبير من المدرسات والمدرسين الأمريكيين من ركاب الباخرة ، فى رحلة مدرسية طويلة ، فى طريقهم إلى الشرق الأدنى والأقصى ، يرون فيها العالم ، ويدفعون أجرها أقساطاً مريحة على مدى سنتين . وتمنيت وما أكثر ما تمنيت ، إلى أن تحقق بعد ربع قرن ، ربع الذى تمنيت .

لم أمل يوماً واحداً من أيام هذه الرحلة الطويلة . فرفقة الطريق يؤنسون من لا أنيس له ، وما معى من كتب ونشرات وكتيبات عما أنا راحل إليه

من بلد ، كانت جميعها عوناً على فوات الأيام سراعاً ، كأنما كانت تجرى من مطارد ، أو فاتها عزيز تتعقبه وهى تلهث كيما تلحق به ، لتطيب نفساً وتقر عيناً . ومضت هذه الرحلة كالنسمة ، وكان يزيدها بهاء ما كنا فيه من شباب ، ينطلق فى أجواء المتعة ، مستهيناً بكل صعب ، مستريحاً إلى كل نغمة ، مستهاماً بكل جمال ، مستزيداً من كل معرفة . وفى ذلك قال بعض المتصوفة : « إن الصبا يمضى كالنسمة ، والشباب كالماء المنحدر ، والشيخوخة أشبه بالسقف الذى يوشك أن ينقض » .

## الفصل الثالث

### فى فلسطين :

كان من بين استعدادى لرحلتى إلى مقر عملى الجديد بالقنصلية المصرية العامة بالقدس ، التزود بما يمكن أن أقرأه خلال رحلتى الطويلة عن فلسطين ، التى كانت تحت الانتداب البريطانى عندما كنت أقصدها عام ١٩٣٤ .

وقد عاونني فى ذلك صديقى ( هار واجنر ) الناشر الأمريكى . فقد أخذنى ذات يوم إلى مكتبه فى مجلته الأدبية Echo of the Valley التى كانت تعنى عناية خاصة بالسياسة الخارجية وبأنباء العالم التى تهم الأمريكيين . وزودنى الصديق من مكتبة « المجلة » بكتيبات وكتب ونشرات ومجلات تحتوى على مقالات وأبحاث عن فلسطين ، بأقلام كانت تبدو حيناً حرة وحيناً مذعورة . وكانت الجوانب السياسية والتاريخية لفلسطين ، ودورها خلال الحكم العثمانى ثم من بعده فى عهد الانتداب البريطانى بموجب قرار عصبة الأمم ، كانت هذه الجوانب هى همى وشاغلى طوال مدة رحلتى .

وكان الصديق الناشر وهو يناولنى هذه الذخيرة من المعارف ، يقول لى إنه يغبطنى على أنى سأرى جبل الزيتون ومزارات الأنبياء من كافة الأديان ، وكنيسة المهد وكنيسة القيامة ، وإن كان التفاتى عبر التاريخ إلى تلك العصور الماضية ، وما جرى خلالها فوق أرض فلسطين من غدر وخيانات ومعارك برغم قدسيتها وطهارة أرضها ، سيكشف لى عن أن أطماع البشر لا تبقى على مقدس ولا تقف فى سبيل نيل أغراضها قداسة أو طهارة . ثم راح يشفق علىّ وعلى زملائى مما سوف نلقاه من صعوبات أخذت تحتشد فى الجو ، وتهدد الدول العربية بما ينتظرها من جحافل اليهود الذين يمهد لهم الانتداب البريطانى عن طريق الهجرة ، بالاستيطان وبالسيطرة وبالتملك وبالتوسع ، بفضل أموال أثرياء اليهود فى أوربا وأمريكا وما تدبره المنظمات الصهيونية من وراء ستار ، بفرض الأمر الواقع ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ومهما كلفهم ذلك من تضحيات .

عندما بلغت الإسكندرية بعد رحلة استغرقت اثنين وعشرين يوماً ، كنت قد أتيت على ما كان معى من أوراق ، كان حتما علىّ أن أقرأها ، وأن أستوعب ما تضمنته ، حتى أكون عند وصولى ، ملما بأوضاع فلسطين ، عندما أتحدث مع من سوف أقابلهم من العرب أو الأجانب . ولم أكن أعلم أنى كنت بعيداً عن لب الموضوع إلى هذا الحد من المعارف السطحية التى كانت تطالعنى فى صحف أو مجلات مما يقع تحت يدى لم يكن علمى يزيد . على أن فلسطين هى أرض كنعان أو أرض الإسراء أو الأرض المقدسة . وكنت أراها على الخريطة تحد من الشمال بلبنان ومن الجنوب بالبحر الميت ومن الغرب بالبحر المتوسط ، ومن الشرق بصحراء سوريا . كما كنت أراها تتوسط الدول العربية وتشطرها إلى شرق وغرب ، وتتحكم بفضل هذا الموقع فى العالم العربى . وكنت أعلم من الناحية الدينية أنها تضم القدس التى ورد ذكر مسجدها

فى القرآن الكريم ، والذى يعد أولى القبلتين وثالث الحرمين : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » . كما تضم مهد المسيح عليه السلام فى بيت لحم . إلى جانب مقام الخليل إبراهم أبى الأنبياء ، وكنيسة القيامة التى هى مزار كافة المذاهب المسيحية .

كان مما وقفت عليه ، أن الصهيونية انبثقت وانتشرت فى شرق أوربا فى القرن التاسع عشر . وكانت قد وضعت موضع التقدير ، من بين مبادئ حركة ( الهاسكالا ) أو التنوير ، التى ظهرت فى شرق أوربا ، وهى الشبيهة بحركة الفلسفة الفكرية التى تغلغلت فى غرب أوربا ، مبدأين هامين لها ، هما : الولاء المطلق لرجال الحكم والكنيسة ، والعداء للحركات الشعبية الثورية . وحصرت اهتمامها وهدفها فى مشروع قيام الدولة اليهودية ، الذى يرمى إلى جمع شتات الشعب اليهودى وإحياء لغته ، وتاريخه ليستوطن مكاناً ملائماً وصالحاً : وإنشاء دولة تقوم على قواعد من النظم العصرية . وكانت تستند فى التوصل لتحقيق ذلك ، إلى نشر الدعوة بأن اليهود أمة واحدة ، مستمرة منذ آلاف السنين ، وأنها برغم تشردها ، لا ينقصها إلا أرض الوطن ، ثم العمل على إشاعة روح التشاؤم من المستقبل ، فى أى مكان يحل به اليهود خارج فلسطين ، ليسهل إقناعهم بالهجرة إليها .

على أن انبثاق الصهيونية فى شرق أوربا ، وفى هذا الوقت بالذات مرده إلى ظروف مالية ، تتلخص فى أن القرن التاسع عشر ، كان يعد مرحلة من مراحل التحول من النظام الرأسمالى الحر ، إلى النظام الرأسمالى الاستعمارى . وقد أثار هذا التحول ، قلق الطبقات الوسطى ، التى راحت تبحث فى جنون عن مخرج من مأزقها ، فوجدته فى مواكبة اتجاهات وأهداف الرأسمالية الاستعمارية ، وهو أمر فرح له كبار الماليين الاستعماريين . وكان دعاة الصهيونية فى ذلك الحين إمعاناً منهم

فى إخفاء أهدافهم ، يلبسونها ثوب الدين والعنصرية والدعاية والخداع ، وإشاعة ما يهدفون إليه بالحق أو بالباطل ، بين بنى دينهم ، وبين ساسة الدول الذين يسيطرون على مصائر السياسة العالمية ، سواء بسواء .

وقد وجدت هذه الحركة الصهيونية السياسية ، تأييداً وتشجيعاً من جانب معظم كبار الماليين اليهود الغربيين الذين رأوا فيها فرصة لزيادة أرباحهم ، باستغلالهم الطبقات الشعبية العاملة من يهود شرق أوربا أو غربها ، ممن تغريهم هذه الدعايات .

ولقد تعاونت الطبقة البورجوازية اليهودية ، مع كبار الماليين اليهود فى السير سراعاً بالصهيونية كحركة سياسية تدر عليهم المكاسب فكان البورجوازيون يصدرون العمال اليهود من شرق أوربا بعد أن تكون الدعاية قد سلبت ألبابهم وصورت لهم الهجرة إلى فلسطين كما لو كانت الحلم الذهبى المنشود ، الذى يحقق لهم المال والاستقرار . وكان الماليون مقابل ذلك ، يصدرون رأس المال إلى فلسطين ، ليقوم هؤلاء العمال المجندون للهجرة باستثماره ، ثم العمل من خلال ذلك على تثبيت أقدامهم فوق أرض فلسطين ، ليكونوا أداة فى يد الاستعمار ، الذى كان يخطط لهذه الغاية قبل وعد بلفور ، وليتخذ من تكتلهم عوناً وسوطاً وسلاحاً لإسكات الحركات الوطنية العربية فى المنطقة .

وكانت الصهيونية تعتمد فى دعايتها إلى دعامتين فى نشر مبادئها بين اليهود وجذبهم إلى اعتناقها كمذهب دينى : الأولى ، استغلال العقيدة الدينية التى تدعو إلى العودة لأرض الميعاد ، والثانية ، استغلال صيحة اليأس التى كانت تنبعث من الشعب اليهودى ، راجفة واجفة ، كلما مسته موجة اضطهاد وتنكيل ، لينقذه الله من البلاء ، بالعودة إلى أرض الميعاد ، حيث كان له ذات يوم وطن يحميه . وانطلقت أبواق الصهيونية وكتابها يطالبون ويمنون اليهود بالعودة ، إلى فلسطين .

ولم تقف الدعاية للصهيونية عند الدعوة إلى الهجرة ، وإشاعة اليأس

من المستقبل ، بل ادعت أيضاً أن اليهود برغم تشردهم فى مختلف الأقطار ، أمة واحدة مستمرة منذ آلاف السنين ، وقد آن لها أن تعود إلى أرض الميعاد. ونتيجة لهذه السياسة الواعية ، اجتمع المؤتمر الصهيونى الأول فى ٢٩ أغسطس عام ١٨٩٧ بمدينة ( بال ) بسويسرا ، وبذلك تحقق أول نصر سياسى للصهيونية ، حيث تمكنت من أن تجمع مندوبى اليهود فى كل أنحاء العالم فى مؤتمر سياسى لأول مرة منذ عام ٧٠ ميلادية ، أى منذ أن زالت شخصية اليهود السياسية من عالم الوجود .

ولقد وصف هرتزل الذى رأس المؤتمر ، هذا الاجتماع بقوله :
« إننا اجتمعنا هنا لكى نضع الحجر الأساسى للمأوى الذى سيلجأ إليه الشعب اليهودى . وعلينا أن ننشئ مسرعين ، هيئة منظمة تصبح دائمة ، يفتقر إليها الآن الشعب اليهودى ، وذلك عن طريق إحياء روح الشعب وإحياء الحماس بالعون المادى والأدبى » .
ثم أصدر المؤتمر قراره بالموافقة على فكرة تنظيم جهود الصهيونية ويتلخص القرار فى : « أن أمانى الصهيونية تتركز فى إنشاء وطن للشعب اليهودى ، يعترف به من الناحيتين الرسمية والقانونية ، ويصبح الشعب بإنشائه فى مأمن من الاضطهاد ، على أن يكون هذا الوطن هو فلسطين » .

على أن حكومات الدول الكبرى وقفت من الحركة الصهيونية موقف الحذر والمعارضة عند أول قيامها . وكان أول وأهم المعارضين ، تركيا ، التى كانت فلسطين تقع داخل إمبراطوريتها . فقد وقف السلطان عبد الحميد ، موقفاً حازماً منها ، برغم محاولة إثنائه عن معارضته بدفع ملايين الجنيهات الذهبية ، بل إنه نجح فى أن يضم إليه فى معارضته لهذه الحركة ، اليهود التابعين للإمبراطورية .
وكان السلطان قد أصدر منذ عام ١٨٩٢ أمراً بحظر هجرة اليهود إلى فلسطين ، أو إعطائهم أى أرض بها . ولم تجد محاولات هرتزل فيما بعد ذلك ، وأصر السلطان على موقفه .

وقد اتصل عند ذلك ، زعماء الصهيونية الآخرون بألمانيا بوصفها حليفة الأتراك ، لإقناعها بإنشاء دولة يهودية فى فلسطين ، تكون بمثابة قاعدة سياسية وتجارية ، وقوة تسند ظهور الترك والألمان فى هذه المنطقة . ولكنهم باءوا بالإخفاق كذلك فى هذا المسعى . وكان من الطبيعى أن يتصل الصهيونيون أولا بالجانب الذى يحكم فلسطين آنذاك وهو الأتراك ثم بحلفائهم الألمان ، فلما فشلوا فى المحاولتين ، وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام بريطانيا ، ورأوا أن معسكرها هو معسكرهم وأن اتجاهها هو خط اتجاههم نفسه فانجذبوا إليها .

وليس من الغريب أن تجاهد الصهيونية فى سبيل التآخى مع السياسة البريطانية الاستعمارية ، التى كانت هذه الصهيونية تعلم عن يقين أنها تسعى إلى فلسطين . فقد وجدوا أن أهدافها تتحقق بالاعتماد على قوة أجنبية ذات شأن ، تتوافق غاياتها مع غاية هذه القوة .

وما إن انفصلت فلسطين عن الإمبراطورية العثمانية بحكم انتصار جيوش اللنبى ، وما اتخذ من قرارات الانتداب فيما بعد الحرب العالمية الأولى ، حتى سارع الصهيونيون إلى إعلان ولائهم لبريطانيا .

وقرب نهاية الحرب العالمية الأولى ، جندت الصهيونية عملاءها فى أنحاء العالم ، وعبأت إمكانياتها فى كافة المجالات ، حتى تم النصر للحلفاء . وكان وعد بلفور المشهور الصادر يوم ٢-١١-١٩١٧ هو المكافأة على هذا العون . وبذلك حققت الصهيونية خطوة ثانية من خطوات سياستها فى سبيل تحقيق أغراضها بالارتباط والتعاون مع أكبر قوة استعمارية آنذاك .

وعند عقد مؤتمر الصلح فى باريس ، انطلقت الدعاية الصهيونية ذات التنظيم والنفوذ العظيمين ، لكى تمثل فى ذلك المؤتمر . وقد تم لها ماسعت إليه ، ومثل أعضاء المنظمة الصهيونية العالمية ، يهود العالم ، كمندوبين ينطقون باسمهم ويطالبون بحقوقهم .

ويذكر التاريخ أنه خلال فترة الحرب العظمى ، كان دكتور

( وايزمان ) يشغل منصبُ أستاذ الكيمياء في جامعة مانشستر . وكان معروفاً عنه دفاعه القوي عن قومه من اليهود ، وحقهم في الحياة ، وعدالة مطالبهم . وقد تيسر له أن يجتمع باثنين من أوسع أعضاء الحكومة البريطانية نفوذاً ، هما ( لويد جورج ) و( هربرت صموئيل ) وقد استمعا إلى دفاعه وعطفا على المطالب اليهودية .

كانت هذه المقابلة قد تمت في فترة كانت إنجلترا تعاني فيها نقصاً في مادة ( الأسيتون ) اللازمة لصناعة المتفجرات . وكان لويد جورج رئيساً للجنة الذخائر ، فأوعز إلى ( وايزمان ) أن يجري تجارب خاصة لاستنباط وإنتاج ( الأسيتون ) على أوسع نطاق . ولم تنقض بضعة شهور حتى كان قد وُفق في تحقيق ما طلب منه تنفيذه .

في عام ١٩١٦ عين ( وايزمان ) رئيساً لمعامل الأميرالية البحرية في لندن ، الأمر الذي أتاح له فرصة الاتصال بلورد ( بلفور ) وزير البحرية آنذاك . وقد نجح في إثارة اهتمامه بشئون اليهود ، لا لمجرد قضيتهم الخاصة ، ولكن بعد أن أصبحت مشكلتهم تدخل في نطاق وحسابات السياسة العملية لبريطانيا . وكان اهتمام بريطانيا بقضية اليهود ، يزداد تبعاً لاطراد تطورات الحرب لمصلحة الحلفاء . ذلك أن مستقبل فلسطين يرتبط ارتباطاً مباشراً بمصالح بريطانيا التي يجيء في مقدمتها سلامة مصر وقناة السويس ، تأميناً لممتلكاتها في آسيا ، وتوسيعاً لنطاق أطماعها الاستعمارية في المنطقة ، وتأكيداً لبقائها في العالم العربي .

ولما اقتضت ظروف الحرب عام ١٩١٧ ، ضرورة دخول أمريكا هذه الحرب إلى جانب الحلفاء ، أصدرت بريطانيا في ذلك العام وعد ( بلفور ) الذي كان يشغل آنئذ منصب وزير الخارجية البريطانية . فكان لصدور هذا الوعد في ١٩١٧/١١/٢ ، صدى ورضى بين الشعب اليهودي في العالم أجمع ، وفي أمريكا بوجه خاص . وكان أن بذل اليهود — عرفاناً منهم بفضل هذا الوعد — جهوداً مضنية تكللت بدخول

أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء ، بفضل ما لهم من نفوذ فى دوائر المال والأعمال فى أمريكا .

وواضح أن وعد بلفور لم يكن من وحى الساعة عام ١٩١٧ ، ولكنه كان وليد سياسة استعمارية مرسومة من كلا الطرفين ، جاءت الحرب العالمية الأولى ، نقطة انطلاق لها ، وفرصة لتحقيق أطماعهما معاً .

تقرر نظام الانتداب فى المادة ( ٢٢ ) من ميثاق عصبة الأمم ، كوسيلة للتمويه به على استعمار الدول المنتصرة للدول التى كانت تخضع للدول المغلوبة وتجرى فى فلكها . من ذلك ما ورد فى تلك المادة من أن الانتداب إنما هو وسيلة : « لتدريب الشعوب التى خرجت من سيادة الدول المغلوبة ، على الحكم الذاتى ، وهى أمانة فى عنق المدنية » .

وبحكم هذا النص دخلت فلسطين فى نظام الانتداب ، باعتبارها قطراً كان يتبع الإمبراطورية العثمانية . وأصبح من حقها ، ترتيباً على هذا الوضع ، أن يكون لرغباتها الاعتبار الأول فى اختيار الدولة المنتدبة . ولكن هل كان فى استطاعة عرب فلسطين أن يقفوا برغباتهم فى مواجهة الاستعمار البريطانى والصهيونى ، اللذين يوجهان عصبة الأمم ، لاتخاذ ما يشاءان من قرارات ! .

وقد كان من أثر تدخل المنظمة الصهيونية لدى مجلس الحلفاء الأعلى عام ١٩١٩ ، لاختيار بريطانيا العظمى دولة منتدبة على فلسطين ، والإيحاء لعصبة الأمم لتعمل على هذا الاختيار ، أن تحققت رغبات اليهود ، ووافق المجلس الأعلى للحلفاء فى ٢٥ أبريل ١٩٢٠ على منح بريطانيا ، الانتداب على فلسطين .

وكان من الطبيعى أن يوافق مجلس الحلفاء على ذلك المسعى ، فى وقت كانت قوات الجنرال اللنبى معسكرة فى فلسطين بعد هزيمة الأتراك ، الذين خذلهم الشريف حسين ، شريف مكة ، بعد تضليله بوعود زائفة براقة من قبل بريطانيا بمنح الدول العربية التى كانت

تخضع لتركيا ، الاستقلال والحرية بعد الانتصار .

وقد أقر مجلس عصبة الأمم مشروع صك الانتداب على فلسطين فى ٢٤ يولية ١٩٢٤ الذى احتوى على ٢٨ مادة ، أشارت المادة الأولى منه ، إلى وعد بلفور ، والصلة التاريخية التى تربط الشعب اليهودى بفلسطين ، والأسباب التى تبعث على إنشاء وطن قومى لهم .

وكانت مواد صك الانتداب ، تدور حول تخويل الدولة المنتدبة الحق والسلطة لوضع البلاد فى أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تضمن إنشاء الوطن القومى اليهودى ، واعتبار اللغة العبرية لغة رسمية فى البلاد .

من ذلك على سبيل المثال ، نص المادة الرابعة التى تشير بإنشاء وكالة يهودية تتعاون مع الدولة المنتدبة على إدارة البلاد . وكان يهود فلسطين الذين منحوا هذه الامتيازات ، يبلغ عددهم ٨٠ ألف نسمة فى فلسطين ، فى الوقت الذى صدر فيه صك الانتداب . أما العرب ، فكانوا يؤلفون ٩٢ ٪ من سكان البلاد ، الذين ورد ذكرهم فى الصك باعتبارهم من الطوائف غير اليهودية .

وفيما يلى نص صك الانتداب ، فى صورة خطاب أبلغه بلفور إلى لورد روتشيلد ، ليقوم الأخير بإبلاغه للمنظمة الصهيونية .

« يسرنى جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك ، التصريح التالى ، الذى ينطوى على العطف على الأمانى الصهيونية . وقد عرض على الوزارة وأقرته :

« إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل أقصى جهودها لتسهيل تحقيق هذه الغاية .

« على أن يفهم جليا ، أنه لن يعمل أى شىء يغير الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين ، ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلاد الأخرى .

« وأكون شاكراً لو أنكم أبلغتم هذا التصريح إلى المنظمة الصهيونية »

* * *

برزت أمام الصهيونية فى فلسطين ، عقبتان خطيرتان تحولان دون إنشاء الوطن القومى اليهودى . وكانت العقبة الأولى تتمثل فى أن السكان العرب يمثلون ٩٢ ٪ من المجموع الكلى لسكان فلسطين . كما كانت العقبة الثانية تتمثل فى أن اليهود لا يملكون من الأراضى أكثر من ٤٠ ألف دونم ( الفدان أربعة دونمات ) . وهذه الملكية تمثل واحداً من سبعين من مجموع مساحة الأراضى فى فلسطين . وكان لابد ، لإقامة دولة ، من توفر عاملى الشعب والأرض . وقد رأت الصهيونية أن تخلق الشعب بتهجير النساء والرجال إلى فلسطين . وكان عامل الهجرة أوفر حظا وأدنى إلى التحقيق من عامل الأرض . فقد امتنع العرب ، فيما عدا قلة محدودة لا تقدر العواقب ، عن بيع الأرض . ولم تستطع كل وسائل الإغراء أن تشترى أكثر من ٦ ٪ من أرض فلسطين ، كان أغلبها مملوكاً لغير فلسطينيين . ولم يستطع العرب أمام أفواج الهجرة ، دفع هذه الغارة الصهيونية المدبرة بإحكام ، ساعد على تنفيذها وجود الحدود والموانى والمطارات والمواصلات ، تحت يد سلطة الانتداب التى تملك التشريع والحكم المطلق كيفما أرادت .

ولم يكن يملك العرب سوى الاحتجاج تلو الاحتجاج لدى الحكومة البريطانية المنتدبة ، ولدى عصبة الأمم . وعندما فشلت كل هذه المساعى السلمية ، هب العرب فى فلسطين للدفاع عن حقوقهم بغير الوسائل السلمية . فقامت الثورات من أجل هذه الحقوق أعوام ١٩٢٠ ، ١٩٢١ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٢ .

وقد كان هم الصهيونية منصرفاً منذ البداية إلى تأمين وسائل الهجرة ، فسعوا إلى إدراج موضوع الهجرة فى صك الانتداب على فلسطين .

فقد فرضت المادة السادسة من الصك ، على الإدارة البريطانية ،

واجب تسهيل الهجرة اليهودية فى أحوال ملائمة .

* * *

ولعل المنظمة الصهيونية ، وقد ارتاحت إلى نجاح مساعيها لإنشاء وطن قومى ، والعمل على تهجير شعب إليه ، وشراء أرض فيه ، رأت أن تقف هنيهة عند هذا الحد ، الذى لم يكن إلا فصلا من فصول ، يتحدد رفع الستار عما يليه ، فى موعد موقوت .

ذلك أن الصهيونيين تراودهم على الدوام أحلام يتشبثون بتحقيقها ، لا كمستعمرين فقط ، ولكن كمؤمنين — عند الضرورة والفائدة — بما ورد فى الإصحاح الخامس عشر من سفر التكوين الذى جاء فيه : « فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ( إبراهيم ) ميثاقاً قائلا : « لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير ، الفرات » .

على أنهم لا يعترفون عند المجادلة بأن نسل إبراهيم يشمل سلالة يعقوب وإسماعيل معاً ، ولكنهم يدعون ويزعمون أن المقصود هو نسل يعقوب وحده دون سند أو منطق .

انصرف هم رجال الوكالة اليهودية إلى العمل على نزع ما رسب فى أذهان قدماء اليهود عبر العصور السالفة ، عندما كانت النظرة إلى فلسطين لا تتحول عن غرضها الدينى ، وأن السفر إليها إنما هو حج مبرور ، ورحلة لمن يبحث عن الراحة الأبدية فى ظلال صهيون ، وفوق جبل الزيتون وانتقال الروح إلى السماوات العلى بعد موت أصحابها فوق أرض أورشليم .

وكان على الوكالة أن تقنع ثراة اليهود بالبذل والعون لإنشاء الوطن القومى ، لا بعقلية الإحسان والعطاء فى سبيل الدين ، توسلا للمثوبة والجزاء فى الدار الآخرة . ذلك أن إنشاء هذا الوطن هو محور جهود كل اليهود فى العالم ، لإقامته ، رضى العالم عن وجوده أو لم يرض ، وسواء اتفق مع تعاليم الدين أم خالفها .

وكان عليهم أن يقيموا دولة إسرائيل على أسس ثابتة وبسواعد قوية ، تعمر وتبنى وتناضل وتحمل السلاح للهجوم وللدفاع ، وتتزوّد بالعلوم العصرية الحديثة التى تعوّضهم عن الكثرة العددية التى يتمتع بها العرب ، لا لتتمرغ فوق تراب أرض الميعاد ، انتظاراً لصعود أرواحهم راضية مرضية فى عقائد الأولين المتخاذلين فى نظر الصهيونيين الجدد . وكم من فوارق بين اليهود الاشكيناز المهاجرين من أوربا وأمريكا واليهود السفرديم من فلسطين ومن المهاجرين من الشرق* .

وكان عليهم أن يقيموا دعائم هذا الوطن دون ما اعتماد على ما ورد فى التوراة مخالفاً لأطماعهم التوسعية الاستعمارية ، ودون إنصات للأقدمين الذين عشيت أبصارهم عن رؤية المستقبل الجديد الذى ينتظر النشء الحديث ، والعمل على تحريف ما ورد فى التوراة بحيث يواكب أهدافهم وما يسعون إليه .

* * *

مررت بالقاهرة فى طريقى إلى فلسطين . وقد غادرتها بعد أسابيع إلى القدس . مستقلا قطار القنطرة غرب ثم القنطرة شرق إلى العريش فرفح ، آخر الحدود المصرية ، ومنها دخلنا الأراضى الفلسطينية حتى وصل القطار فى الصباح الباكر ، بعد ليل طويل ، إلى اللد فالقدس .

كان هذا الخط الحديدى من صنع العمال المصريين الذين جندتهم السلطة العسكرية البريطانية خلال الاحتلال والحرب عام ١٩١٤–١٩١٨ . لتستعين به على نقل الجنود والمؤن إلى فلسطين ، التى كانت جيوش اللنبى

* كان من المشاهد المألوفة رؤية يهودى ثرى من أمريكا يقف عند حائط المبكى مع يهودى شرقى ( سفرديم ) ليبكى عنه مقابل أجر معلوم . فليس فى حياة الثرى الأمريكى ما يدعو إلى البكاء . فإذا ما توقف الباكى المأجور عن البكاء ، نهره مستأجره ما دام قد أجزل العطاء مقابل القيام بهذه [illegible]

قد بلغتها عام ١٩١٧ لمحاربة قوات الترك والألمان .

وكنت من باب الاقتصاد أسكن مع زميل رحب بهذه المشاركة وهو الذى أصبح فيما بعد وكيلا دائماً لوزارة الخارجية . وكان الغلاء ، وإن قلت حدته عن أمريكا ، إلا أنه كان ما يزال أمامنا وبيننا ومعنا ، ولا ينفك يلاحقنا فى المسكن والمأكل والملبس . وكنا أعزبين وأعزلين من كل علم بالتدبير المنزلى .

ولعل القارئ يدهشه ترديد القول عن الغلاء وقصور مرتبات رجال السلك الدبلوماسى آنذاك ، عن تغطية نفقاتهم ، والاستعانة بما لديهم من دخول شخصية ، وتعارض هذا القول مع ما هو قائم اليوم من كفاية مرتبات وبدلات رجال السلك الدبلوماسى ، كفاية هى فى القليل لا تدفع بهم إلى الاستعانة بما يملك أهلهم . وإن كانت الشكوى قد أخذت ترتفع مع ارتفاع نفقات المعيشة فى معظم عواصم العالم فى الوقت الحالى.

فقد ظل السلك الدبلوماسى منذ إنشائه عام ١٩٢٤ حتى عام ١٩٤٧ يعانى رجاله ضعف المرتبات والبدلات ، حيث كانت مختلف السلطات الرسمية فى مصر تنظر إلى هذه الوظائف ، على أنها ترف ، وترفض أن تبحث كل ما يتعلق بأمور مرتباتهم . وكانت الحكومات المختلفة خلال هذه الفترة ١٩٢٤ – ١٩٤٧ لا تجسر على طلب زيادة الاعتمادات المفتوحة للصرف منها على وزارة الخارجية ، حتى لا تفتح على نفسها باباً يجيء لها منه الريح والنقد والتجريح . فكانت تسكت وهى تعلم علم اليقين ، قلة حيلة هذه المرتبات الهزيلة . وكان مجلس النواب فى تلك السنوات ، عندما ينظر ميزانيات الوزارات ، يمر بميزانية وزارة الخارجية مر الكرام.

ولما بدت للعيون ، وأدركت الأذهان ما يقوم به هذا النوع من الخدمة الدبلوماسية فى المجالات السياسية ، وفى الأزمات الدولية ، تغيرت النظرة نحو وزارة الخارجية ، ونحو الموظفين الدبلوماسيين ، وأصبحت الحكومات أكثر جرأة فى مناقشة موضوع الاعتمادات المطلوب فتحها

لوزارة الخارجية ، لتحسين مرتبات موظفيها في مختلف البعثات الدبلوماسية ، كما أصبحت الأحزاب ، المؤيد منها والمعارض ، أكثر استجابة للحديث في تعديل ميزانية وزارة الخارجية . هذا الوعي والإدراك ، ران على الأذهان واقتنعت به السلطات التنفيذية والتشريعية ، في عام ١٩٤٧ وما أتى بعدها من سنوات .

والمعنى المستخلص من هذا ، أننا ظللنا منذ عام ١٩٢٤ حتى عام ١٩٤٧ نعتمد على دخول خاصة ، تعهد أولياء أمورنا في بداية عهدنا بالخدمة ، بمدنا منها بما يماثل المرتب ، تغطية للنفقات الضرورية ، كما سبق بيانه في مطلع هذه الذكريات . وكانت وزارات الخارجية في العواصم الأوربية الكبرى تعاني هذه العقلية في مطلع عملها وعهدها بالسلك الدبلوماسي ، الذي لم تكن تقبل في صفوفه إلا الموسرين ، إلى أن تدخلت البرلمانات بلسان نواب حملوا على حرمان طبقات غير قادرة ماليا ، وإن كانت كفاءاتها كسباً لا يصح تنحيته أو إغفاله ، حتى نجحت حملتهم .

وكنت وزميلي نائب القنصل العام ، نغادر المنزل مشياً على الأقدام في طريقنا إلى دار القنصلية . ثم نعود سيراً كذلك بعد انتهاء العمل . ويتكرر هذا ( الطابور ) بعد الظهر . وكان الشارع الذي نقطعه يكاد يكون واقفاً لا مستويا ، وهو منظر مألوف في القدس التي تنتشر بها هضاب أقيمت فوقها المباني والطرق . وكان أكثر ما يضايق زميلي — وهو ممن يلبسون النظارات — سقوط رذاذ في بعض فصول السنة في القدس على زجاج نظارته ، بحيث يتعذر معه أن يسير دون أن يستند إلى ذراعي . وكنت أقول له ترفيهاً عما نحن فيه من عنت وعناء ، إننا مادمنا لانملك سيارة ، والرذاذ يحول دون رؤيتك الطريق عندما يسقط على زجاج نظارتك ، فإذا لو أننا سجلنا اختراعاً لنظارة تعمل وقت المطر بإضافة ماسح الزجاج الذي نراه في السيارات ، عند سقوط

الرذاذ ، ثم يتم فصله بعد صفاء الجو ، وذلك بالاستعانة ببطارية توضع فى الجيب العلوى للجاكيت . .

وكان يمضى علينا الشهر تلو الشهر دون أن نركب شيئاً غير أقدامنا . فلم يكن يوجد بالقدس من التاكسات سوى محلات خدمة ثلاثة يملك أصحابها بضعة سيارات ، يبعثون بها لمن يريد بالطلب التليفونى . ولا وجود لعربات الخيل . ولم يكن مما يليق بمراكزنا أن نتسلق الأوتوبيسات . ومضينا نمشى صبحاً ومساء وبكرة وعشيا ، سنة بعد أخرى ، حتى إننى قلت لزميلى الكريم فى العمل والسكن والطابور ، إننا إذا طال بنا العهد هنا على هذه الصورة ، فسوف نصبح دبلوماشيين ، لا دبلوماسيين .

وكنا إذا ضاقت بنا الموارد ، نفكر فى إيجاد مخرج ، ثم نعود مغلوبين على أمرنا . وفجأة قال لى زميلى ، ماذا لو أننا تحدثنا مع الصديق أحمد حلمى باشا مدير بنك الأمة العربية (أصبح فيما بعد رئيساً لحكومة فلسطين) فى أمر منحك قرضاً بضمانة مرتبك المحول على البنك ، وبضمانتى ، ثم نقتسم مبلغ القرض الذى يمثل ثلاثة أشهر من مرتبك . حتى إذا انتهت الأقساط ، تقدمت بعدك فى طلب قرض لى بضمانة مرتبى وضمانك الشخصى ، وهكذا دواليك ، حتى يقضى الله أمراً أو يرث الأرض وما عليها من ديون . وفى الحال قمنا بهذه العملية الناجحة التى كللها مدير البنك بموافقته . وعندما تكررت المسألة فهم المدير هذه اللعبة ، وإذا به يبادرنا ذات يوم من أيام القروض بقوله ضاحكاً : « خذونى بالله معكم فى ها الشركة » .

بعد شهور قمت بإجازة إلى القاهرة ، وعدت منها متزوجاً بدون مقدمات أو ترصد أو سبق إصرار . وقد عدنا بطريق البحر ، وهبطنا ميناء يافا . . ولم يكن آنذاك معداً لاستقبال البواخر الكبيرة كالباخرة حلوان التى أبحرنا عليها . ومن يافا قطعنا المسافة إلى القدس

بين بساتين البرتقال على مدى ما يقرب من ثلاث ساعات بالسيارة . وكان الأرج الذى ينبعث من البرتقال عند تفتح أزهاره طيب الشذى ، ينعش عبيره الروح ويدغدغ الحواس .

تركت سكن زميلى ونزلت مع زوجتى بفندق ألمانى ، لحين العثور على مسكن. وقد تم ذلك وشيكا وانتقلنا إلى سكننا الجديد لأبدأ حياة جديدة ، خالية من فوضى حياة العازب واستخفافه بالشئون المالية وتواكله فى أى أمر ، حيث لا يحس أنه مسئول عن أى أحد سواه . إلا أن بعض ذيول وجيوب ديون من حياتى الأولى ، كان لا بد أن يمضى بعض الوقت لقطعها أو سدها . من ذلك أننى كنت ما أزال مديناً ببعض أقساط للترزى والبقال ولمحل جرامافونات وأسطوانات ومكتب تأجير السيارات وترزى القمصان ، والبيجامات ومكتبة . وكنت إذا خرجت مع زوجتى — ولم يكن فى القدس سوى شارع رئيسى واحد ، تقع فيه على الجانبين محلات كل هؤلاء الدائنين — أقول إذا ماخرجنا للذهاب إلى السينما ، كنت أسير فى خط لولبى أرسمه بمهارة لا تخيب لأتجنب وقوع نظر الدائن على شخصى . فكنت أنثنى تارة إلى الرصيف الأيمن وتارة إلى الأيسر . ويتكرر هذا المشهد مرات بعدد من ذكرت وكانت هذه المحلات ، كالشعب المرجانية التى يتجنب الربان الماهر الاصطدام بها . وقد احتارت زوجتى فى تفسير هذا السير اللولبى الذى كانت تسايرنى فيه . وما زالت بى حتى اعترفت لها بالحقيقة . ولم يمض على ذلك سوى بضعة شهور ، وبفضل النظام المنزلى الدقيق ، حتى اعتدل ميزان المدفوعات ، وتيسر لى أن أسير فى خط مستقيم ، بعد حياة حافلة بالأزمات ، شعارها : ولك الساعة التى أنت فيها .

* * *

صدرت حركة دبلوماسية شملت نائب القنصل العام وزميلى السابق [illegible] ، بالنقل إلى القاهرة للعمل بالديوان العام بالوزارة

كذلك تناولت الحركة نقل القنصل العام ، وتعيين قنصل جديد تفاءلت خيراً بوصوله إلى القدس فى وقت كانت الحالة السياسية فى فلسطين تفور وتمور . كان ذلك يوافق نهاية عام ١٩٣٥ . وكنت أعلم مدى تعلق القنصل الجديد بالعمل السياسى وبالقضية العربية ، مما كان ينشره فى مجلات كنت مشتركاً فيها آنذاك .

تفاءلت خيراً لأن الحالة كانت تقتضى من مصر مراقبة الأحوال فى فلسطين قبل أن تستفحل إلى ما وصلت إليه فيما بعد ذلك . وكان يتحتم أن يكون هناك رئيس للهيئة القنصلية ، مدرك للأوضاع القائمة ، ومتنبه لما يمكن أن تنقلب إليه ، ليوالى الوزارة بانطباعاته عن الموقف فى تقارير وافية ، ترى فيها الوزارة الحالة كما يصورها ، لا الاقتصار على منح جوازات سفر مصرية أو تجديدها ومنح تأشيرات دخول أو مرور ومحاضر ترحيل المصريين المعوزين وإصدار شهادات مواليد ووفيات وزواج وطلاق وحصر تركات المتوفين ، إلى آخر هذه الأعمال الإدارية .

لقد تحوّل العمل بالقنصلية . عند وصوله إلى شقين : شق إدارى ترك لنا تنفيذه تحت إشرافه ، بعد أن اطمأن إلى قدرتنا وتمرسنا به ، وشق سياسى أمسك بخيوطه بين يديه بوعى واقتدار .

لقد كتب عام ١٩٣٥ عقب وصوله بفترة وجيزة يقول : « إن الحركة الصهيونية التى ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى ( ١٩١٤ — ١٩١٨ ) ، بقصد إنشاء وطن قومى لليهود ، لا يقصد منها ، كما يفهم سليمو النية من أهل مصر ، أن هدفها هو رفع الحيف عن شعب مظلوم ، وجمع شتات اليهود المشردين لينعموا فى فلسطين بما حرموه فى غيرها من البلاد ، إنما هى حركة أعمق وأبعد أثراً مما نظن ونعتقد ، وأن أخطارها لن تقف عند فلسطين بل ستغمر بلاداً أخرى ، وستؤثر فى حياة هذا الشرق العربى ومستقبله تأثيراً هائلا محاطاً بالأخطار والمتاعب

لنا ، نشر ذلك عام ١٩٣٥* .

وكتب فى موضع آخر يقول : « إن الشرق العربى الذى عاش مدة من الزمن تتجاذبه السياسات والأهواء المختلفة نتيجة لتنازع الدول الكبرى ، والذى استمر أهله قانعين بالسير على خطوات الحضارات الزراعية البطيئة ، والاكتفاء بالقليل ، قد ووجه بحقيقة جديدة ، هى ظهور الصناعة الآلية المعتمدة على العلم والمال ، والتى تدعمها هجرة مستمرة من العمال المتفوقين فى كافة الصناعات . إن مجىء الصهيونية لتستعمر بلاد العرب ، كان بمثابة هزة عنيفة لهذا الشرق النائم ، فهل هى تكفى لإيقاظه من سباته ، حتى يقف ويستعد لمواجهة هذا الخطر الجديد ليدفعه بالقوة التى تتفق مع تاريخه القديم ، وأثره فى قيادة هذا العالم ! » وقد نشر هذا عام ١٩٣٦ .

على أن هذه الصرخات لم تكن كافية للتنبيه إلى ما أشار إليه لأسباب داخلية . ففى فلسطين كان النظام الحزبى فيها يقوم على أساس إقطاعى أسرى . وكان بها عام ١٩٣٥ خمسة أحزاب فى بلد صغير مثل فلسطين ، هى : الحزب العربى وتمثله أسرة الحسينى ؛ وحزب الدفاع وتمثله أسرة النشاشيبى وطوقان ، وحزب الإصلاح وتمثله أسرة الخالدى ، وحزب الاستقلال وتمثله أسرة عبد الهادى وحزب آخر تتزعمه أسرة التميمى .

ونشطت الصهيونية فى ذلك الحين نشاطاً ساعد على رسوخ أقدامه ، ماران على الدوائر العربية من سبات ، مقابل يقظة الوكالة اليهودية ، حتى لقد حضرت شخصيات عربية ممثلة عن بلادها حفل افتتاح الجامعة العبرية فى القدس عام ١٩٢١ ، كما كانت المنظمة الصهيونية

---

* صاحب هذه الكتابات هو الأستاذ أحمد رمزى المؤرخ المحقق والسفير السابق لمصر فى روما وأنقرة وبلجيكا عندما كان قنصلا فى فلسطين وشرق الأردن عامى ١٩٣٥–١٩٣٦ .

تنشئ لها مكاتب فى عواصم مختلفة من بينها القاهرة عام ١٩٢٠ ، دون أن يفطن أحد إلى خطورة أهدافها وعواقبها الجسيمة البعيدة المدى.

على أن عرب فلسطين قاموا بثوراتهم ابتداء من عام ١٩٢٠ احتجاجاً على تنفيذ وعد بلفور وعواقب هذا التنفيذ على كيانهم. ثم عام ١٩٢١ ، ثم عام ١٩٢٩ عندما رأوا اليهود يرفعون علمهم عند حائط المبكى ، كما قامت فى البلاد العربية مظاهرات تأييداً لمطالب عرب فلسطين. وكان هذا العام ١٩٢٩ هو بدء الجهاد الفلسطينى المنظم.

وقد أرسلت بريطانيا لجنة لتحقيق أسباب اضطرابات عام ١٩٢٩ برياسة مستر شو. فاستمعت للعرب ولليهود ، ووضعت تقريراً ضمنته تحقيقها الذى أسفر عن أن أسباب ثوارت العرب ناجمة عن خوفهم على حقوقهم ومطالبهم السياسية والقومية وعلى وضعهم الاقتصادى الذى يهدده ذلك الشراء المجنون للأراضى الفلسطينية المملوكة لغير الفلسطينيين أو لفلسطينيين بمختلف وسائل الإغراء ومساعدة حكومة الانتداب على إتمام هذه الصفقات. واقترحت على الحكومة البريطانية أن تصدر بياناً واضحاً عن سياستها فى فلسطين ، يراعى بدقة ما ورد فى صك الانتداب عن حقوق غير اليهود فى فلسطين ، كما أشار التقرير إلى ضرورة مراقبة موضوعى الأراضى والهجرة بيقظة وانتباه.

على أن تلك التوصيات لم يكتب لها أى نجاح ، الأمر الذى حمل العرب على الاتحاد وتكوين اللجنة العربية العليا بعد أن كانوا أحزاباً كما قدمنا ، وقاموا بثورتهم الكبرى عام ١٩٣٦ ، وقرروا الإضراب العام الذى استمر ما يقرب من العام إلى أن تدخل الساسة العرب. وعملا بما أشارت به حكومات العراق والعربية السعودية والأردن ، توقف الإضراب الذى قيل إنه جاوز فى مدته إضرابات إيرلندا على عهد ديفاليرا للمطالبة بالانفصال عن بريطانيا حتى تم لها الاعتراف من إنجلترا باستقلالها عام ١٩٢١.

وقد طلبت القنصلية من الدائرة المختصة فى حكومة الانتداب ، مد أعضائها ببنادق للدفاع عن أنفسنا ضد الإسرائيليين ، باعتبارنا من أكثر الفئات موالاة للثورة وتأييداً لها وقد نكون عرضة للاعتداء علينا . وقد أمدتنا سلطة الانتداب بالبنادق المطلوبة ، وكان القنصل الصديق يقوم بعمل تدريبات صباحية لنا على استعمال البنادق لسبق إلمامه بهذه الشئون التى مارسها فى مستهل حياته فى زيوريخ . وعندما عاين القنصل ذخيرة البنادق تبين أنها فاسدة ، وقد تم تغييرها كطلبه .

وعاصرنا كذلك محاكمات العرب الذين كان يضبط معهم سلاح ، بعد أن صدر أمر سلطة الانتداب بتسليمه . كانت الأحكام تصدر وبعضها بالإعدام وكنت أسكن فى مواجهة إحدى هذه المحاكم . ولم تستطع الأيام أن تستل من ذاكرتى منظر هؤلاء المجاهدين الذين كانوا يتلقون الحكم بشجاعة وإيمان بحسن ما صنعوه فى الدنيا وما ينتظرهم من ثواب الآخرة . ولم أسمع أو أشاهد محاكمة واحدة ليهودى ضبط معه سلاح . بل كانت كل المحاكمات تجرى ضد العرب لكسر شوكة حركتهم — رغم ضعف إمكانياتهم — التى كانت تستهدف القضاء على مؤامرة استيطان اليهود بالسماح لأفواجهم بالدخول بلا رابط أو عهد أو قانون . فلم يكن يزيد تعداد اليهود قبل الانتداب عن ثمانين ألف نسمة ، ارتفع بفضل معاونة سلطة الانتداب لاستيطان اليهود القادمين من أوربا وأمريكا والشرق ، إلى ١,٢٠٠,٠٠٠ نسمة عام ١٩٣٦ .

وفى نهاية هذا العام أرسلت بريطانيا لجنة أخرى للتحقيق برياسة بيل . وكان تقريرها الذى نشرته فى ٧ — ٧ — ١٩٣٧ ، يشير إلى أن العرب فى كل ثوراتهم منذ عام ١٩٢٠ كانوا مدفوعين بخوفهم من قيام الوطن القومى اليهودى الذى أشار به وعد بلفور ، وريبتهم فى تصرفات سلطة الانتداب ، ورغبة العرب فى الاستقلال . واعترفت اللجنة بوجود تعارض بين الوعود التى بذلت لليهود وأجيبت بسخاء ، والتى بذلت

للعرب بدون تحقيق شيء منها . وانطلاقاً من هذه الأبحاث التى قامت بها اللجنة ، والتحقيقات التى كشفت لها عن أسباب الثورات أوصت اللجنة بانتهاء الانتداب وتقسيم فلسطين .

وقد رفض العرب التقرير وتوصياته والتقسيم الذى لم يكن عادلا ، بل تعمد إعطاء إسرائيل الأرض المتزرعة والساحل وترك العرب فى الصحراء مع بعض أراض زراعية لا تكفى السكان . وطالبوا بالاستقلال التام . أما الصهيونيون و باقى اليهود من السكان فقد انقسموا شيعاً . فقد طالب غير الصهيونيين بعقد مؤتمر عربى يهودى لإنشاء دولة موحدة على أساس تصريح بلفور .

وأصدرت الحكومة البريطانية بلاغاً عن هذا التقرير . مؤداه أنه بالنظر إلى الصعوبات الإدارية والسياسية والمالية التى يمكن أن تظهر نتيجة للتقسيم ، ترى الحكومة أن يجتمع العرب واليهود بها فى لندن فى المؤتمر الذى عرف بمؤتمر المائدة المستديرة فى ٧ — ٢ — ١٩٣٩ ، حيث طالت فيه المناقشات بدون نتيجة وانتهى بالإخفاق ، عندما توقفت أعمال المؤتمر بسبب قيام الحرب العالمية الثانية .

وقد وقع ما كان يحذر منه عام ١٩٤٨ التى ما تزال أحداثها عالقة بالأذهان ، غنية عن التذكير بها .

والأمر الذى لا شك فيه ، أن مصر قبل قيام ثورة يولية ١٩٥٢ ، لم تكن لها سياسة عربية . أو آسيوية أو أفريقية ، منذ أن كانت يدها مغلولة بحكم الاستعمار حتى عام ١٩٣٦ ، ثم بحكم السياسة الحزبية التى قيدت خطواتها وحصرت جهودها فى السعى وراء كرسى الحكم فيما جاء بعد ذلك من سنوات حتى قيام الثورة ، وانطلاق مصر بعدها إلى الآفاق العربية التى تربطها بها أشد الأواصر ، وهى عليمة بأن الأمر لا يقتصر على فلسطين بل إن البلاد العربية كلها تقع فى دائرة أطماع الصهيونية . كما انطلقت إلى أفريقيا التى دبت فى

أوصالها شرارة ثورة مصر ، فقامت تطالب باستقلالها الذى حصلت عليه دولة بعد دولة . وقد صدق ( شاتو بريان ) عندما قال إن الثورات كالأنهر ، دائماً ما تفيض على جانبيها . ولم يبق من دول أفريقيا إلا قلة هى فى طريقها إلى الاستقلال .

ورمت مصر بعد عام ١٩٥٢ ببصرها إلى قارة آسيا ، فرأت أنها تمثل قطعة منها فى جناحها الشرقى ، ورأت أن ارتباطها بدول مثل الهند وإيران والأفغان والباكستان والصين وإندونيسيا ، وبحضارة هذه الدول العريقة مثلها فى المدنية ، أجدى على الطرفين وأجلب للنفع لهما فى المجالات الدولية وفى المجالات الاقتصادية التى دعمتها بعد اتصالها بها بالاتفاقيات الاقتصادية والثقافية التى أثمرت وطاب جناها .

برغم أننى كنت فى هذه الفترة مثقلا بالعمل وبالقلق وبتوقع الاغتيال فى الطريق فى أى لحظة ، إلا أننى أطلقت الهواية القراءة التى تجذبنى إليها العنان لأدفع عنى الملل والقلق والاضطراب النفسى والمصير الحائر ، والإشفاق على نهاية شعب تبدت للعين بداية مآله المظلم على يد الاستعمار الغربى الإمبريالى والخطر الصهيونى الذى يدب كأخطر الأمراض ضراوة فى جسم الأمة العربية . وكانت فترة إقامتى فى فلسطين مدرسة تلقيت فيها تجارب ودروساً عديدة ، جنيت ثمرها بعد حين .

ثم تظهر حركة دبلوماسية تشمل هذا القنصل الصديق بالنقل إلى منصب فى أوربا لم يكن راغباً فيه . ويعين مكانه القنصل العام الذى كان قبله فى العمل والذى عملت معه فترة من الوقت ، بعد أن طالت إقامتى وامتدت حتى بلغت من السنوات خمساً .

وفى إحدى المرات التى كنت فيها بالقاهرة فى إجازة ، قصدت الوزارة لترى رأياً فى نقلى بعد هذه المدة الطويلة التى عانيت فيها كل هذه الإضرابات والاضطرابات والقلق وسوء المصير . وفى معرض حديثى —

قلت لمحدثى ، وكان ثانى كبيرين من المسئولين فى الوزارة ، إنه لم يحدث لأى موظف دبلوماسى فى أى جهة من الجهات أن يعمل مع رئيس بعثة ، ثم ينتقل ليحل محله رئيس آخر ثم ينتقل هذا الثانى ليحل الأول محله إلا أن يكون هذا الموظف ساعيا أو حاجباً أو بواباً . وقد طمأننى ووعدنى خيراً فى حركة قادمة .

وبعد شهور من عودتى إلى مقر عملى بالقدس ، صدرت حركة دبلوماسية شملتنى بالنقل إلى ميلانو نائباً للقنصل العام بها . وكنت عندما تلقيت النبأ ألهج مع من قال :

اشتدى أزمة تنفرجى قد آذن ليلك بالبلج .

* * *

## الفصل الرابع

### فى ميلانو :

أبحرنا من الإسكندرية على الباخرة الأنيقة ( اسبيريا ) يوم ٢٩ من أكتوبر عام ١٩٣٨ . وكانت زوجتى قد تزودت بدروس فى اللغة الإيطالية ، فى إحدى المدارس بالقدس ( ساليزيان ) ، ولحقت بها بدورى عندما استقر بنا المقام فى ميلانو . ففى يقينى أن الغريب الذى يهبط بلداً لا يعرف لغة قومه ، يعيش كالمزكوم الذى لا يهنأ بطعام أو شراب أو شميم أو نعيم مما يراه ، ولا يكاد يبين له منه إلا ظاهره ، وهيهات أن يغنى الوتر عن الصوت الرخيم .

كانت الرحلة بالبحر تستغرق خمسة أيام إلى جنوا . وكان الشوق للعيش فى إيطاليا زمناً ، يستبد بى بعد أن رأيت منها ثغريها ، جنوا ونابولى عند عودتى من أمريكا .

كانت إيطاليا فى الوقت الذى قصدتها فيه ، سنة ١٩٣٨ ، ملكية وحكومتها فاشستية ، تدين بهذا المذهب الذى نظمه وتزعمه صحفى وجندى قديم ، هو ( بنيتو موسولينى ) ، وهو ابن حداد من قرية من قرى إقليم ( فورلى ) . وقد تلقى تربية ابتدائية متواضعة ، واشتغل فترة حداداً فى حانوت أبيه ، ثم معلماً وعاملا وصحفياً فى جريدة ( بوبولو ديتاليا ) التى تصدر فى ميلانو . كان قد ورث عن أبيه حب المبادئ الثورية الاشتراكية . ففى عام ١٩١٠ أنشأ فى ( فورلى ) صحيفة أسبوعية اشتراكية باسم ( نضال الطبقات ) .وسجن مراراً من أجل كتاباته المتطرفة فى صحيفته . ولما انتهت الحرب العالمية الأولى وبدأت الاضطرابات الاشتراكية تغمر إيطاليا ، عكف على تنظيم حركة لمقاومة الثورة ، وساعدته الظروف القائمة يومئذ على حشد جماعات كبيرة من الأنصار . وفى مارس عام ١٩١٩ أنشأ الهيئة الفاشستية وفى أواخر عام ١٩٢٢ عقد الفاشستيون اجتماعاً كبيراً فى نابولى ، وسارت بهم جموع كبيرة مسلحة إلى روما ، وأحاطت بها وهو ماسمى بالزحف إلى روما La marcia su Roma . وعندئذ بادر الملك ( فكتور إيمانويل ) بإقالة وزارة سنيير ( فاكتا ) ، التى كانت قائمة ، واستدعى موسولينى وكلفه بتأليف الوزارة الفاشستية ، وكان ذلك فى ١٠ أكتوبر عام ١٩٢٢ .

وترى الفاشستية أن الحرية ليست حقاً مطلقاً للفرد ، ليعمل ويتصرف وفق مشيئته . وكان لموسولينى فى ذلك قول معروف ، يتلخص فى أنه يوجد نوع من الحرية لأوقات الحرب ، ونوع آخر لأوقات السلم ، وثالث لأوقات الثورة ، ورابع للأوقات العادية ، ونوع من الحريات لأوقات الرخاء ، وآخر لأوقات الشدة والأزمات .

ولم تنل إيطاليا قبل قيام الفاشستية ، ومنذ القرن الثامن عشر ، مركزاً مرموقاً بين الدول ، وهيبة تجبر الكثيرين على احترام وزنها والطمع فى

صداقتها ، كمركزها آنذاك . فلقد تميزت فترة الحكم الفاشستى بكثرة عدد المعاهدات والاتفاقيات السياسية وغيرها ، التى أبرمت مع مختلف الدول حتى لقد بلغت فى إحصاء بعض المراقبين ، تسعاً وعشرين معاهدة واتفاقية .

وقد يكون أهمها من حيث الأثر والقدر ، معاهدة ( لاتران ) التى غلبت عليها تسمية (كونكورداتو ) ، وهو ما يبرم مع الفاتيكان من اتفاقيات ومعاهدات . وقد أتيح لحكومة موسولينى عقد هذه المعاهدة عام ١٩٢٩ . و بها تحددت ساطة البابا الزمنية ، كما تحددت ممتلكات الفاتيكان فى روما التى منها بعض الكنائس ، ومصيف البابا ومقره الصيفى بالقرب من روما ( كاستل جوند ولفو ) . وكان لهذه المعاهدة أثر امتد إلى النواحى المدنية فيما يختص بممتلكات الفاتيكان فى روما ودفع تعويضات عنها ، كما امتد أثرها إلى الأحوال الشخصية ، عند تناولها عدم جواز توقيع الطلاق بين الكاثوليك من الإيطاليين فى كل الأراضى الإيطالية .

وتعتبر ميلانو مركزاً للصناعات الكيمائية والدوائية ( كارلو إربا ) كما تضم مصانع للكاوتشوك أشهرها ( بيريللى ) ومصانع لنسيج الحرير ، وسيارات ( إيزوتافراسكينى ) .

وقمت بعمل القنصل العام .

وتعاقب على القنصلية العامة من بعد ذلك قنصلان عامان ، سعدت بالفترة الرجيزة التى أمضاها كل منهما فى ميلانو . فقد كانا من الرعيل الأول من الدبلوماسيين الذين بعثت بهم وزارة الخارجية المصرية عند إنشائها إلى باريس ، لتحصيل العلوم السياسية والاقتصادية . فكانت رقعة الفهم تتسع أمام ما يرون ، ويمتد مدى الاستنتاج لما يشاهدون ، وتزيد قدرتهم على البصر فى ظلام الأحداث ، بدون أن ينبهم عليهم أمر أو يفوتهم الحس بما حولهم من غوامض المسائل .

لقد كانت إقامة كل منهما وجيزة إلى حد أنهما لم يتركا من الأثر إلا ما تتركه الفراشة على براعم الأزهار . وقد رؤى الانتفاع بهما فى مواقع أهم ، فى السفارات ، فى عام ١٩٣٩ ، الذى كانت أوربا تغلى فيه وتمور ، بفورات الحماس النازى المتقد ، والصراخ الفاشستى المدوى ، وبتنازع الإيديولوجيات وتفكك الروابط فى المجتمع الدولى .

وهكذا أتيح لى أن أبقى للقيام بعمل القنصل العام فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ أوربا ، حيث كانت خطابات الدوتشى فى روما حيناً وفى ميلانو أحياناً تهدد أمن أوربا وتعرض العالم لنكبات حرب عالمية ثانية . أما خطوات هتلر . لا خطبه ، فقد كانت أسرع إلى إنذار العالم بعواقب يوم عصيب .

* * *

ماذا أذكر وماذا أدع ، وماذا أقول وماذا أترك ، من هذه الكنوز الفنية والأثرية والمعمارية والجمالية والموسيقية ، فى البناء والمعمار القديم والحديث والطرق والحدائق والبحيرات والمسارح والملاهى ، مما تضمه ميلانو وما حولها من بحيرات ومدن مصايف وضواحى للرياضة مثل ضاحية ( مونزا ) التى اشتهرت عالمياً بسباق الدراجات وسباق الخيل وسباق السيارات .

أما التحف الفنية من تماثيل وصور إلى نحت إلى مطروقات ، فإنك تجدها بوفرة فى المتاحف والجاليرى القديم والحديث .

أما الكنوز الموسيقية فإنك تنعم بما تقدمه الأوبرا (سكالا ) والمسارح العديدة التراجيدية والكوميدية والاستعراضية ، وقاعات الموسيقى التى تقدم القديم والحديث من الغناء والموسيقى . أما ( أوبرا سكالا ) فإنها تقف على رأس هذه المسارح جميعاً . بما تقدمه من روائع أوبرات : فيردى وبوتشينى ، وروسينى وجواردانو ، ودوتيزيتى ، وبيتهوفن ، وفاجنر ، وباخ وشوبان ، وموتزار ، وليست ، وموديست مسورجسكى ، واسكندر بورودين

صاحب أوبرا ( الأمير إيجور ) وبيزيه صاحب أوبرا حلاّق اشبيلية .

ولموسمها بداية ونهاية ، يحرص كثير من ذواقى الأوبرات الميلودى الإيطالية من مختلف دول أوربا ، على حضور هذا الموسم ، كما لو كان حجاً له مراسمه ووقته المعلوم وأيامه المعدودات .

أما الكنوز المعمارية فإنك تراها فى القديم والحديث من المبانى على حد سواء . فمن القديم ، تمتع عينيك برؤية كاتدرائية ميلانو التى تراها فى ضباب ميلانو الذى تشتهر به فتظنها قطعة من الدانتيل الرقيق الدقيق ، من فرط ما روعى من إتقان فى البناء والتماثيل والزجاج والأعمدة والفناء والأبراج والصور التى قام برسمها كبار الفنانين . وتضم الكاتدرائية ألفى تمثال من المرمر النادر .

كما تمتع العين بمرأى مبنى جاليرى الدومو ، ومبنى البلدية والأوبرا ومحطة سكة حديد ميلانو والفنادق القديمة والحديثة ومبانى العمارات وفيلات الضواحى فى الريف وحول البحيرات وحدائقها الرحبة التى تمتلئ بأروع التماثيل .

ولمطاعمها شهرة عالمية ، سواء ما كان منها داخل المدينة أو فى ضواحيها أو على شطآن بحيراتها المرحة اللعوب .

كما أن لبحيراتها شهرة تجذب إليها السائحين من أمريكا وأوربا . ومن أشهرها ( لا جو ماجورى ) ، ( لا جو دى جاردا ) ، ( لا جو دى كومو ) التى تقع على شاطئها قرية ( شرنوبى ) حيث كان يجتمع فى فندقها الكبير خلال عام ١٩٣٩ سفراء اليابان وألمانيا ووكيل وزارة الخارجية الإيطالية عند بحث انضمام اليابان للمحور . وتقع بحيرة ( ماجورى ) بين إيطاليا وسويسرا . وتبلغ مساحتها ٢١٢ كيلو متراً مربعاً وفى وسطها تقوم جزيرة ( بورومى ) بقصرها الذى نزل به نابليون بونابرت فى إحدى زياراته لشمال إيطاليا .

كذلك تقع على شاطئها السويسرى ، مدينة ( لوجانو ) السياحية الشهيرة التى يتحدثون فيها اللغة الإيطالية . وكنا نزور هذه المدينة الفاتنة فى الحين بعد الحين لنقضى بها أمتع ما يطمع المرء فى بلوغه . فهى مما لا يشبع منها أو يكتفى بقضاء العمر فيها . وهى برغم صغرها من حيث المساحة والسكان ، إلا أنها كانت تعتبر ( مينياتير ) ، أو مصغراً لأكبر المدن . فهى تحوى كل ما تحويه أى مدينة من مرافق وطرق ومسارح وملاه ومنتديات وحدائق ومحلات تجارية أنيقة ومطاعم ومقاه وشواطئ للرياضة البحرية ، ومواصلات تبدو جميعها فى حال من النظافة والنظام ، حتى لتظن أنها ستدخل مسابقة للجمال راحت تتهيأ لها بكل هذا الحسن ، وبلمسات رائعة من الفتنة والرواء .

كل هذه الجنات ، كان الوصول إليها فى ساعات لا تتجاوز الثلاث ، لأبعدها عن ميلانو . كما كان ما بها من أماكن للإقامة يصلح لكل الجيوب . أما النظافة والنظام والانتقال وجمال الطرق والأسعار المحددة ، فقد كانت عنواناً وشاهداً على مبلغ ما حققه النظام الفاشستى لإيطاليا فى هذه النواحى السياحية والدعائية لإيطاليا فى الخارج وهو أمر كان يحرص عليه هذا النظام حرصاً لا يتهاون فيه .

لم نترك ناحية من هذه النواحى دون أن نقضى بها عند زيارتها ساعات أو أياماً حسبما تسمح الظروف والوقت . ولكننا كنا عند حلولنا بها ، ننعم بها نعيم الطائر الوجل ، الذى يحسو الماء من غدير رقراق أو جدول لعوب ، وعينه يشدها الحذر فلا تنفك تتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، حرصاً على حياتها من رصاص صياد من بنى البشر يترقب صيدها . فلقد كان العالم من حولنا فى تلك الفترة يرقص على فوهة بركان .

لم تكن الأحداث الدولية التى كانت ظروف أوربا قد هيأتها وأقامت مسرحها ، بهينة أو عادية فلقد كان التوازن المزعزع

الأساس ، الذى تم التوصل إليه فى فرساى بصورة عرضية ، يتأرجح على حافة الهاوية . وكأنما لم يكن كافياً استعادة ألمانيا لقدر كبير من قوتها المسلحة ، حتى تكسب إلى جانبه ، بالاستفتاء ، منطقة السار كما نجحت فى إعادة حوض الراين بضربة بارعة اهتزت لها دول أوربا التى عانت العسكرية الجرمانية . وكانت النمسا قد سقطت وتشيكوسلوفاكيا توشك أن تتداعى تحت وطأة القوة العسكرية لألمانيا فى ضغطها المستمر ، مبتدئة بحقوق الأقلية الألمانية فى السوديت .

وبدت فرنسا التى كانت تتظاهر بقوة غير واقعية ، بعد أن كانت تعد الحارس الأول لآخر صورة من صور النظام فى أوربا ، بدت وكأنها تنحدر نحو أفول وشيك الوقوع .

أما بريطانيا التى كانت هى الأخرى ، لا تملك من القوة ماتدعيه فقد رضيت لنفسها أن تقوم بدور المراقب غير المنحاز .

ولم تعد أوربا بالصورة التى تصورها الخيال فى فرساى ، كمجتمع دولى ينشد أناشيد الهناء ويسبح بآيات الرضى ، فى كتلة متراصة متعاونة من الدول الديموقراطية . ولكن العكس هو الذى وقع ، عندما دب الخلاف وأصبحت أوربا قبل أن يمضى على الحرب العالمية الأولى عشرون عاماً ، معسكراً لدول متنافسة ، لا تجتمع على رأى ولا تصل إلى اتفاق .

وكان تفوق ألمانيا العسكرى ومسعاها فى الحصول على المركز الأقوى فى أوربا ، مما أيقظ مشاعر دول أوربا ، وحملها على أن تتخير الوسائل التى يمكن بمقتضاها الوقوف فى وجه ألمانيا النامية .

لقد شقى الغرب نتيجة تهاونه فى كبح جماح النازية والفاشستية قبل أن يستفحل أمرهما . فبرغم إدراكه لدعوتيهما الاشتراكية والفاشية فقد أغمض العين عن زلاتهما فى حقه وحق مبادئه ، حتى كبرا واستعصى على الغرب وقفهما عند حدهما ، منذ أن وجد فيهما سياجاً

طبيعياً يقف فى وجه الشيوعية . على أن وزير خارجية إيطاليا ( شيانو ) زوج ابنة موسولينى ، كان قاصراً فى قدرته على تصوره للسياسة الخارجية لإيطاليا كعمل متكامل ومتماسك فى مجموعه . فقد أبدى ذات مرة ملحوظة وشت بما كانت عليه إيطاليا آنذاك من موقف مزعزع ، وذلك عندما ذكر أن إحدى النتائج المرغوب فى التوصل إليها من وراء قيام نفوذ إيطالى فى شبه جزيرة البلقان ، هو تحقيق توازن من شأنه أن يقف فى وجه النفوذ الألمانى فى تلك المنطقة . على أن هذا الرأى لم يلبث أن ذاب فى حرارة أطماع زعماء الفاشستية ، كما تملكهم الخوف من نمو ألمانيا المخيف الذى قد يقضى عليها هى ذاتها إذا لم تواكبه فى مسيرته واندفاعه ، وبهذا وجدت إيطاليا نفسها فى معسكر هتلر ، رضى هتلر بذلك أو أبى ، فقد كان هذا ما انتهت إليه ، وما رسمه لها قدرها .

* * *

صرفت همى إلى المسائل الاقتصادية التى هى من صميم عمل القنصليات مكتفياً فى الناحية السياسية بمراقبة سير الأمور التى كانت البوادر والنذر تقطع بأن التلاحم بين المعسكرين المتصارعين ، وشيك الوقوع . وكنت إذا كتبت للوزارة شيئاً من ذلك ، مع يقينى بأن ما أكتبه إنما هو تعبير وانعكاس لمشاعر رجال الأعمال والمولين للمصانع فى ميلانو وما يرونه فى سياسة إيطاليا المندفعة نحو الدمار أقول إن مثل هذه الكتابة لم يكن يرتاح إليها سفيرنا فى روما ، معقباً بأن اختصاصى لايتجاوز المسائل الاقتصادية والقنصلية ، برغم قربى من مواطن الأحداث فى ميلانو ورحت أوالى الوزارة بتقارير اقتصادية دورية . وكنت أهتم بمراقبة عدم بيع إيطاليا لأقطاننا المصرية لطرف ثالث ، وبخاصة إذا كان هذا الطرف ألمانيا أو اليابان . كما كنت أراقب الميزان التجارى بين البلدين وأكتب ملاحظاتى من واقع

ما تنشره الجهات الرسمية الإيطالية عن تجارتها الخارجية . ولم يكن فى بعثاتنا الدبلوماسية فى ذلك الحين ملاحق تجاريون ، فكانت القنصليات هى التى تقوم بأعمالهم آنذاك .

وكنت أحضر فى شهر إبريل من كل عام سوق ميلانو الدولى نائباً عن الحكومة المصرية ، للكتابة عن انطباعاتى وموافاة الوزارة بتقرير شامل عما أشاهده من تطور للصناعة والزراعة ومختلف المرافق الهامة .

وذات صباح تلقيت دعوة من مكتبة ( الأمبروزيانا ) التى تعد بين أولى المكتبات الوثائقية والمخطوطية فى العالم ، وقد تكون ثانى المكتبات فيما تضمه من كنوز العلم والمعرفة من كتب ومخطوطات ووثائق وخرائط ، أقول تلقيت دعوة المكتبة لمقابلة مديرها ، الذى يراعى دائماً فى اختياره أن يكون كاردينالا من المشهود لهم بسعة العلم والمعرفة وتعدد اللغات ، وكلهم على هذا المستوى ، مع تفاوت نسبى – للمباحثة فى مشروع تقوم به المكتبة تخليداً للفكر الإنسانى لمختلف الشعوب .

وفى حديثى مع نيافة الكاردينال ، الذى رشح فيما بعد للكرسى البابوى – وقد كان البابا بيو الثانى عشر ( ماركيزياتشيللى ) أحد الكاردينالات الذين تولوا رياسة هذه المكتبة – علمت أن الرأى استقر على إنشاء حديقة واسعة تقع وراء المكتبة ومبانيها ، وأن النية متجهة لإقامة تماثيل حول الحديقة لكبار المفكرين فى مختلف شعوب العالم ، الذين يمكن أن يمثلوا شعوبهم بدون اختلاف على أسمائهم . وضرب لى مثلا على ذلك ، بإشارته إلى أن اليونان فى استطاعتها أن تتقدم باسم سقراط أو أفلاطون ، وإنجلترا باسم فرانسيس بايكون أو تشارلز ديكنز ، وألمانيا باسم جيته أو هيجل ، وفرنسا باسم فولتير أو جان جاك روسو ، وأسبانيا باسم سرفانتيس ، وروسيا باسم

تورجنيف وتولستوى وديستويفسكى ، وإيطاليا تتقدم باسم شاعرها ( دانتى ) .

وبعد الحديث صحبنى إلى ممرات وقاعات وحجرات المكتبة لمشاهدة تحفها التى تجل عن الوصف ، والتى تعتبر سجلا لثمرات العقول على مر الدهور والسنين ، ونبراساً يهتدى به الذين ينشدون الوثوق مما يكتبون ويسطرون .

وقد وعدته بالكتابة للجهات المختصة بالقاهرة ، وموافاته بردها عند وصوله . قمت من فورى بالكتابة إلى الوزارة ، التى أحالت الأمر إلى وزارة المعارف ، والتى أجابت بسرعة غير معهودة ، بأن الاختيار وقع على الشاعر أبى العلاء المعرى الذى انعقد عليه الإجماع ليكون ممثلا للفكر العربى فى مختلف مراحله .

وعندما أبلغت هذا الرأى كتابة إلى نيافة الكاردينال مدير المكتبة ، طلب ملاقاتى ، فلبيت طلبه بسعادة غامرة ، لأحظى بهذا الفيض من العلم والإدراك والمعرفة العميقة . بادرنى بقوله إنه مع احترامه لرغبة مصر والدول العربية فيما تقدمت به من اقتراح إقامة تمثال لأبى العلاء المعرى ممثلا للفكر العربى ، إلا أن العالم العربى يزخر ويفيض بأسماء وشخصيات ، كان لها فى مضمار المعرفة والعلم الواسع شأن ودوى فى سمع الزمان ، وتركت على صفحات التاريخ بصمات لا تنمحى . ولا اعتراض لديه على أبى العلاء المعرى كفيلسوف وشاعر ومفكر . ولكنه ينظر إلى العالم — بسبب تشاؤمه — من زاوية واحدة ، حيث حجب عنه تشاؤمه جوانب فى الحياة لم يكن ليستطيع أن يحسها ، أو أنه إذا أدركها بحسه فإنه يحاول ألا يأبه بها ولا يحتفل لها . فقد ظل يئن طيلة ما عاش من سنين ، من عجزه عن قهر ما فى نفسه من حب الدنيا ، والتماس راحة اليأس منها والسلو عنها .

وراح محدثى يتدفق بغزارة علمه فى ذكر من يستطيعون فى رأيه

أن يمثلوا الفكر العربى فى أوج رقيه وسموقه وإشراقه .

هناك الفارابى الذى عالج الفلسفة والفلك والمنطق والهندسة والرياضيات والموسيقى ووضع كتباً فى كل هذه العلوم والفنون . وهو أول من وضع القواعد لدائرة المعارف ( انسايكلو بيديا ) ثم تبعته أوربا بموسوعاتها من بعده .

وهناك ابن رشد الذى قال عنه لورد بايكون بأنه فيلسوف متعمق متمكن ، صحح كثيراً من أغلاط الفكر الإنسانى وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة قيمة لايستغنى عنها .

وهناك ابن خلدون الذى قال عنه المؤرخ البريطانى المعاصر ( أرنولد توينبى ) « إن ابن خلدون فى – مقدمته – قد أدرك وتصور وأنشأ فلسفة التاريخ . وهو فى رأى كثير من الباحثين الأجلاء يتفوق على ميكيافيللى صاحب كتاب الأمير فى التفكير ونوع الإقناع ، وفى نظريات الأجناس وأعمار الدول وخواصها » وهو الذى قال عنه ( روبرت فلنت ) ، إنه لا العالم الكلاسيكى فى القرون القديمة ، ولا العالم المسيحى فى القرون الوسطى يستطيعان أن يقدما اسماً يضاهى فى لمعانه ابن خلدون .

لم أسعد فى حياتى بلقاء شخصية عالمة متزنة متواضعة مبرأة من الهوى ، تضاهى شخصية محدثى الجليل ، الذى ودعنى وكأنه كان يرى من وراء الغيب ، مصير اقتراحه ، الذى قامت الحرب الثانية لتطوى مثل هذه الومضات اللامعة ، وتوسدها النسيان .

لم أتلق على كتابى للوزارة رداً ، إذ أن الاستعدادات لما كانت تنذر به الأنباء ، قد غطت على كل شىء .

كانت سحب الحرب تتجمع فى سماء أوربا . وكان المسرح معداً للعمليات الحربية . وكانت إيطاليا فى حال من القلق لايخفف منه ماتبديه ألمانيا نحوها من صداقة لتبعدها عن بريطانيا . ففى ٦ مايو عام ١٩٣٩ ،

بعد مقابلة بين شيانو وربنتروب فى ميلانو ، صدر تصريح بتوقيع المحالفة الألمانية الإيطالية . وبرغم ذلك فقد كان كل من الطرفين لايطلع الآخر على نواياه .

كنا فى هذا الجو المشحون بالتوتر نعيش يوماً بيوم . وكانت الاستعدادات الحربية لإيطاليا تؤثر على المواد المتصلة بصناعة الحرب، وفى مقدمتها بالنسبة للمدنيين الفحم . فقد غدونا نقاسى وطأة البرد فى شتاء عام ١٩٤٠ بسبب الاقتصاد فى استعمال الفحم فى التدفئة المركزية فى المنازل والمكاتب . وكانت أوربا تعانى شتاء قارص البرد فى ذلك العام ، لم تشهد أوربا مثيلا له منذ عشرين عاماً . وكانت ميلانو تغطيها ملاءة بيضاء من الثلوج الهاطلة ليل نهار ، حتى بلغت درجة البرودة عشرين تحت الصفر وكانت ألمانيا تمد إيطاليا بالفحم عن طريق ممر برونر بعد أن ضرب الحلفاء حصاراً بحرياً على مايصل إيطاليا من مواد تتعلق بصناعة الحرب . وكانت بوارج الحلفاء تسيطر على الملاحة فى البحر الأبيض المتوسط سيطرة كاملة . وكانت إنجلترا وفرنسا وبلجيكا قد انقطعت منذ مدة عن بيع الفحم لإيطاليا التى كانت تعتبرها الطرف الآخر من محور برلين — روما .

وحل شهر رمضان من هذا العام فى الشتاء ولم أستطع أن أصوم هذا الشهر الكريم . إلا أن زوجتى أصرت على الصيام .

وكنت أتناول فى الصباح طعام الإفطار وحدى . ثم أتناول الغذاء وحدى . ثم تتناول زوجتى عند الغروب إفطارها وحدها . ثم أتناول أنا طعام العشاء وحدى . ثم تتناول هى طعام السحور وحدها .

وكانت الخادمة الإيطالية تلاحظ هذا الأمر وهى ذاهلة . ويوماً بعد يوم ، عسى أن تعود الحالة إلى مجراها ، كانت تنتظر على مضض بدون جدوى . وذات يوم ، وقد أقلقها ما نحن فيه ، حتى حديثنا باللغة العربية كانت تظنه عراكاً مهذباً ، ذهبت إلى السيدة زوجتى وقالت لها أراك غاضبة

من السنيور ، ومن أجل ذلك لاتتناولان الطعام معاً . وأنا لا أود لكما إلا الخير . وكلاكما حميد الخصال لاشدة فيه ولا اندفاع . أرجوك يا سيدتى أن تراجعى نفسك ، فالسنيور يبدو رجلا طيباً ووديعاً . ولما رأتنا نضحك من حديثها ونياتها الطيبة ، انزاح عن صدرها هم كبير ، وابتسمت راضية .

* * *

كل هذه النذر حملت وزارة خارجيتنا على أن تطلب إلى المتزوجين من أعضاء بعثاتها الدبلوماسية فى روما وخمس قنصليات فى مدن إيطالية ، إرسال زوجاتهم إلى القاهرة إلى أن تنجلى الأمور . وقمنا بالفعل بإرسال زوجاتنا إلى القاهرة وعلى ربان المركب الجديد بهذا الشرف ألا يتركها حتى يعمل على إنقاذ كل ركابها ، ثم يتولى بعد ذلك أمر نفسه ، نجاة أو غرقاً .

ومضت فترة والحالة تتأرجح بين حرب لا شك فيها ، وسلام مشكوك فى أمره . وظلت إيطاليا لا تدرك من تصرفات حليفتها شيئاً . وقد آثرت لذلك أن تتمهل وألا تندفع فى شطط ، وأن تتحرك فى عناية وحذر ، فلا منجاة لها من دخول الحرب ، ولكن الحكمة فى أن تدخلها وهى تلعب على الحصان الرابح .

أما ألمانيا فإنها بعد أن عقدت ميثاقاً مع موسكو فى ٢٩ أغسطس ١٩٣٩ ، وأمنت ظهرها ، قامت فى أول سبتمبر بالهجوم على بولونيا واجتاحتها فى أيام معدودة . وفى ٤ سبتمبر دخل الحلفاء الحرب ، التزاماً بمعاهدة بين فرنسا وبولونيا ، ولو قف الهجوم الألمانى ، إذا كان فى الإمكان وقف النار عن سريانها فى الهشيم .

وظلت إيطاليا على موقفها من الانتظار . ولم تعلن الحرب ، كما لم تعلن الحياد . ولم يعد ما يوجب بقاء زوجاتنا بمصر . وقد عدن فى ٤ نوفمبر عام ١٩٣٩ ، بعد أن اطمأن المسئولون فى مصر على أن إيطاليا قد لا تدخل الحرب ، ما دامت البداية كما رأت من انهيار جبهة الحلفاء . وليكن موقفها المؤيد بدون اشتراك فى العمليات الحربية . وكان هذا الموقف ، ترتاح إليه

ألمانيا ، حتى لا تحمل عبء الدفاع عن إيطاليا .

وكان هذا الموقف من إيطاليا ، يحظى بتأييد رجال المال والأعمال وأصحاب المصانع والشركات ، وطوائف عديدة من الشعب ، من غير الفاشست ، الذين يدركون مدى تعرض إيطاليا بدخولها الحرب ، للنكبات والأهوال . وبدأ الرأي العام ينقسم على نفسه ، ولولا خشية الحكم الفاشستى العاتى ، لما دخلت إيطاليا الحرب فيما بعد .

على أن الدوتشى الذى رأى انتصارات حليفته ألمانيا تجرى كما تجرى السكين فى الزبد ، خشى أن يفوته القطار ، وتفوته مغانم الحرب عند الانتصار الوشيك . وكان الفرقاء الثلاثة ، ألمانيا وإيطاليا واليابان قد وزعوا مقدماً أسلاب الحرب فيما بينهم . وقد رؤى أن تترك أوربا لألمانيا وأن تحتل إيطاليا الشمال الأفريقى كله ، بالإضافة إلى إمبراطوريتها التى ستتسع باحتلال مستعمرات فرنسا وإنجلترا فى إفريقيا . أما اليابان فإنها كانت ترى — وإن لم يكن ذلك من رأى ألمانيا — أنها الوريثة الطبيعية لأملاك بريطانيا فى الشرق الأقصى . وكان هذا التصور والأمل المنشود لليابان ، عند الانتصار ، هو الوازع والدافع الحقيقى لدخول الولايات المتحدة الحرب عام ١٩٤٢ الذى جاء حادث بيرل هاربور ذريعة مواتية .

فى شهر يونيه من عام ١٩٤٠ ، كانت جيوش الرايش الثالث قد اجتاحت أوربا ، فيما عدا الجزر البريطانية . ولم يكن بد من أن يدخل موسولينى الحرب ، رضى هتلر بذلك أو أبى . وكانت اليونان هى هدفه ، وقد ظنها لقمة سائغة ، ولكنها قاومت مقاومة الأبطال إلى أن دخلتها جيوش هتلر .

وعلى ذلك قرر الدوتشى الدخول فى الحرب ، وأعلن ذلك بعد خطاب حماسى طويل يوم ١٠ يونية عام ١٩٤٠ . وكانت فرنسا قد

سلمت يوم ١٨ يونية وأعلنت باريس مدينة مفتوحة . وكانت مصر لارتباطها بمعاهدة عام ١٩٣٦ مع بريطانيا قد انضمت إلى الحلفاء برغم أنها لا ناقة لها فى الحرب ولا جمل ، وقطعت علاقاتها الدبلوماسية بدول المحور .

عشنا أسبوعاً تحت وابل قنابل الحلفاء على ميلانو لتدمير مصانعها ولم ينس الإيطاليون المرح حتى فى هذه الشدة البالغة . وكنا إذا نزلنا إلى مخابئ العمارة التى نسكن إحدى شققها ، رأينا بعض اللاجئين الماجنين يصحب معه آلة موسيقية للترفيه عن الخائفين .

ولقد سارعت محلات الأزياء لبيع أزياء جميلة خاصة بالمخابئ للسيدات والأولاد والبنات ، وحقائب صغيرة للضروريات خلال الغارات .

* * *

كانت التعليمات التى تلقيتها من سفارتنا فى روما فى الشهر الأخير من هذه الأحداث ، بعد أن تبلورت الأمور ووضحت نيات إيطاليا ، تقضى بالتنبيه على المصريين المقيمين بدائرة عمل القنصلية للتجمع يوم السفر الذى حددت موعده للعودة بهم من روما إلى مصر بطريق قطار إكسبريس الشرق ، وأخذ تعهد على من لا يوافق على السفر بالبقاء على مسئوليته . كذلك كانت تقضى التعليمات بتسليم محتويات القنصلية العامة ، ومتعلقاتنا إلى قنصل أمريكا العام فى ميلانو ، إذ أن بلاده لم تكن قد دخلت الحرب حتى هذا التاريخ . وقد قام هو بتسليمها إلى قنصل سويسرا العام ، عندما دخلت أمريكا الحرب عام ١٩٤٢ . وقد علمنا بعد نهاية الحرب ، أن قنصل سويسرا ، بعد أن استلم هذه المتعلقات نقلها إلى مخازن خارج المدينة ، كانت قريبة من مصانع سيارات ( إيزوتا فراسكيني ) التى كانت تقوم بصنع محركات الطائرات الحربية ، والتى كانت هدفاً لطائرات الحلفاء . وقد احترقت كل

متعلقات القنصلية ومتعلقاتنا عن آخرها . وضاع لى فى هذا الحريق أثاث ثلاث حجرات ، ومدخل ومطبخ بأدواته ، وكل ملابس زوجتى وملابسى ، فيما عدا ملء حقيبة واحدة لكل منا ، تنفيذاً لتعليمات السفارة ، لكثرة عدد الراحلين منا وضيق الأماكن فى القطار .

وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية تألفت لجنة مصرية لمباحثة المسئولين فى إيطاليا عن تعويضنا عن خسائرنا فى الحرب . وكان ذلك ، عام ١٩٥٣ ، حيث تم هذا التعويض فى صورة التعويض الشرفى الذى يطالب به المدعى فى المحكمة بما يتمثل فى قرش صاغ واحد .

لم يحضر معى من المصريين المقيمين فى دائرة عمل القنصلية أحد فقمت مع أعضاء القنصلية وأسرنا بالسفر إلى روما ، حيث اجتمع بها طبقاً لتعليمات السفارة ، كل بعثاتنا القنصلية فى إيطاليا التى كانت تضم أعضاء قنصلياتنا فى روما وتريستا وميلانو وجنوا ونابولى ، بالإضافة إلى أعضاء سفارتنا فى روما ، وطالبين اثنين كانا يدرسان الموسيقى فى روما .

بقينا فى روما أسبوعين لحين إجراء الترتيبات الخاصة بالسفر وبالإذن بالرحلة وبتزويدنا بتراخيص السفر وتوصيات للحدود والجمارك .

برغم كل ظلام الحرب وقتامة ظلها كانت روما الخالدة تعلو على كل الفزع الذى ران على النفوس . كانت تزدان بأقدم وأثمن آثارها ، وتتزين بتاريخها الباقى برغم معاول الزمن ، وتمنحنا فى تلك الأيام ابتسامتها الحلوة التى كانت تستمدها من الأمان الذى يظللها به بابا روما ، وقداستها لدى المسيحيين من المتصارعين ، إن كان للحرب دين .

تفرقنا بين فنادق وبنسيونات روما ، لحين إخطارنا بيوم الرحيل ، وكان البنسيون الذى نزلنا به يقع فى شارع ( فيا فينيتو ) الذى توجد به أوتيل اكسلسيور وفلورا والسفارة الأمريكية ومقهى الدونيه وكلها من معالم روما . وكان هذا الشارع يصب فى حديقة ( فيلا بورجيزى ) التى تضم متحف بورجيزى الذى يحتوى على أعمال لمثال روما الخالد ( برنينى )

١٦٦٧ وهو صاحب التمثالين الفاتنين على جسر سانت أنجلو ونافورته فى الميدان المسمى باسمه . وفى هذه الحديقة أقام الإيطاليون الأوفياء للفنون وأربابها من كل جنس ولون ، منذ عهد قريب ، تمثالا جميلاً فاتناً لشاعر العرب فى قديم عهدهم وحديثه ، أمير الشعراء أحمد شوقى ، حيث حل تمثال شاعر الإبداع فى أبدع مكان .

بين مفاتن روما ، مضينا ننهل ونعب ، فلاتدرى نفس ماذا تكسب غداً .

وكنا نمرح مرح العصافير التى تغرد برغم ما يترقبها من خطر . وكان موسم الكريز الذى يشتهر به جنوب إيطاليا ، مثمراً ثمراً فاض حتى غمر الأسواق والبيوت والمنافذ والنوافذ . وكانوا يقدمون لنا الكريز فى البنسيون مع الإفطار صباحاً ومع الغداء ظهراً ، ومع الشاى عصراً ، ومع العشاء مساء ، كأنه فرض لا نافلة . وذات صباح طلبت من خادمة الحجرة ، ماء ساخناً للحلاقة ثم أردفت مستدركا ، . . . . بدون كريز . . . . .

غادرنا روما فى قطار إكسبريس الشرق ، الذى ألحقوا به عربة خاصة وضعتها الحكومة الإيطالية تحت تصرف بعثاتنا . وقد وافق رحيلنا يوم ٢٨ يونية عام ١٩٤٠ . وقد ودعنا مسئول كبير من وزارة الخارجية يحمل لقب أمير .

وكان مستشار سفارتنا فى روما ، ( السفير فيما بعد ) ، الأستاذ حسن مظهر هو الذى رأس بعثة العودة بعد قطع العلاقات بين مصر وإيطاليا ، غداة إعلان الحرب من الحلفاء . أما السفير فقد آثر البقاء فى سويسرا حتى نهاية الحرب .

وكنت أنا وزميل آخر فى الرحلة ، نجتمع بالمستشار الأديب الذى يعد من خيرة من يكتب الفرنسية بأسلوب متميز شهد به كتاب هذه اللغة ، أقول كنا نجتمع به ليلاً ، بعد أن يكون قد أشرف على راحة أعضاء البعثات ، فى مقصورته بالقطار ، التى اتخذ منها مقراً لقيادته

وأركان حربه . وكان يمثل القائد البارع فى تحمل كل المسئولية ، مع إشراك كبار زملائه فى طرف منها . فقد قام بالعدل والقسطاط ، بتوزيع هذا القدر من المسئولية على كبار العائدين منا ، بحيث يتولى البعض شئون الجوازات ، والبعض شئون الحقائب ، والبعض تزويد أعضاء الرحلة بما يحتاجون إليه من إدارة القطار ، والبعض لشئون الحدود والجمارك ، إذ أن القطار كان سيمر من حدود خمس دول . وهكذا كانت الرحلة تمضى فوق بساط من حرير بفضل دقة القيادة ، وفى مرح يصاحب الشباب الغرير فى العمر النضير .

وعندما كنا نخلو ثلاثتنا ، قائد الرحلة وزميلى وأنا ، فى مقصورة المستشار الأديب ، كنا نستمع تارة إلى موسيقى غربية ناعمة من جراما فون لم يكن يفارقه ، وتارة نستمع إلى إنشاده لقصائد من شعر لامارتين ، وألفريد دى موسيه ، وبودلير . وأشهد أن ما كنت أسمعه من إنشاد المستشار الأديب . السفير اللاحق حسن مظهر ، كان يطربنى كما لو كان شدواً من أرخم الأصوات . وذات ليلة ، ونحن فى هذه الصومعة الفنية ، قلت للقائد الدبلوماسى : إن الأوان قد حان ليكون لوزارة الخارجية نادٍ ، يلم شمل أعضاء السلك الدبلوماسى المقيمين والمارين بالقاهرة ، كما يتيح للطرفين دعوة من يعرفونهم من الدبلوماسيين الأجانب ، المقيمين أو المارين . وقد استحسن الفكرة وآلى على نفسه أن يحملها إلى المسئولين بموجب مذكرة كلفنى بتحريرها .

وعندما سألته عن مصير الاقتراح ، بعد وصولنا بشهور ، ابتسم وهو يقول فى سخرية محببة : لقد قال لى محدثى الكبير الذى عرضت عليه الاقتراح : « عايزين نادى يا أستاذ ، إن فى تفرقكم رحمة . . . . »

وها هو نادى التحرير ، بعد أن رؤى تخصيصه لهذا الغرض ، يسد فراغًا كان لابد من ملئه ، ويؤدى خدمات لابد من أن تضطلع بها الدوائر

المهيمنة على المهنة الدبلوماسية . ولقد نجح فى رسالته نجاحاً واضحاً للعيان .

من أعجب عجائب القدر وتصاريفه فى هذه الرحلة ، أننا مررنا بخمس عواصم لم أكن أعلم أنى سأعمل بها بعد فترة من الزمان ، هى على الترتيب التالى :

بيروت — إستانبول — أنقرة — روما — صوفيا . وسيأتى الحديث عنها تفصيلا فى موضعها من هذا الكتاب .

صادفنى فى إستانبول ، حادث طريف اهتز له كيانى . كنت أتحدث مع قنصلنا العام فى إستانبول ، الأديب الكبير والقاضى السابق الأستاذ حافظ عامر ، عن مغنية تركية كنت أتابع أغانيها من خلال أسطواناتها أيام أن كنت أعمل فى اليونان . وكنت من عشاق صوتها الذى يستنزل رقته من رقة السماء ورحمتها ، ويبعث فى النفوس الوالهة الأسوانة ، برد الراحة والسلوى . ولما سألنى عن اسمها ، وذكرت له أنه ، صفية هانم ، رأيته يتهلل بشراً وهو يقول : سأقدمك إليها فى غد . ولما علم أنى لم أرها أو أرى صورة لها ، ابتسم ابتسامة راضية . وفى حديثنا عنها قلت له ، إننى لا أعرف حرفاً واحداً من اللغة التركية ، ولكنى عندما استمعت إلى إسطوانة لها بعنوان : ( فريات ) ، كانت تقطر أسى ، قلت إن اللفظة لابد أن تكون مشتقة من كلمة : ( افتراء ) . وتصورت خلافاً دب بين حبيبين . وانتهى إلى قطيعة ، كانت الحبيبة هى التى عانت عواقبها وراحت تحكى بغناء شجى وصوت رخيم ، قصتها ومشاعرها وأحاسيسها ، التى أحسستها فى سمعى نابضة بكلام قمت من فورى بترجمته ، بدون معرفة بما كانت تقول ، إلى شعر يقول :

| | |
|---|---|
| ياظالمى عمداً أمعنت فى هجرى | تشقى به ألملك |
| وشغلتنى وجداً وتركتنى أشقى | بجزاء من ظَلَمَك |
| سوف تذكرنى | يوم تلقى الصد من غيرى |
| وترى شجنى | وتلاقى المثل من هجرى |

لا أرانى الله أرعى عهدكم أو أرانى الله منكم نصبا
لم يعد لى ما أعانى شوقه كان لى قلب هوى والتهبا

* * *

إنما الحب لظى نصلى به لا نمل
فإذا ما مسه الغدر خبا

كيف أخشى اليوم من تشبيبه فى الآمال
فاضت الكأس وصبرى انسكبا

لا أبالى إن جرت بعض شئونى
فالليالى مرها يطوى شجونى

* * *

بعد ظهر اليوم التالى قصدت دار القنصل العام الذى صحبنى كوعده إلى منزل السيدة صفية خانوم . ولا أنكر أننى كنت فى الطريق واجماً ، كأننى أذهب للمثول بين يدى القضاء ، للحكم لى أو علىّ . وكان القنصل العام يسّرى عنى حتى أفيق من خيالات يعلم بحسه الفنى ، كيف أحاطت بى ، وملكت على مسالك القول والحديث . سألقى التى ملأت روحى شجواً وطرباً بذلك الصوت الساحر الحنون ، الذى يصعد طاهراً كأنه الدعاء والشكر لله . سألقى التى كانت تذوب وجداً وترق حتى لا يكاد يدانيها فى الرقة شبيه . ولم يكن يدور بخلدى نحوها إلا كل عفة ، هى باعثها . إنها زهرة قد تذبل إن مستها حتى اليد الحانية . وكأنما كان حالى قد دلف إلى ما وصفه الشاعر العربى عندما قال :

وإنى لأستحييك أن تعرض المنى ببالى أو أن تعرضى فى المنى ليا

أفقت على نداء القنصل الصديق ، لينبهنى إلى أننا وصلنا . ولجنا باب العمارة ، ثم وقفنا أمام باب شقة . وما إن ضغط الصديق على جرس الباب حتى انشق وظهرت وراءه سيدة سمراء رقيقة ، انحنت وهى تصافحنا بأدب جم ، مشهود للأتراك . وتقدمتنا إلى صالون الدار . قلت فى بالى ،

إذا كانت هذه هى الوصيفة ، فكيف بسيدة الدار . ثم ما لبثت السيدة نفسها بعد غيبة قصيرة داخل الدار ، أن عادت ، حيث قدمنى إليها الصديق الأديب فانجابت عن عينى غشاوة ، وحل محلها يقين مصحوب باحترام وإجلال وتقدير ، لهذه السيدة التى عشقت صوتها ، وأنا لا أدرك حرفاً مما تشدو .

إنها كانت من المولدات . من أب تركى وأم أفريقية ، لا تدرى هى نفسها من أى بلد أفريقى تنحدر .

ودار الحديث بيننا فى خليط من الفرنسية والتركية التى يعرف القنصل العام طرفاً منها كان يكفى لمثل هذا الموقف . وقد أبلغتها قصتى ، فبهشت السيدة ، حتى لأشهد بأنى ما رأيت بعد فرحة الفجر شيئاً فى مثل فرحتها . فها هو غريب لا يعرف ماذا تغنى ، ويطرب لما تشدو ويطير به أنساً وطرباً . ومن بلد غريب إلى بلد غريب ويسعى ليلاقيها على أكرم سعى وأطهر مقصد . وهو يقتنى أغانيها ، ثم يعمد إلى ترجمة ما يشجيه من غنائها وموسيقاها ، إن هذا فوق ما كانت تطمع . وأجل من كل ما رأته حولها من تقدير وإعجاب .

كنت أراها بعين إعجابى وضاءة تتلألأ ، وكانت تملأ إنسان عينى حتى لا يبين لى فى الحجرة سواها . لم يشأ زميلى فى هذه الرحلة الروحية أن يوقظنى مما أنا فيه من نشوة ، حتى التقت عينى بعينه ، وعلمت ساعتها أن هناك ثالثاً معنا يترقب .

لقد دعتنا إلى سماعها تلك الليلة ، فى أحد الملاهى الراقية ، التى تنتثر على ضفاف البوسفور . وانتهت الزيارة ، وغادرنا دارها الأنيقة الرفيعة الذوق ، التى تحس لمسة الفن فى كل ركن من أركانها .

لقد كان اللقاء صفحة من صفحات كتاب حياتى ، أعود لأتصفحها بين الحين والحين ، وهى لا تبلى ولا يخفت لها ضوء أو يذبل لها ورق ، أو يعتريها على طول المدى نسيان .

* * *

غادرنا إستانبول بعد إقامة سعيدة مدى عشرة أيام ، كانت كافية لنجلو محاسن كانت تحرص على أن تسدل عليها ، إلى حين ، نقاباً شفافاً ، لا تلبث أن ترفعه فى حياء الغادة الشرقية العذراء بعيداً عن أعين الغرباء ، وبعد أن تطمئن إلى المقاصد والنوايا ، ممن ينظر بإعجاب لا بانتهاب .

مر بنا القطار على العاصمة أنقرة ليلا ، ثم واصل سيره إلى حلب ومنها إلى طرابلس التى ينتهى عندها سير هذا الإكسبريس المتئد الرزين . ومن طرابلس ركبنا سيارات إلى بيروت حيث توقفنا فترة ، غادرناها بعدها إلى حيفا وفى حيفا أمضينا ساعات الليل فى أوتيل غادرناه فى الصباح الباكر إلى محطة السكة الحديدية لنستقل القطار الذاهب إلى القنطرة ومنها إلى القاهرة التى بلغناها مغرباً ، بعد غيبة سنوات . لقد كانت أوامر الإظلام قد سرت ، ولكننا كنا نرى بقلوبنا المشتاقة ما تعجز العين عن رؤيته فى الظلام .

لا أرانى الله وجهك مظلماً يا بلدى الحبيب . فأنت فى حرب لا ناقة لك فيها ولا جمل ، ولكن الحيطة أجدى والحذر واجب الاتباع .

كانت أزمة المساكن عندما وصلنا فى يولية من عام ١٩٤٠ على أشدها . وكنا نعرف عائلة تمتلك ذهبية مفروشة ، ترسو على شاطئ الجزيرة بجوار كبرى الجلاء . وقد لبت العائلة رجاءنا واستأجرنا الذهبية بعد أيام من الإقامة فى فندق ، كنت أنزل به كلما هبطت مصر من سفر .

فرحت بسكنى ( الذهبية ) التى سوف تيتح لى رؤية النيل من أى اتجاه يرنو إليه بصرى . وكنت فى حاجة إلى هذا السكون الغامر الذى يعم هذا الرفرف الأخضر النضير وها هو النيل الذى أنا عاشقه يعزف فى جريانه نشيد الوجود ويضم بين أعطافه أسرار الخلود . لقد كنت أحادثه كلما خلوت إليه ، لأبثه ما لا أقوله لسواه . ومن عجائب

الفوارق بين العالم والفنان ، أن العالم ينظر إلى الإنسان أو الكائن الحى ليحوله إلى صوديوم وفوسفور وكالسيوم وحديد وجلوكوز إلى آخر ما يضمه الكائن الحى من مواد وجزئيات ، فى حين أن الفنان ، شاعراً كان أو كاتباً أو مثالا ينظر إلى الجماد ليحوله إلى كائن حى يتحدث إليه ، ويبثه نجواه ، ويستلهمه ، ويرده بخلقه وتصوره إلى دنيا الأحياء وكأنه يدب بينهم وينبض بالحياة والحس والشعور .

وكما كانت أزمة المساكن على أشدها ، كانت أزمة المكاتب فى وزارة الخارجية على أشدها هى الأخرى . فقد عاد إليها أعضاء سفاراتنا وقنصلياتنا فى إيطاليا وألمانيا والنمسا ثم اليابان . وامتلأت الوزارة بالعائدين. ولم يكن بد من أن يبعثوا بنا إلى وزارات ومصالح اقتضت إنشاءها ظروف الحرب ، مثل وزارة التموين والوقاية المدنية وإدارات جديدة لرقابة الأنباء العسكرية وما له علاقة بالحرب أو بما يهدد الأمن . وكذلك إدارات لرقابة المجلات والمسارح والسينمات بوزارة الداخلية . وكان نصيبى رقابة الصحف والمجلات ومنها انتقلت إلى رقابة السينما والمسرح .

وكان العمل فيما قدر لى أن أقوم به ، مكتبياً وروتينياً فى ظاهره ، ولكنه يتعلق بأمور ذات مسئولية كبرى . وكانت إجازة خبر عن تغيير مواعيد قطار المناشى وأبوقرقاص ، وخاصة إذا كان إلى جوار هذه الأماكن معسكرات ، يعرّض الرقيب الذى أجاز الخبر ، لأوخم العواقب .

وكانت تعليمات الرقابة تتعارض كثيراً مع ما تود الصحافة أن تنشره ببراءة فى ظاهره وبشقاوة فى آثاره . وكان يؤسفنى — وكنت ذات يوم للصحافة هاوياً وبالصحافة هائماً — أن أضطر إلى حذف ما يريدون تفويته . . .

بعد ثلاثة أعوام من إقامتى فى مصر ، صدر قرار بنقلى نائباً أول للقنصل العام فى بيروت ، مع منحى أسبوعاً للاستعداد .

هأنذا أعود للعمل فى إحدى العواصم التى مررنا بها فى قطار إكسبريس

الشرق المتئد الرزين ، وإن لم تكن على طريقه ، ولكنه أوصلني إليها بكل شهامة عند عودتنا من إيطاليا بعد قيام الحرب .

وليس أحب إلى من لبنان ، التي سبق أن اصطفت بها عام ١٩٢٧ وتعلقت بما حوته من طيب زهر وسحر وماء وثمر . ولكن عام ١٩٢٧ شيء وعام ١٩٤٣ شيء آخر . وفرق بين سلم وحرب وبين رخص وغلاء . إننا فى حرب . وفى الحرب كلفة فى الرزق ورخص فى الأرواح .

وبرغم كل هذا التوجس ، رأيتنى أردد من شعر أمير الشعراء قوله :

لبنان والخلد اختراع الله لم يوسم بأزين منهما ملكوتُهُ

هو ذروة فى الحسن غير مرومة وذرا البراعة والحجى بيروته

الفصل الخامس

## فى لبنان :

إن العثور على الخل الوفى ، والكبريت الأحمر ، ولبن العصفور ، أيسر سبيلا من العثور على شقة خالية أو مفروشة فى بيروت فى عام ١٩٤٣ وما تلاه . فإذا كانت مفروشة تضاعف الجهد أو تعذر الفوز بالمطلوب .

لم يكن أمامى فى هذا الأمر من حل وسط . وكان على أن أسافر وحدى كطليعة من طلائع الجيوش للاستكشاف والبحث عن مسكن ، ثم دعوة الأسرة للحاق بى .

قضيت الليل بالقطار . ومن قنطرة غرب إلى قنطرة شرق إلى الساحل .

ومررنا بالعريش ورفح والمجدل ، حتى هبطت حيفا ، ميناء فلسطين الكبير ، الذى يحتضنه جبل الكرمل . وكانت لنا فى حيفا نيابة قنصلية ، تربطنى برئيسها وزملائه صداقة وزمالة ، رأيت أن أقصدها ليدبروا لى سيارة تنقلنى إلى بيروت . وبعد ساعات معدودة ، غادرت حيفا بالسيارة فى طريقى إلى بيروت التى بلغتها بعد ثلاث أو أربع ساعات .

أمضيت الليل فى أوتيل ببيروت ، يملك ناصية البحر من كل الجوانب . وفى الصباح يممت وجهى شطر قنصليتنا العامة ، التى كانت تستعد آنذاك لتصبح مفوضية ، بعد عملية سياسية ، هى استقلال لبنان الذى كان تحت الانتداب ، حتى يمكن تبادل التمثيل معه على مستوى مفوضية أو سفارة .

ومن عجائب القدر ، أن تلف الأيام ، وتمضى سبع سنوات لألتقى من جديد فى العمل مع القنصل العام الصديق ، الذى سبق أن عملت معه فى فلسطين ، وحضرنا معاً أعنف أيام ثورتها الكبرى عام ١٩٣٦ . فهل اجتماعنا سيؤذن باحتشاد الأحداث لنقف من جديد على مسرحها لنؤدى دورنا ؟ علم ذلك عند علام الغيوب .

احتفل بوصولى الصديق القنصل العام ( السفير فيما بعد ) الأستاذ الكبير أحمد رمزى ، احتفال القائد بأحد أركان حربه الذى كان قد انتقل إلى لواء آخر ، ثم عاد إلى لوائه .

وكانت معلوماتى عن لبنان ، تضم أشتاتاً مما كان ينشر فى صحف مصر ومجلاتها عن لبنان ، والقضايا العربية بصورة مبتسرة لا تنقع غلة الصادى .

وكنت أستكمل ما ينقصنى من المعارف عن لبنان وما يحيط به من مطامع أجنبية من صديق لبنانى أديب ، مصرى المولد ، كان يشتغل بالصحافة وبالأدب ، وبفنون الموسيقى والمسرح . وكان يطلعنى على ما يرد إليه من صحف ومجلات لبنانية ، وقفت منها على صورة مهتزة ، لاختلاف مذاهب كتاب تلك الصحف وآرائهم السياسية ودعاواهم فيما يكتبون .

ومن جلسات مع الصديق القنصل العام ، بعد وصولى ، تبينت لى الصورة بأوضاعها وأبعادها وتشابك ظلالها وألوانها . وأضاء لى الصديق جوانب من سياسة لبنان ، لم أكن أتصورها على تلك الصورة من التداخل والتطاحن وتضارب المطامع والمطامح حتى بين رفقاء السلاح .

انغمست بكليتى فى البحث عن شقة مفروشة لأستدعى أسرتى من

مصر ، حتى أستقر وأنصرف إلى عملى الذى كان يحتاج إلى كل لحظة من وقتى بجسامته وتنوعه .

وأمضيت شهرين فى بحث متواصل ووساطات من شخصيات كبيرة ، إلى أن أتاح الله لى تحقيق أملى على يد وزير الداخلية ، الذى اكتشف أن قريبة له سوف تترك شقتها المفروشة فترة . تنزح فيها إلى ضيعة لها فى الجبل ، لتخلو إلى أحزانها بعد وفاة ابنتها الوحيدة . وقد تدخل مشكوراً فى هذا الأمر ، بصفة ودية بحكم القرابة . وبصفة رسمية بوصفه وزيراً للداخلية من حقه إصدار الأمر للمحافظ للاستيلاء على بعض شقق لظروف خاصة . وانتهى مسعاه بالنجاح ، وزف إلى البشرى . وتركت الأوتيل إلى المنزل لأبدأ عهداً من الاستقرار .

كانت السحب تحتشد فى سماء لبنان . وكانت السحب سياسية من ذات اللون القاتم . ولعلى أجتزئ برءوس المسائل فى وصف المقدمات ، وما أدت إليه من نتائج ، فى الفترة التى تقع بين نهاية أكتوبر عام ١٩٤٣ ونهاية نوفمبر من العام نفسه. ذلك أن الصديق القنصل العام ، الذى عايش هذه الظروف ، ولعب دوراً وطنيا عربيًّا قوميًّا لاينكره عليه إلا كل جاحد أو حاقد ، هو الأجدر بكتابة تاريخ هذه الحقبة بتفاصيلها ومكاتباتها ، وهو بسبيل نشر كتاب يتناول حياته السياسية خلال تلك الفترة ، تحت عنوان : ( خمس سنوات فى سوريا ولبنان ) .

فى عشرة الأيام الأولى من شهر يونية عام ١٩٤١ ، دار قتال بين الجيوش الفرنسية التابعة لحكومة فيشى التى كانت تعسكر فى لبنان بموجب الانتداب ، وبين الجيوش البريطانية بقيادة الجنرال ويلسون ( قائد الجيش التاسع ) البريطانى ، حماية للجيوش الحليفة فى سوريا ولبنان ، واستتباباً للأمن فى هذه المنطقة الحساسة من الشرق الأوسط ، بعد أن أصبح انتصار الحلفاء يعتمد على صمودهم إلى أن تنقلب الكفة .

لم يطل أمد المعارك بين الجيشين المتقاتلين ، بل آثرت الجيوش

الفرنسية أن تنسحب ، بعد أن تحققت من إخفاق المحاولة . وقد حل محلها جيش فرنسا الحرة المحاربة . وكان كاترو هو وكيل جنرال ديجول فى هذه المنطقة من سوريا ولبنان ، من قبل لجنة الجزائر الفرنسية المقيمة فى الجزائر . وجرت انتخابات وتألفت وزارة لبنانية وطنية برياسة رياض الصلح بعد اعتراف بريطانيا باستقلال لبنان واعتراف فرنسا بهذا الاستقلال الذى استبقت فى يديها بعد منحه ، كل ما يذهب بحقيقة استقلال البلاد ، بدعوى حماية المصالح المشتركة ، كما أبقت على الدستور الذى كان معمولا به على عهد الانتداب .

وقد حدث أن بعثت الحكومة فى الأسبوع الأول من نوفمبر عام ١٩٤٣ إلى مجلس النواب ، بمشروع قانون بتعديل بعض نصوص الدستور التى تتعارض مع استقلال البلاد ، تضمنت المسائل التالية :

١ ــ رفع علم جديد خاص بلبنان لا علاقة له بشارات وألوان العلم الفرنسى .

٢ ــ النص فى الدستور على أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية الوحيدة للبلاد .

٣ ــ إطلاق يد الحكومة فى عقدة معاهدات مع الدول التى تريد أن ترتبط معها بمعاهدة .

وكانت هذه الشئون ممنزعة على لبنان ولا حق له فى مزاولتها .

وبعد أن بحث مجلس النواب مشروع الحكومة ، أقره بأغلبية الأصوات ، أقام هذا القرار وأقعد ( جان هللو ) سفير فرنسا والمندوب العام المفوض لفرنسا المحاربة فى الشرق . وقد دبر بينه وبين نفسه أمراً ، وأسره حتى يفاجئ به ، ولا يعيقه عن تنفيذه عائق .

وأراد أن يجد مسوغاً لعمله ، بإحراج الحكومة لحملها على الاستقالة . وقد وجد فى يوم ١١ نوفمبر ضالته . فى هذا اليوم من كل عام منذ ١٩١٨ ، تحتفل بعيد الهدنة ، دول حلفاء الحرب العالمية الأولى ، فى عواصمها وفى الدول المشمولة بانتدابها فى عرض عسكرى كبير . وقد تعمد (هللو) أن يغفل دعوة

رئيس الحكومة ، والوزراء ورئيس مجلس النواب وأعضائه الموالين للحكومة ، عند توزيع تذاكر الدعوة إلى هذا العرض قبل هذا اليوم بأيام ، مع دعوة زعماء المعارضة من السياسيين والنواب لحضور هذا الحفل العسكرى الكبير .

أوجس رئيس الوزراء شراً من هذا التحدى .

فى هذه الفترة ، كان جنرال سبيرز ، رئيس البعثة البريطانية فى سوريا ولبنان ، هو الذى يشرف على مصالح الحلفاء فى المنطقة ، التى كانت تتناول مسائل اقتصادية وتجارية وثقافية وما يتعلق بالتعليم والصحة والطرق والتعمير .

وحدث أن سافر القنصل العام إلى القاهرة فى أول نوفمبر ١٩٤٣ ، فى رفقة الوفد السورى الذى أقيمت له فى قصر الزعفران بالقاهرة حفلة تكريم ، على أثر الانتهاء من مباحثاته فى وضع أسس جامعة الدول العربية ، وإقامة أساس لمباحثات تتناول موضوع الوحدة العربية الشاملة .

وفى ظهر يوم ١٠ نوفمبر ١٩٤٣ ، تلقيت دعوة من مدير مكتب جنرال سبيرز بالحضور لتناول الشاى فى تمام الساعة الرابعة مع الجنرال فى مكتبه .

وقد شخصت إلى مقر بعثة الجنرال فى الساعة المحددة ، حيث وجدت قنصل عام المملكة العراقية ، السيد تحسين قدرى بك ، إذ لم يكن لغير مصر والعراق من تمثيل قنصلى فى بيروت ودمشق .

دار الحديث حول ما يتوقع حدوثه الجنرال سبيرز ، من جراء تحدى المفوض الفرنسى ( هللو ) للحكومة الوطنية اللبنانية . وأعرب عن عدم ارتياحه لما قام به .

قال إن غداً ( ١١ نوفمبر) يوافق يوم الاحتفال بالهدنة . وإن المفوضية الفرنسية حجبت الدعوة عن الحكومة الوطينة وعن أعضائها ، وبعثت بدعوات إلى معارضيها . وخوفاً من أن تتسع رقعة الخلاف بين المفوض الفرنسى والحكومة ، بادر جنرال سبيرز بمباحثة ( هللو ) ، حيث طلب إليه مراعاة دقة الأحداث الجارية ، راجياً ألا يأتى من الأعمال ما يثير النفوس . وقد

حصل على وعد منه أعطاه وهو كاره ، بالامتثال لذلك .

ثم انتقل ، بعد أن أظهر تشككه فى هذا الوعد المقطوع ، إلى موضوع حفل الغد . وسألنا عن موقفنا منه . ولم يكن لدينا من الوقت متسع للرجوع إلى حكومتينا . وقد أبلغه قنصل العراق العام ، كما أبلغته أنا بدورى ، بعزمنا المسبق على الامتناع عن حضور الحفل المذكور ، تأييداً للحكومة الوطنية فى موقفها .

أما هو فقد قال ، إننى بوصفى ممثلاً لدولة حليفة لفرنسا ، وكذلك بلجيكا التى كان لها ممثل فى لبنان آنذاك ، فسوف أبعث بضابط كبير يمثلنى فى هذا الحفل ، وسوف يحضر ممثل بلجيكا بنفسه . وتمنى فى نهاية الجلسة أن يفى (هللو ) بوعده ، حتى لا يتأزم الموقف فى مثل هذا الوقت الحساس.

وانصرفنا إلى مكاتبنا حيث حررت مذكرة بهذا اللقاء، لأرفعها إلى الوزارة فى اليوم التالى .

عندما استيقظنا صباحاً ، هالنا صدور الصحف وعلى صدرها فى صفحاتها الأولى نبأ القبض على الشيخ الجليل بشارة الخورى رئيس الجمهورية وعلى رياض الصلح رئيس الحكومة ، كما تضمنت هذه الصحف الصباحية نبأ تعطيل الدستور ، وحل مجلس النواب ، وتعيين رئيس دولة يتولى إلى جانب الرياسة مهام رئيس الحكومة .

وقد شرحت الصحف القبض على الرئيسين . فى الساعات الأولى من صباح يوم ١١ نوفمبر عام ١٩٤٣ ، ذهبت فرقة فرنسية أفرادها من السنغاليين ، إلى مقر رئيس الجمهورية ، ومقر رئيس الوزراء ، وألقت عليهما القبض ، واقتادتهما إلى قلعة مهجورة بقرية ( راشيا ) بالجبل . أما من بقى من أعضاء الحكومة وأعضاء المجلس النيابى الموالين للحكومة ، فقد هرع أكثرهم إلى قرية ( بشامون ) فى أعلى الجبل ، حيث ألفوا حكومة مؤقتة ، تمارس سلطات رئيس الجمهورية وسلطات رئيس الحكومة المعتقلين .

قمت من فورى لأبلغ الحكومة برقياً بما وقع . ولما تبين لى أن المفوضية

الفرنسية منعت خروج البرقيات ، وأقامت رقابة على التليفونات ، وشددت الحراسة على الحدود ، قمت بفحص جوازات السفر الدبلوماسية لزملائى الخمسة بالقنصلية العامة ، لأرى من بينها ما يسمح لحامله بالخروج من لبنان إلى حيفا . وقد لقيت لحسن الحظ جوازاً لأحد الزملاء يحمل تأشيرة خروج صالحة لم تكن مدتها قد انتهت . وقد عهدت للزميل حمل رسالة سلمتها إليه عند سفره إلى حيفا لتبليغها إلى الزميل قنصلنا فى حيفا ليتولى بدوره تبليغها إلى القاهرة بالأحداث الجارية ، حتى تكون الصورة لديها مستكملة فى يوم وقوعها ومن أصدق المظان .

وكان من نتيجة رسالتى المبلغة إلى المسئولين فى مصر ، أن سارعت الحكومة المصرية بدعوة القنصل العام الموجود بالقاهرة للعودة سريعاً إلى مقر عمله .

وكان أن قامت مصر بأسرها . وارتجت لهذه الحوادث ، وعبرت بلسان حكومتها وشعبها لن بأنها تقف موقفاً سلبيًّا من هذا الأمر ، مؤازرة للشعب اللبنانى ورئيسيه المعتقلين . بل لقد صرح رئيس الحكومة المصرية آنذاك ، المغفور له مصطفى النحاس ، بأنه سيعيد النظر فى علاقات مصر مع فرنسا ، إذا لم تحل هذه الأزمة بما يتفق وكرامة الشعب اللبنانى واستقلاله الكامل .

أما المندوب الأمريكى فكان يقول : إن كل السلطات مهما كانت لبنانية أو فرنسية أو بريطانية ، تتضاءل أمام سلطان القيادة العسكرية للحلفاء وضرورات الحرب القائمة . وقد كان يرى أن يتمتع كل من لبنان وسوريا باستقلال تعترف به أمريكا وفرنسا وبريطانيا وباقى الدول الديموقراطية ، بحيث لا يبقى فى يد فرنسا من السلطات ما يهدد هذا الاستقلال ، بدعوى صيانة المصالح المشتركة . وقد أثنى على موقف مصر من هذه الأزمة ، وعلى مؤازرتها للقضية اللبنانية .

وصممت مصر ، والدول العربية على تأييد لبنان فى مطالبته بعودة

الأمور إلى ما كانت عليه قبل يوم ١٠ نوفمبر عام ١٩٤٣ .

وكان دور القنصل فى مسعاه لدى جنرال كاترو وجنرال سبيرز وأطراف النزاع من لبنانيين وفرنسيين من المسئولين ، من الأدوار السياسية والدبلوماسية الكريمة الوجه والغاية .

وفى مساء يوم ١٦ نوفمبر من عام ١٩٤٣ ، وصل جنرال كاترو قادماً من الجزائر ليبدأ مهمته العسيرة .

وبعد اتصالات عديدة مع العسكريين الإنجليز والأمريكيين والفرنسيين ، ثم مع رجال السياسة اللبنانيين ، لتقريب وجهات النظر ، والوصول إلى حل يلتقى عنده كافة الأطراف المعنية ، انتهت الأزمة الحادة التى كادت تعيد الاشتباك المسلح بين الحليفتين ، بإعادة الأوضاع السياسية إلى ما كانت عليه قبل يوم ١٠ نوفمبر ١٩٤٣ ، وتم الإفراج عن رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة الوطنية ، بين أفراح الشعب الذى انتصر بصموده وإيمانه ، وبالتجاوب الذى لقيه من الدول العربية المحيطة بالأزمة .

وعند حلول يوم ٢٢ نوفمبر كان كل شىء قد عاد إلى أصله ، وفى مقدمة ما تم تنفيذه ، نقل المندوب الفرنسى ( جان هللو ) ، منعاً لأى حرج .

وقد اعتبر هذا اليوم من كل عام عيداً لاستقلال لبنان ، الذى اعترفت به وأعلنته فرنسا وبريطانيا وأمريكا ، واعترفت به الدول الديموقراطية وكان اعتراف فرنسا بهذا الاستقلال فى هذه المرة صادقاً وخالياً من القيود السابقة .

لقد سقطت ضحايا فى الاشتباكات التى كانت تقوم فى صيدا وطرابلس وبيروت من الأهالى وأفراد الفرقة الأجنبية الفرنسية .

وسرعان ما عادت الحياة الطبيعية إلى مجراها ، وعدنا نحن إلى عملنا الطبيعى . أفحتم على أن تلاحقنى الأزمات السياسية والمالية والعسكرية أينما توجهت أو حللت أو رحلت ؟

فنى اليونان شاهدت الأزمة المالية الخانقة التى تخلفت من وصول مليون مهاجر يونانى من تركيا تنفيذاً لاتفاقية لوزان عام ١٩٢٣ . وفى أمريكا

حضرت معركة الدولار والإسترليني عندما خرجت إنجلترا عن قاعدة الذهب فى سبتمبر عام ١٩٣٢ وعند انتقالى إلى فلسطين ، عايشت ثورتها الكبرى عام ١٩٣٦ . ومن بعد كل أولئك ، عشت جانباً من الوقت فى إيطاليا عند قيام الحرب العالمية الثانية واشتراك إيطاليا فيها مع ألمانيا فى يونية كما سلفت الإشارة فى فصل سابق . وها هى ذى أحداث لبنان فى فى نوفمبر عام ١٩٤٣ أراها فى أعقابى بعد ستة أشهر فقط ، من حلولى بها .

وأعود لأتساءل ، فى حدود النظرية القائلة بأن العضو يتبع الوظيفة ، أو ما يعارضها من القول بأن الوظيفة تتبع العضو ، لأقف على من يكون التابع ومن يكون المتبوع ؟ فإما أن أكون أنا الذى يلاحق الأزمة ويذهب إلى مطارحها ، أو أن تكون هى التى تتعقبنى وتلاحقنى ، أينما حللت ؟

* * *

ولا أحسبنى سهوت عن الحديث عن لبنان ، أرضه وجوه وناسه . ولكن شغلنى ما كان يشغل كل إنسان فى لبنان فى ذلك الحين من أحداث وحجب عن عينى لفترة لا أغفرها للأيام ، كل هذا الحسن أينما اتجهت أو جلست أو تجولت ، حتى لقيتنى ذات يوم أقول :

لبنان من بين المغانى جنة ... ما إن لها بين الرياض مثال
أين انتقلت لقيت حسناً ماثلا ... فإذا مكثت أتى إليك جمال

والسكان فى لبنان خليط من مختلف الأديان . وهم يختلفون حتى فى المذهب الواحد . فمنهم من المسلمين ، السنى والشيعى ، والدرزى . ومنهم من المسيحيين : المارون والأرثوذوكس والكاتوليك والبروتستانت والأرمن الكاتوليك والأرمن الأرثوذوكس . أما اليهود فإن عددهم لم يكن يتجاوز الألفين . وبلبنان عدد كبير من الأجانب من مختلف الجنسيات يبلغ مائتى ألف نسمة . وتوزع الوظائف الكبرى فى البلاد طبقاً للمذاهب ، كعرف التزموا به . فرئيس الجمهورية مارونى ، ورئيس الوزراء سنى ، ورئيس مجلس النواب شيعي ووكيل مجلس النواب أرثوذوكسي ووزير

الخارجية مارونى نظراً لتبعية إدارة الهجرة لوزارة الخارجية ولو جود مهاجرين للبنان من المارونيين فى الأمريكتين وفى أفريقيا ، حتى قيل إن المهاجرين من لبنان المنتشرين فى قارات العالم يفوقون عدد المقيمين فوق أرضه . ويمثل المسلمون نصف السكان .

وأهل لبنان أهل سياسة وكياسة . والطفل يولد وبين جنبيه الكياسة والطموح وحسن الحديث والميل للأدب . والجمال فيهم يستقى من جمال الطبيعة فى السهل والجبل والشاطئ . والقوام السوى مستمد من استقامة أشجارهم ونباتاتهم ، والأصوات الشجية بينهم مستلهمة من صفاء الجو ونقائه فى الوديان والجبال وخلوه من الشوائب والقذى .

وربما ينفرد لبنان ، بل إنه الوحيد بالفعل من بين الدول السياحية الذى يستطيع المصطاف فى الشتاء أن يسبح فى مياهه على شواطئ بيروت أو خليج جونيه ويمارس رياضة الانزلاق على الماء ، ثم يصعد الجبل حتى يصل إلى صوفر أو ضهر البيدر ليمارس رياضة الزحلقة على الجليد ، فيما لا يجاوز ثلاث ساعات ، بين الشاطئ وهذه المطارح .

ولقد كان شوقى أمير الشعراء يؤثر زحلة على باقى مصايف الجبل ، لاعتدال جوها وروعة مناظرها التى جمعت بين السهل والماء والجبل ، وهضبتيها اللتين يحوطانها بحنان ويدفعان عنها كل سيء شأن الأم مع وليدها : صنين والحرمون . ولقد تغنى فيها بأرق ما نظمه شاعر عربى منذ أن وجد شعر عربى فى الوجود . بل لقد وهبها الخلود بقصيدته ( يا جارة الوادى ) التى ذاعت وشاعت وملأت سمع الزمان ، وأكمل عبد الوهاب بلحنه وغنائه لهذه القصيدة ، ما شاءه لها أمير الشعراء من خلود ، تتيه به على الزمان . وقد شدا بها عبد الوهاب فى ليلة من ليالى شهر يولية عام ١٩٢٧ ، فى فندق قدرى المطل على نهر البردونى الفتان اللعوب. ويقول شوقى فى ختام قصيدته :

إن تكرمى يا زحل شعرى إننى ... أنكرت كل قصيدة إلاك
أنت الخيال بديعه وغريبه ... الله صاغك والزمان رداك

* * *

فى الدول التى تكثر فيها الأحزاب والتكتلات السياسية ، مثل فرنسا وإيطاليا وبعض البلاد العربية مثل سوريا ولبنان وكثير من جمهوريات أمريكا الجنوبية ، لاحظت أن التغييرات الوزارية تتعاقب بحيث يصعب على المراقب السياسى متابعة تاريخ أعضاء الحكومات المتعاقبة ، بسبب الفترات المحدودة التى يقضونها فى الحكم قبل أن تتبلور شخصياتهم واتجاهاتهم .

وقد أفضى بى التفكير فى ذلك إلى اقتراح رفعته للوزارة ، يعنى بضرورة احتفاظ كل بعثة دبلوماسية بكارتات تتضمن ترجمة مركزة لحياة البارزين فى البلد الذى تعمل فيه البعثة ، وتضم المشتغلين بالسياسة من رجال الأحزاب ورجال الصناعة والمال والأعمال والاجتماع والأدب والفن بأنواعه ، ويكون لدى الوزارة صورة من هذه الكارتات التى توافيها بها البعثة الدبلوماسية ، مع العناية التامة بجمع البيانات التى بها ، من أصدق المظان ، لإمكان الرجوع إليها فى شتى المناسبات والظروف ، وللاستئناس بها عند حدوث أى تغيير وزارى ، أو القيام بزيارات أو عند الإدلاء بتصريحات أو عند القيام بمفاوضات أو مباحثات فى شتى المجالات .

وتتهادى الأيام كالعهد بها ، فى حظها المرسوم وحظها المسطور ، وأنا موزع الجهد بين عملى نهاراً وبعد الظهر فى المكتب ، ومساء فى المناسبات الاجتماعية التى كنت أدعى إليها للمشاركة فى أهدافها ، لحسن ظن القوم فى قدرتى على الإسهام بالرأى فى الأدب والاجتماع والتمثيل والغناء والموسيقى والصحافة والإلقاء والإنشاء ، وإبداء النصح مع الأعضاء المشتركين .

وكان مما زلت أعتز به أننى كنت عضواً محكما فى اختبار صوت المطربتين الممتازين ، سعاد محمد ونجـــاح سلام ، والعمل على إيفادهما للقاهرة للتردد على نادى الموسيقى الشرقى ( المعهد الحالى ) ، وعلى الملحنين المصريين لاستكمال دروسهما والتزود من فن الغناء والموسيقى على يد المتخصصين فى مصر .

وكنت أذلل ما يصادف صباح ونور الهدى من عقبات السفر إلى مصر أو التدريب على إلقاء الأغانى باللهجة المصرية ، عندما قصدتا القاهرة للعمل بالسينما . وأغمضت عينى عند سفر الأستاذ الكبير وديع الصافى بوصفه سائقاً لسيارة الصديق نقيب الأطباء اللبنانيين دكتور فؤاد غصن ، (الوزير فيما بعد) ، عند انعقاد مؤتمر طبى فى القاهرة عام ١٩٤٣ . وذلك ، نتيجة للتضييق فى منح تأشيرات الدخول لمصر فى أقل الحدود ، بسبب الحرب ، وقصرها على فئات لم يكن منها وديع الصافى الذى كان يتشوف لرؤية القاهرة الفنية ، والتعرف على فنانيها وفناناتها ، والتردد على مجالس ومعاهد الفن لينهل منها ويستزيد من فنه الرائع البديع . فلما اطمأننت إلى هدفه ، أغمضت عينى ، وقلت للصديق النقيب وأنا أودعه ، لقد أحسنت اختيار سائقك لأنه يليق بالمقامات .. ثم أكملت . . الموسيقية . . فضحك النقيب ليدارى حمرة فى الوجه شاعت ، وقد أبلغنى بعد عودته أنه لم يستطع أن يرفض أمنية وديع الصافى البريئة ، كما لم يشأ أن يحملنى على مخالفة التعليمات ، فاختط طريقاً وسطاً .

وكان مما زلت أزهو به كذلك ، سماعى لنظمى مردداً من أجمل صوتين ذهبيين فى سوريا ولبنان وهما السيدتان مارى جبران وزكية حمدان لقد أنشدتا قصيدة لى من لحن الأستاذ خالد أبو النصر ، مطلعها :

أغار عليك من همسات ظنى ... وحسبى أن أغار عليك منى
فأين نظرت تبتغين همـا ... يداعب كل صب بالتمنى
وأين خطرت تنتزعين أمناً ... وما برحت عيون الغيد تجنى
تعالى واخطرى فى خفق قلبى ... تعالى وامرحى فى جفن عينى
تعالى أنت من دنياى همى ... وأنت قصيدتى وأنا المغنى

كذلك شدت لى السيدة ليلى حلمى :

كيف أنساك والتذكر أنسى ... ونديمى إن عزنى ندمائى

دغدغتني يدُ التذكر والشـ ـعر وحبي وكلهم عشراء
سائلوا الكأس هل أذابت شفاهاً صاديات فى صمتهن دعاء
وسلونى عن الشفاه أذابت من كؤوس فى لمسهن شفاء !

أما فى عالم الصحافة فقد مر بابنان فى صيف عام ١٩٤٣ الأستاذ محمد التابعى ، وحضر لزيارتى بالمكتب وبرفقته صديقه وصديقى الأستاذ سعيد فريحة صاحب ( مجلة الصياد ) والشبكة والأنوار ، فيما بعد الصياد وقد علمت من الأستاذ التابعى أن الأستاذ فريحة يطمع فى ألا أبخل عليه بالرأى والمشورة فيما انتواه من إصدار مجلة الصياد ، على طريقة المجلات السياسية الفنية الاجتماعية التى تصدر فى القاهرة ، ورجانى أن أكون عند حسن ظنه وظن الصديق فريحة . وقد كنت عند حسن ظنه ، فى ظنى ، ولا علم لى بما كان فى ظنه عنى . ولكنه أفسح لى صدر مجلته الناشئة آنذاك ، لأكتب بها صفحة أدبية ، إذا ألم بى خاطر أدبى ، أو داعبتنى عرائس الشعر .

* * *

لم يعد فى استطاعة قوسى أن يرمى سهماً لأية مسافة مهما قصر مداها . وكاد الزيت يجف فى مصباحى بعد أن حملت فوق طاقتى من عمل متواصل فى المكتب ، وبخاصة بعد أن تحولت القنصلية العامة . إلى مفوضية عند إعلان استقلال لبنان فى ٢٢ ــ ١١ ــ ١٩٤٣ . ومن مشاركة فى النواحى الفنية والاجتماعية والصحفية ، التى كنت أدفع إليها دفعاً ، لم أكن لأستطيع معه أن أعتذر أو أتردد أو أتخلف . حتى إذا ما أنفقت كل ما كان لدى من رصيدى الصحى ، الذى لا سبيل إلى تمويله بالقرض والاستدانة ، استسلمت لهزال الجسد ، ومواجع الوهن والضنى . وبعد مشاورات بين الأطباء ، أجمعوا ونصحوا بضرورة الانقطاع عن العمل وعن سكنى بيروت والإخلاد إلى راحة طويلة ، فى دار من دور الاستشفاء والنقاهة والانتجاع فى الجبل .

وقد اختير لى موضع من هذه المواضع ، فى أجمل بقعة من الجبل ، بالقرب من وادى ( لامارتين ) . . حتى فى الانتجاع أرى الشعر والشعراء إلى جوارى . . أقول إننى كنت أينما وجهت عينى وقعت على خضرة وشجر وثمر . وكانت تلتف بى بعد عناية الله رعاية الأطباء والطبيبات ومساعديهم ، إلى جانب سؤال الزملاء والأصدقاء . أما الممرضات فقد كن بلسما شافياً سخى الرعاية .

لم أفزع من هذا المصير ، ولكنى فلسفت ما أنا فيه من واقع ، وقد كنت من المؤمنين بقول الشاعر :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض الناس بالنعم

فها أنا بين زهر وشجر ، وشروق وسحر ، لم أكن أنعم بها وأنا فى غمرة ما كنت فيه من عمل أو فن ، وها أنا ذا أخلو إلى نفسى التى لم أكن بقادر على نجواها ، وكل منا فى طرف ، أنا بإرهاقها بما كنت فيه ، وهى بإشفاقها من مغبة المصير . وقد التقينا ، بدون عتاب .

كنت إذا الليل حلك ، أفزع إلى إخوانى وخلانى وسمارى من قمر ونجوم ، لأمضى معها ردحاً من الزمن ، أعود بعده لأشكر لليل يده عندى ، حينما كنت أهتدى فى هذا السكون الغامر ، إلى خيالات تلف حول فكرة الوجود والخلق والفناء والرضى والإيمان ، وقدرة الله وواسع رحمته وعفوه . وكنت أترجم ما يحط على نفسى من أفكار كأنها الحمائم إلى شعر أضمنه فكرة فى بيتين من الشعر يطيران فى أفق خيالى بجناحين من السخر حينا ومن الرضى أحياناً ، حتى اجتمع لى ديوان أسميته بعد طبعه ، أوراق الخريف . نظمت فى التذكار :

أتعجل الأيام تسرع خطوها فإذا مضت عنى بكيت الماضى
وأحن للذكرى فيغضب حاضرى فأقول لا تغضب فإنك ماضى

ونظمت فى مطامع النفوس :

أنا أشتهى ما لا أرى وأرى الذى لا أشتهى

وكذاك أطماع الحيـــــاة بـــداية لا تنتهى

ونظمت فى تنوع مظاهر الطبيعة :

هل شهدت الموج فى قصف ولين ينطح الصخر ويقسو فى النزال
ثم تلقاه على الشط استوى هامساً بالوجد فى سمع الرمال

ونظمت فيما كنت فيه :

قلت يوماً لعائلتى بافتخار قد بلوت الزمان زينا وشينا
وحطامى معى يصيح بسخر تلك آثارنا تدل علينا

وكان يسكن الحجرة المجاورة لحجرتى فى هذه الدار ، أحد المنتجعين من ذوى الأرواح المرحة الجذابة . وكان بين خفة روحه وثقل وزنه ، شبه كمال الانقطاع . وارتفعت فيما بيننا الكلفة ، إلى حد سماحه لى بالنيل منه بالوصف الشعرى لضخامة جسمه وشهيته التى تبتلع حوت يونس . ودليل رفع الكلفة فى الشرق ، يكون بتنابذ الألفاظ ، أما فيما بينى وبين هذا الجار العزيز ، ( حنا المتنى ) ، فلم يصل الأمر إلى هذا الحد ، ولكنه كان يقتصر على أن أقول فيه شعراً خفيفاً مجونياً كان يرد عليه عند الاستماع إلىّ وأنا أرويه بقوله : « بيخرب بيت ها القريحة » .

وكان حنا المذكور نهماً لا ينقطع عن الأكل إلا للأكل . وكان إذا أتى على ما يقدم إليه فى وجبة الغداء أو العشاء ، تسلل إلى حجرتى بدون استئذان ، ليأتى على ما أكون قد عزفت عن تناوله .

وقد قلت فيه نظماً ذاع وشاع بعد أن نشرته مجلة الصياد فى عدد من أعداد شهر أغسطس عام ١٩٤٤ . وكان من بين ما نظمته :

أنـــا ما رأيت سواك حنا للأكل بعد الأكل حنا
صحن من ( اللبنا ) أحب إليـــــك من ليلى ولبنى[١]

---

( ١ ) اللبنا يصنعونها فى لبنان من اللبن الرائب . ويأكلونها بالزيت . ولا تخلو مائدة الإفطار فى الصباح فى لبنان من اللبنا .

ورنين آنية الطعام يحول في أذنيك لحنـــــا
لك للطعـــام شهية يفنى الطعام وليس تفنى

بعد انقضاء فترة الاستشفاء ، غادرت الدار إلى عملي بالمفوضية وكنت قد بلغت درجة سكرتير ثان بالمفوضية حينئذ . والجديد الذي دخل على حياتي آنذاك ، ليس الترقية التي بلغتها بعد نحت في الصخر ، وسير على الشوك ، ولكن هو إقلاعي عن التدخين إلى غير رجعة . وكانت هذه هي النبوءة الثالثة التي أبلغتني نبأها ، ابنة الشاعر « جواكيم ميللر » ، قبل رحيلي من سان فرنسيسكو عام ١٩٣٤ ، وأراها تتحقق بعد عشر سنوات ، وبعد نبوأتين تحققتا من قبل .

وكان لا بد مما ليس منه بد . فقد صدر قرار بنقلي إلى الديوان العام بالقاهرة ، بعد خمس سنوات في لبنان ، ما أزال مديناً لها بالتجربة والصبر على الشدائد ، والصمود للمحن ، والتمسك بأهداب الأمل ، والمحاولة بعد الفشل ، وهذه خصائص وطباع تمد أهل لبنان بالتفوق والنجاح أينما ارتحلوا أو أقاموا . كما كنت مديناً لها بالصحة التي كنت أراها تذبل وتخبو ، كأنها ضوء الشمس عند الغروب ، حينما تتخلى عن الضوء والحرارة ، ثم ماتلبث أن تسطع من جديد ، وهي تحمل الدفء والنور . . .

توليت إدارة قسم الشئون الآسيوية بالإدارة السياسية بالوزارة ابتداء من شهر نوفمبر عام ١٩٤٧ . وكأنما كنت على موعد مع مشاكل القارة الآسيوية بمجرد أن ألممت بشئونها. كان في طليعة تلك المشاكل الخلاف على إقليمي ( جامو وكشمير ) بين الهند وباكستان ، بعد تقسيم الهند واستقلال جزئيها عام ١٩٤٧. والخلاف على الحدود بين باكستان وأفغانستان على المناطق الجبلية في بلوخستان وادعاء كل دولة تبعيتها لها . ثم جاء دور استقلال أندونيسيا عام ١٩٤٩ والخلاف بينها وبين هولندا على جزيرة ( إيريان ) . ثم قامت عام ١٩٥٠ حرب كوريا

بين جزئيها الشمالى الاشتراكى ، والجنوبى الديمقراطى ، أو بعبارة أصح بين المعسكر الاشتراكى والمعسكر الإمبريالى . وقد وقفت الصين الشعبية من كوريا الشمالية موقف الحليف القوى والسند الشريف . وحدث قبل ذلك ، قيام قوات الصين الشعبية الظافرة بتعقب فلول جيش تشانج كاى شيك الذى كان يتقهقر كل يوم عشرات أو مئات الكيلومترات. وكنت أوافى المكتب المختص بالوزارة بملخص لهذه المعارك ، مما كانت تنشره الصحافة العالمية وتذيعه الإذاعات ، مع إبداء رأيى فى ضرورة الاستعداد للاعتراف بالصين الشعبية فور هذه المعارك التى كانت وشيكة الانتهاء . وكنت أذكر فيما أرفع ، أنه لا خير فى بقاء الاعتراف بنظام نشاهده وهو يذوى ويتهاوى ، وإمهال الاعتراف بنظام نراه قد أشرق وانبثق .

وكانت الحكومة الوطنية للصين ، تنتقل مع الجيش المتقهقر من مقاطعة إلى مقاطعة ، وهى لا تقوى على المقاومة . وخلال هذه المعارك الضارية فى نهاية عام ١٩٤٩ ، صدر قرار وزارى بنقلى قائماً بالأعمال بالنيابة بدرجة سكرتير أول فى نانكين عاصمة الصين الوطنية . وكأنما أراد المسئولون أن يكافئونى على دقة وصفى للمعارك ، بأن ينقلونى إلى ميدان المعارك ، لأصف على الطبيعة ، ما أراه منها ، ومن ظفر قوات جنرال ماوتسى تونج .

ولم أكن صالحاً صحيًّا لهذا النقل ، بشهادة القومسيون الطبى الذى قضى بذلك بعد الفحص ، والذى صاغ قراره ، بما يمكن أن يفهم منه أنه من باب توفير أموال الدولة عدم الإقدام على نقل المذكور . . أنا . . الذى يعد غير صالح صحيًّا ، ومعرضاً للكسر Fragile خلال الطريق ولم أكن فى الواقع فى صحة تتحمل جو منطقة نانكين بالذات ، كما أبلغنى بذلك سفير الصين الوطنية بالقاهرة ، وبخاصة أنى كنت عائداً من فترة نقاهة بعد مرض طويل ، فى لبنان . ولو أن الأمور كانت

مستقرة فى الصين ، لهان الأمر . ولكن هنالك ، تقوم حرب أهلية . وحكومة الجنرال تشانج كاى شيك تنتقل كما قدمت مع الجيش من مكان إلى آخر . وكان علىّ أن أسأل الرائح والغادى عند الوصول ، عن مقر الحكومة الجديد ، وأى السبل أسلك للوصول إليها . وقد أنقذنى القومسيون الطبى من كل ذلك وتقرر العدول عن نقلى ، وبقائى بديوان الوزارة إلى حين صدور حركة دبلوماسية قادمة .

وفى نوفبر عام ١٩٥١ صدر أمر ملكى بنقلى قنصلا عامًّا لمصر بمدينة إستانبول . وهاهى ثانى مدينة مما سبق أن مررنا بها بقطار إكسبريس الشرق ، المتئد الرزين ، أعود لأعمل بها فترة لا أدرى مداها .

## الفصل السادس

### فى تركيا :

أبحرنا من الإسكندرية على الباخرة التركية سمسون فى النصف الأول من شهر فبراير عام ١٩٥٢ . وللأتراك خط بحرى منتظم ، يحق لهم أن يفخروا به تجرى عليه بواخرهم بين إستنابول وبيريه ونابولى وجنوا ومارسيليا والإسكندرية . وكانت رؤيتى لإستنابول كسائح لمدة عشرة أيام ، فى مطلع الحرب العالمية الثانية ، وفى شهر يولية عام ١٩٤٠ ، بعد قطع علاقاتنا بإيطاليا وعودتنا وإجراء تبادل بين بعثتنا الدبلوماسية والبعثة الدبلوماسية الإيطالية التى غادرت القاهرة إلى إيطاليا ، وقد تم فى إستنابول ، أقول ، كانت هذه الرؤية كرؤية النائم لحلم ، لا يلبث أن ينساه عندما يصحو ، فيما عدا ما يمس منه عاطفته . فقد كان كل ما يقال عن تحول الترك عن الدين الإسلامى مبالغاً فيه ، بهدف فصم ما بين العالم الإسلامى وتركيا من وشائج ، تحقيقاً لأهداف إمبريالية عميقة الجذور . فقد كنت أرى مبلغ تعلق الترك بشعائر دينهم فى كل مكان أمضى إليه . وكانت الجوامع

التى يزيد عددها على عدد أيام السنة ، فى إستنابول ، تمتلئ ساحاتها بالمصلين ، كما تمتلئ الأرض الواقعة عند مداخلها بمن لا يجد له فى الداخل مكاناً . وكان يكفى أن تذكر اسمك الدال على انتمائك للدين الإسلامى حتى تحل بينهم فى أطيب مكان من قلوبهم ، مهما صعب التفاهم بالحديث .

وللأديان مظهر مادى ، وجوهر روحى . والأول يتعلق بالشكل والحركة ، والثانى يستهدف المضمون والمحتوى والروح . ولست فى معرض تقييم حركة ، القول فيها للمؤرخين .

دعانى إلى التحدث عن ذلك ، مادار من حديث خلال الرحلة بينى وبين راكبين فاضلين من رفقاء السفر ، كان يتناول المظهر الخارجى لتركيا الحديثة وارتباطه بظروفها السياسية والجغرافية ، والجوهر الروحى لها فى كل ما يتعلق بالعقيدة والوطنية والقومية . وليس يجدى فى اعتقادى إثارة مسائل اقتضتها ظروف لم يكن من السهل تنكبها ، ولا هنا ، فوق هذا وذاك ، موضعها .

كان أول الصديقين من رفاق الرحلة ، هو الأستاذ محيى الدين مردينى بك الذى تربطه بمصر أواصر متغلغلة جذورها منذ الجدود . وله فى مصر أقارب من المصريين ، مثلما له فى تركيا أقارب من الترك . وهو ممن يتسع أفقهم إلى حد تبدو الخلافات فيه كما لو كانت فقاقيع تتلاشى وحدها بدون أدنى جهد . فكان على علم بالسياسة العالمية وأثر تياراتها على منطقة الشرق الأوسط التى تجمعنا . وكان محباً لمصر ، لا ينسى عهد صباه بها ، الذى يدعوه إليها كلما أحس بالحنين إليه . وكان محباً لتركيا محبة تتسع وتمتد جذورها وأطرافها لتشمل الماضى والحاضر ، متمنياً لها استخلاص خير ما فى الماضى من تجربة وأسوة ، وخير ما فى الحاضر من تقدم قام على العلم المدروس دراسة هيأته لأن يسير فى ركب الحضارة والمدنية بقدر لا يطغى على ميراث الماضى من عفة وفضيلة وأدب ، ولا ينظر إليه نظرته إلى شىء متخلف ينكره ويتنكر له .

وكان الأستاذ شفيق رضا بك ، هو الرفيق الثانى فى هذه الرحلة التى كانت تمتد إلى أربعة أيام مع توقف فى بيروت ساعات ، استعدت فيها ذكرياتى بها ، وإن كانت فى غير حاجة إلى تذكير ، لأنها منقوشة وبارزة ، وهو أمر تشكيلى نادر فى جمعه بين النقش المحفور والرسم البارز . ومن حق رضا بك على أن أخصه فى هذا المكان بما يستحقه من تقدير ، لعلمه وفضله ونظرته العالمية واتجاهاته القومية . إنه من مواليد قبرص ، حيث شب بها ، واشتغل بالتدريس فى مدارس القسم التركى بالجزيرة . ثم غادرها إلى الدنيا الواسعة ، يحمل زاده الوفير من لغات عديدة ومعرفة وعلم وتجربة . واشتغل ، كما ذكر لى ، بالصحافة وبالترجمة وبالتأليف وبالوساطة التجارية فى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وأمريكا ومصر ، وكثير من البلاد العربية . إنه موسوعة متنقلة . وهو كزميله رفيق الرحلة ، مرديني بك ، من واسعى الأفق الفكرى ، وبعيدى مدى الرؤية . وهو مع سخطه على الشباب التركى الحديث ، إلا أنه كان يقول إنها تجربة لا مناص من الدخول فيها ، وسوف يريهم الزمن أنهم ابتعدوا عن الأرض التى كانوا يقفون عليها بثبات وصلابة ، وأصبحوا معلقين فى الهواء ، لا سماء بلغوها ، ولا أرض وقفوا عليها .

كنت أسمعه يقول هذا القول لمسافر على الباخرة من شباب الترك ، يشتغل بالصيدلة . وهو ممن نعتهم بالضياع . فقد كان متأمركاً فى حديثه ولفتاته وسيجارته ومضغ لبانه . فكان يسخر منه بسؤاله عن تاريخ بلده القريب ، فكان لا يحير جواباً ، ثم يعود لسؤاله عن التيارات الحديثة فى المجتمع التركى الجديد فى الأدب والاجتماع والسياسة فيراه فارغاً كالطبل الأجوف الذى لا خير فيه إلا إحداث الجلبة والضوضاء . وكان فى ردوده يرثر دائماً بقوله إن التقاليد القديمة كبلت أرجلنا وغلت أيدينا عن الحركة.

كان رضا بك يحدثنا عن تركيا حديث العالم بكل شق فى تاريخها الماضى وحاضرها الحديث . سياستها وأدبها وتجارتها وصناعتها واتجاهاتها

الفكرية ومتمنياته لها. وقد كنت أراها من خلال حديث ، وكأنما عشت فيها في عصورها الغابرة وتطوراتها الحاضرة .

وكنت أطلع على بعض ما كان يحمل من كتب وأوراق ، زادتني علماً ومعرفة بما أنا قادم عليه في بلد تربطنا به روابط عديدة . وكان الرجل متواضعاً لا يعتد بكل ما كان يحمله من تجارب ويلم به من معارف . وكأنما أراد أن نزداد به علماً في نواحٍ لم يكن من الميسور الاطلاع عليها . ولكنه سرعان ما توصل إليها بلماحيته . في أحد أيام الرحلة ، افتقدته ، وبالسؤال عنه علمت من رفيقنا الثاني ، أنه استأذن قبطان الباخرة ، لينزل إلى المطابخ لإعداد صنفين للمسافرين ، أحدهما فطير باللحم ، والآخر تورتة بالفاكهة ، كانا مثار إعجاب الركب السعيد .

عند نهاية حكم السلجوقيين عام ١٣٠٠ ، تولى عثمان ابن ارتغول ، الملك . وهو الذي أقام دولة آل عثمان ، التي تولى ملكها من بعده سليمان القانوني ثم مراد ثم بيازيد ثم مراد الثاني ثم سليم الأول . وكان كل واحد من هؤلاء السلاطين يزيد من رقعة الإمبراطورية حتى أصبحت تضم ، غاليبولي ( اندرينوبل ) ومقدونيا وبلغاريا وتراقيا وسالونيك وشبة جزيرة المورة والصرب والبوسنة وألبانيا واليونان ثم هنجاريا والشمال الأفريقي في أفريقيا ، وفي آسيا كانت تحتل العراق وسوريا وشبه الجزيرة العربية ومصر .

وبعد هزائم في معارك عديدة ، بسبب تألب دولي عليها ، ضعفت شوكة الدولة ، حتى فكرت دول أوربا في اقتسامها . وعندما انهزمت في الحرب العالمية الأولى أخذت الدول الأوربية ( بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ) تحتل أساطيلها وجيوشها أجزاء هامة من تركيا ، استهدافاً لفرض شروطها ، إلا أن الحركة الكمالية التي كان يقودها من الأناضول الزعيم مصطفى كمال ، أمكنها أن تدخل في معارك مع الجيوش اليونانية التي هزمها شر هزيمة في سقاريا واينونو حتى تم النصر الحربي والنصر السياسي لمصطفى كمال بالتوقيع والتصديق على معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ ، الذي أخذت بعده

الأساطيل تنسحب والجيوش تتراجع ، وأخذت تركيا الحديثة تتبوأ مكانها كدولة عصرية تحكم أراضيها التركية ، وتخلصت مما كان يعيقها عن الحركة والتقدم ، واستقبلت عهداً جديداً فى حدودها الجديدة التى يتسنى لها أن تدافع عنها وتذود عن استقلالها وحريتها .

كانت القنصلية العامة بمكاتبها ومسكن القنصل العام تقع فى حى تقسيم . وكان ظهر الدار يواجه البوسفور ، أجمل الممرات المائية فى العالم ، وأخطرها شأناً بسبب المشاكل الدولية التى قامت من أجله . وسوف يأتى تفصيل لدوافع المشاكل الدولية فى وضعه من هذا الفصل .

كان من أكثر الشخصيات جدارة بالتحليل فيمن حللت بينهم فى القنصلية العامة من زملاء دبلوماسيين ومساعدين إداريين ومستخدمين ، شخصية ( المتردوتيل ) . والمفروض فى شاغل هذه الوظيفة ، التى كانوا يطلقون عليها قديماً اسم ( الوصيف ) فى القصور والسفارات والمفوضيات والقنصليات العامة ، التى تضم دوراً لسكنى رؤساء هذه البعثات ، أنه المساعد المباشر لرئيس الهيئة فى كل ما يتعلق بمأكله وملبسه ومشربه. فهو المشرف على إعداد مائدة الطعام ، وعلى كى ملابس رئيس الهيئة الرسمية المتعددة ، وحلاقة ذقنه وتناول إوائه وإعداد حفلاته والإشراف على مخازن المشروبات والمأكولات المعلبة ، وإصدار الأوامر لباقى الخدم بما يطلبه رئيس الهيئة ، وتلقى المكالمات الخاصة من المحلات التى يتعامل معها لإعداد مطالب الحفلات الرسمية وغيرها فى مختلف المناسبات ، ثم تقديم القهوة والشاى للضيوف ، والإشراف على تنظيف صالونات الدار ومكتب الرئيس . ولكنى اختصرت أكثر من ثلاثة أرباع هذه المهام الجسيمة ، الأمر الذى جعله يضمر وينزوى ، كأن لم يكن بالأمس ديكاً رومياً منفوش الصدر . فقد كانت هذه المظاهر ، بقايا متخلفة من تقاليد دبلوماسية عفى عليها الزمن فى سيره وتطوره ، وعز عليها أن تتوقف عن مزاولة ما كان لها من اختصاص وعادات متوارثة ، أصبحت فى ذمة التاريخ.

كان اسم ( الميتر دوتيل ) أنطوان . ولكنه كان يصر على أنه يحمل أسماء أخرى ليستخدمها عند الحاجة. ولما كان أنطوان من مواليد اليونان ، ثم رحل أجداده الأقدمون إلى تركيا ، وبقى بها إلى أن لقيته، فقد كان عملا بالمتبع فى اليونان وغيرها ، يحتفل بعيد القديس الذى يحمل اسمه ولذلك فقد رأى كلما أراد أن يتخلف مساء أى يوم عن الحضور – فيما عدا أمسيات الحفلات – أن يتسمى باسم القديس الذى يحتفل به فى هذا اليوم. فهو أحياناً ديمترى وأحياناً نقولا وأحياناً إيليا وأحياناً دانيال .

ولالتحاقه بالعمل بالقنصلية العامة قصة طريفة . فقد كان القنصل العام الأسبق فى زيارة للمدير العام للبنك الألمانى بإستانبول . وفى الساعة الخامسة من بعد ظهر أحد الأيام ، كان القنصل العام ، بناء على موعد سابق ، يدق جرس باب دار مدير البنك . وكان أنطوان هو الذى يفتح الباب . وبعد أن قاده إلى حجرة الصالون ، أبلغه أن المدير العام لا يستطيع أن يراه . ولما أفهمه بالموعد السابق المضروب ، أجابه بأنه يعلم ذلك ، ولكن المدير غير موجود . فسأله متعجباً ، وهل خرج وهو يعلم بموعدى معه ؟ فأجابه بكل أدب وثبات ، بأنه لم يخرج ولكن روحه هى التى خرجت ، منذ نصف ساعة فقط ، وقد استحسن القنصل العام هذا الحوار اللبق ، وهذه الطريقة الدبلوماسية فى إبلاغ الخبر المؤسف ، وعرض عليه العمل فى وظيفة ( ميتر دوتيل ) بالقنصلية العامة ، وسرعان ما وافق .

* * *

بعد أن قمت بالزيارات التقليدية الرسمية لزملائى القناصل العامين . مبتدئاً بعميد الهيئة ، وكان قنصل هولندا العام آنذاك ، لاحظت أن الدول الكبرى ، عندما يقترب بعض دبلوماسييها من سن الإحالة على المعاش ، يبعثون بمن يكون مرضياً عنه منهم ، مكافأة لهم وتقديراً عملياً لما بذلوه من جهود ، إلى بعض القنصليات العامة بدرجة وزير مفوض ، مثل ليشبونة وبرشيلونة وبياريتز وطنجه وجينيف ولوكسمبورج وإستانبول ، حيث

يطيب الجو وتقل مسئوليات العمل ، إلا من شاء منهم أن يجد مما حوله ما يشغله ويشغل به الآخرين . وكان فى إستانبول من هذا الفريق ، قناصل هولندا وإنجلترا وفرنسا وسويسرا وإيطاليا ومن بينهم بارون وماركيزان .

كان على بعد الانتهاء من هذه الرسميات التقليدية التى يتم بها التعارف المكتبى الذى يزيد من أواصره اللقاءات التى تتم فى مختلف الدعوات الرسمية والخاصة ، كان على أن أستعرض أهم المواضيع التى تستأهل العجلة فى بحثها ، إلى جانب غرابة موقفها . فقد أدهشنى أن أرى الميزان التجارى بين تركيا ومصر يميل إلى جانب تركيا ميلا يصل إلى حد الاختلال . وكانت تقارير من سبقنى تنبه إلى هذه الظاهرة وخطورة شأنها . وقد وجدت الفرصة أمامى سانحة لإكمال ما بدأه من سبقنى ، على أن أضع إلى جانب الكتابة ، أرقاماً وأمثلة ومقترحات ، ودعوة إلى تدخل الغرف التجارية فى البلاد العربية لتسهم فى هذا السبيل ، كما ناديت بسرعة العمل على تعديل هذا الميزان المختل . فقد كانت مصر تستورد من تركيا بضائع وأصنافاً ومنتجات يبلغ حجمها ثلاثين ضعفاً مما تصدره إليها من بضائع . أى أن نسبة الوارد للصادر هى ٣٠ إلى واحد . فقد كنا نستورد من الدخان وحده ما قيمته نصف مليون جنيه مصرى . وكنا نستورد من تركيا الأخشاب والياميش وبعض الحبوب والفاكهة والمعادن بما لا يقل عن مليون ونصف المليون من الجنيهات . وكان ما نستورده من الياميش ( البندق والزبيب والفزدق واللوز وعين الجمل والأراسيا والمشمش ) لا يقل عن ربع مليون جنيه قابلة للزيادة لا للنقصان .

وكانت تركيا قد توقفت عن استيراد غزل القطن المصرى ، إلا بكميات ومن أصناف معينة ، لا تزيد على خمسين ألف جنيه مصرى ، وذلك بعد أن زودت أمريكا مصانع إيطاليا بآلات حديثة للنسيج ، كانت إيطاليا تصنع فيها الغزول المصرية وتصدرها إلى تركيا بأقل من أسعار المنسوجات القطنية المصرية . ولم يكن من اليسير الوقوف فى وجه هذه المنافسة الخطيرة

إلا بإجراءات عاجلة .

وعندما اتصلت بالإدارة المختصة بالوزارة ( الإدارة الاقتصادية ) لعرض هذا الأمر ، مرضحاً بالأرقام والبيانات الرسمية ، جاءها من وزارة التجارة ، اقتراح بإنشاء مكتب تجاري بإستانبول لملافاة هذا الاختلال. وطلبت موافقتها بمقايسة بالتكاليف المطلوبة لهذا المكتب . وقد وافيت الوزارة بما طلبته من تقديرات إنشاء المكتب التجارى الذى لن تقل تكاليفه عن عشرين ألف جنيه إسترلينى سنوياً ، بخلاف تأثيث المكتب . ثم أردفت ذلك بقولى إن القنصلية العامة تقوم فى المجال الاقتصادى والتجارى بنفس ما يمكن أن يقوم به مكتب الملحق التجارى . وليست العبرة بإنشاء المكتب لتعديل ميل الميزان التجارى ، ولكن العبرة فى مواجهة تركيا بضرورة مقابلة صادراتها إلى مصر بواردات منها بموجب نظام القائمة الذى يتضمن الأصناف المتبادلة بين البلدين والحجم الذى تكون عليه هذه المبادلة . وفى يد مصر ورقة رابحة تتمثل فى إمكان التجائها إلى دول أوربا الشرقية ، التى ازدادت بها اتصالا بعد عام ١٩٥٢ ، لتستورد منها الدخان والأخشاب والمعادن والياميش والفاكهة المجففة ، من يوجوسلافيا وبلغاريا ورومانيا وهنجاريا واليونان . وقد اقترحت إيفاد بعثة من التجار ومن ممثلين لوزارة التجارة لدراسة الحالة على الطبيعة ، وللاتصال بالمسئولين وبالتجار ، وهذا ما عملت به الجهات المختصة . ولم يمض عام على جهود المسئولين ، حتى أصبح الميزان التجارى بين البلدين متعادلا .

* * *

فى ٤ يولية من عام ١٩٥٠ ، تم توقيع اتفاقية تجارية بين تركيا وإسرائيل لمدة عام قابل للتجديد تلقائياً . وقد كان يهم الدول العربية ، إتماماً لحلقات الحصار المضروب حول إسرائيل ، عدم التوسع فى المبادلات بين البلدين على هذه الصورة ، التى وإن كانت أكثر اهتماماً بالألفاظ ، مثل الدولة الأكثر رعاية ، ومدة عام قابل للتجديد تلقائياً ، والتوسع فى

الاتصالات البحرية وتبادل الخبرات الصناعية ، من اهتمامها بالجانب الاقتصادى والتجارى من المبادلات التى اقتصر حجمها على ٨٤٠ ألف دولار ، إلا أن الأمر من جانب إسرائيل كان يهمها ، من ناحية الشكل ، لأنه يحقق فتح السوق التركى لصناعاتها المجمعة فى مصانعها ، مثل سيارات كايزر والثلاجات وماكينات الحياطة وموتورات الزراعة والغسالات والآلات التجارية والراديو ، التى تمدها بها أمريكا ، كما أن الأمر كان يهم إسرائيل من ناحية الموضوع فى أنه يكسر حلقة من حلقات الحصار المضروب حولها ، إلى جانب ما يترتب على ذلك من زيادة الهوة التى تفصل بين تركيا والبلاد العربية .

وقد اقترحت على المكتب الإقليمى المصرى لمقاطعة إسرائيل بالقاهرة إنشاء مجمع للغرف التجارية العربية فى صورة ( كونسورتيوم ) يتولى دراسة صادرات تركيا إلى إسرائيل ، وواردات تركيا من إسرائيل ، للعمل على الدخول مع تركيا فى مباحثات تستهدف الحلول محل إسرائيل فى كل ما يمكن مدها به من المنتجات وشراء ما يفيض عن حاجتها مما تصدره من منتجات ، وبهذا تنقطع الحجة القائلة إن المبادلات التجارية لا تخضع لأى اعتبار سوى الفائدة المادية والمصلحة العامة .

وقد كان من أهداف أمريكا منذ توقيع اتفاقياتها العسكرية والاقتصادية مع تركيا ابتداء من عام ١٩٥٠ ، العمل على تخفيف حدة الحصار المضروب حول إسرائيل ، وكسره بواسطة تركيا ، إرضاء لإسرائيل من جهة ، وثمناً تتقاضاه من تركيا مقابل حمايتها من كل ما كانت تتخيله من جانب الاتحاد السوفيتى ، الذى يحمل التاريخ بين ثناياه ذكريات معارك ضارية بين تركيا العثمانية وروسيا القيصرية خلال قرنين من الزمان ، انتهت بفرض روسيا القيصرية شروطها على حكومة السلطان عبدالحميد الأول فى معاهدة ( كوتشوك كينارجى ) التى تم توقيعها فى ٢١ يولية ١٧٧٤ . ومهما تطورت الأمور ، فإن النفوس تبقى منطوية على الخشية والحذر

والبغضاء التى كانت أمريكا تستغلها لتقييد تركيا باتفاقيات عسكرية تضمن بها لنفسها قواعد برية وبحرية عديدة فى تركيا .

* * *

استرعى نظرى مبعوث جامعة القاهرة لدراسة فقه اللغة التركية وآدابها فى إستانبول ، الأستاذ أحمد السعيد سليمان ، ( الأستاذ المساعد بجامعة القاهرة حالياً ) ، بعد حصوله من جامعة السربون على دكتوراه فى اللغة التركية وآدابها ، إلى أن المكتبة العثمانية القديمة ( دار الكتب التركية حالياً ) تضم ذخائر من كتب العرب والترك الأقدمين فى الأدب والشريعة والفلك والجغرافيا والكيمياء والمنطق والفلسفة ، وهى معرضة للتلف الشديد بفعل الفئران والحشرات ومعاول الزمن ، وأن واجب الحفاظ على تراث الأقدمين يقتضينا أن ننقذ ما يمكن إنقاذه من هذه الذخائر . وقد كتبت إلى الوزارة ، التى اتصلت بالجهات المختصة فى دار الكتب والجامعة العربية للعمل على إيفاد فنيين متخصصين فى تصوير أفلام ( ميكروفيلم ) للكتب المطلوب نقلها والعمل على تكبيرها وطبعها على يد ذوى الاختصاص .

وقد باشر هؤلاء الفنيون أعمالهم على أثر وصولهم ، بعد أن مهدت لذلك مع السلطات التركية المختصة التى رحبت بهذه المبادرة ، وأمدت بلدية إستانبول وجامعاتها ومكتباتها ، الموفدين بكل المساعدات الكفيلة بإتمام مهمتهم على أكمل وجه .

* * *

تقع مدينة إستانبول على الشاطئ الأوروبى من مضيق البوسفور الذى يفصل ما بين قارة أوربا وقارة آسيا . ويحصر البوسفور من الجانب الشرقى ومضيق الدردنيل من الجانب الغربى ، بحر مرمرة ، ويمنعان — إذا شاءت تركيا — دخول أى مركب من البحر الأسود إلى بحر إيجه ، فالبحر المتوسط أو العكس . ويبلغ عدد سكان إستانبول مليوناً وربع نسمة . وهى أكبر مدن تركيا ، وتعد مركزاً للتجارة والمال والأعمال المصرفية ومصانع النسيج

وإنتاج النحاس والأوانى الفضية الدقيقة والحرير وصناعة الدخان وأعمال الموانئ من شحن وترانزيت وجمارك وغيرها .

وبعد ما أدخل عليها من إصلاحات تناولت المواصلات البرية والبحرية والطرق والفنادق وأماكن الانتجاع فى جزر الأمراء وفى يالوفا ، غدت إستانبول مدينة سياحية ، يقصدها السائحون من مختلف الدول ، لاعتدال جوها ولما تحويه من آثار بيزنطية ورومانية ، ولما تضمه من كنوز قصور السلاطين ، ولسيطرة سحر الشرق الذى يضوع من جنباتها ، ويجذب السائح إليه كالأريج الذى تتعطر به الغوانى ، استجلاباً لإعجاب المحيطين.

وتقع على البوسفور أحياء عديدة سواء على ضفته الأوروبية أو ضفته الآسيوية . وهذه الأحياء تكاد تكون منفصلة . نذكر منها على سبيل المثال فندكلى ، وببك حيث يقوم القصر الصينى للسفارة المصرية فى أنقرة ، فوق أجمل بقعة من شاطئ البوسفور الأوروبى . وهناك من الأحياء ، قاضى كوى ، وأورطه كوى وتشانتاش وإيمرجان واستينيا وضاحية طرابية الجميلة وساريار التى يقع بعدها مباشرة مدخل البحر الأسود .. ولو أنه أقيم على شاطئ البوسفور كورنيش — وهو ما يحاوله المسئولون خطوة خطوة — يسير من إستانبول حتى مدخل البحر الأسود ، لضارع الكوت دازير الفرنسى جمالا وروعة وفتنة . وتجرى على مياه البوسفور الزرقاء ، معديات ( Ferry Boats ) تحمل مئات العابرين وسياراتهم لتنقلهم بين الضفتين أو القارتين ، كما تنقلهم بين الأحياء التى ذكرناها . وأكثر عملها يقوم على النقل بين إستانبول والشاطئ الآسيوى عند أسكودار ، وكذلك بين إستانبول وحيدر باشا على الشاطئ الآسيوى أيضاً ، وهى بداية خط السكة الحديدية التى تربط بين إستانبول وأنقرة مخترقاً الأناضول .

ولمن شاء أن يرى كل أحياء إستانبول التى تقع على ضفتى البوسفور ، أن يستقل إحدى هذه المعديات من رصيف إستانبول حتى يصل بها إلى ساريار عند مدخل البحر الأسود والعودة بها فيما لا يزيد إلا قليلا على

ساعتين ، وسط مناظر ليس أمتع للعين ، ولا أشرح للصدر ولا أطلق للخاطر من قضائهما بين خضرة ناضرة يانعة ، وماء ساكن ، لا تزعج أمواجه الركب ، وبين أحياء انتثرت فوق الضفتين ، وحيث تبدو للعين فى وضوح وعلى المدى القريب ، قصور سلاطين آل عثمان مثل قصر ضولمه باغجه وبيللر بك وغيرها كثير ، يزورها السائحون بعد أن أصبحت مزارات سياحية . ومن بين قصور إستانبول السياحية قصر توب كاپو حيث أقيم فى أحد أجنحته المتحف الحربى . وإلى جوار هذا المتحف ، جناح مستقل ، جمعت فيه من مختلف قصور آل عثمان ، جواهر ولآلئ وتيجان وملابس مطرزة بالجواهر وسيوف ومتعلقات آل عثمان التى تذهل الناظر بما تحويه من كنوز لم يستطع الخبراء الأجانب العالميون تثمينها . من بينها على سبيل المثال العرش الشاهانى الذى كان يجلس عليه هؤلاء السلاطين ، والذى يبدو مرصعاً بالنادر الثمين من الماس والزبرجد والياقوت واللؤلؤ والزمرد . وإن الناظر إلى هذا البذخ والترف الذى يفوق كل تصور ، يذهله ما كان ينفقه هؤلاء السلاطين من ثروات جمعوها من أقوات الشعوب التى كانوا يحكمونها فى آسيا وأفريقيا وأوربا . ولقد أحسنت حكومة تركيا الحديثة بجمع هذه الكنوز فى مكان واحد ، ليخرج المشاهد بفكرة واضحة مجلوة ، عما حمل زعماء الثورة الكمالية على إلغاء سلطنة آل عثمان وإلغاء الخلافة التى كانوا يتسترون وراء اسمها البراق فى عمل ما يروق لهم ، وبذلك أوقف مصطفى كمال ذلك التزيف الذى كان يترفه الشعب التركى ، والشعوب الأخرى المستعبدة ، لإرضاء شهوات السلاطين القدامى ، وتثبيت حكمهم بالجاه والاستعلاء وهذا المظهر من السرف والسفه . وبرغم الحراسة المشددة على هذه الكنوز ، فإن الزائر لا يلحظ دقة هذه الحراسة ، لفرط العناية والأمانة فى أدائها .

ولمن شاء كذلك أن يقضى رحلة بحرية إلى جزر الأمراء ، التى تعتبر ( بيوك أضه ) أكبرها وتليها ( هيبة لى ) التى يتدرب فيها طلاب المدرسة

البحرية ، أن يركب باخرة صغيرة معدة لهذه الرحلات فى خدمة منتظمة تقطع المسافة فى مدى ساعة . ويصطاف أثرياء الأتراك فى جزيرة ( بيوك أضه ) كما يؤمها السائحون للتمتع بجوها الساحر وشاطئها الرملى وهدوئها الذى أعان على تأمينه للناجعين فى الجزيرة ، منع السلطات لمرور أى نوع من وسائل النقل ، فيما عدا عربات صغيرة يجرها الحمير أو البغال ، لتنقل الراغبين فى مشاهدة أنحاء الجزيرة . وبالجزيرة فنادق للمصطافين ومطاعم ونواد وملاه . والظاهرة التى يراها السائح فى إستامبول وضواحيها ، ازدحام المطاعم بروادها . وقد علمت أن ذلك يرجع إلى دخول السيدات ميدان الخدمة العامة ، وإلى قلة الأيدى العاملة فى البيوت ، بعد انتشار المصانع ، وهذه أمور من شأنها أن تحمل الأسرة على البحث عن مأكلها فى المطاعم ، بدون أن يحرموا من الأطباق التركية الشهية التى تؤمنها لهم هذه المطاعم . وتقع هذه الجزر الثلاث فى بحر مرمرة .

ولإستانبول كذلك مصيف يتميز بمياهه المعدنية التى ثبت صحياً فائدتها للمعدة والكبد والأمعاء والكلى ، وهو مصيف ( يالوفا ) حيث يقوم به فندق ضخم تديره الحكومة ، وإلى جانبه فنادق متوسطة للمصطافين والزائرين الذين يقضون أيامهم فى المصيف ، ويتريضون فى حدائقه الغناء التى توافر المسئولون على إضاءتها ليلا بثريات تتخلل جداول مياهها المعدنية بأسلوب مبتكر جميل ، يجذب النظر ويسر الخاطر . وتقع ( يالوفا ) كذلك فى بحر مرمرة على شاطئه الآسيوى . ومياه هذا المصيف المعدنية ، تعبأ فى زجاجات وتباع فى إستانبول مع مياه أفيون حصار التى تقدم فى المشارب بدلا من الماء العادى الذى لا يشربه إلا من لا يقدر على شرب الماء المعدنى برغم أثمانه المعتدلة .

ومن الأماكن التى لا يجب أن يفوت السائح زيارتها ، سوق إستانبول الشهيرة ( كابالى شيرشى ) أى السوق المسقوفة . وبهذه السوق كل ما يمكن أن يخطر أو لا يخطر على البال ، من التحف القديمة والحديثة والأوانى

الفضية والمصاغ الذى اشتهر الترك بصنعه والسجاجيد والمنسوجات والجواهر والثريات النادرة ، ويقدر الخبراء محتويات السوق بمئات الملايين من الدولارات . والبيع والشراء فيه يجريان ويتمان معاً ، بطريقة يحسن بمن يريد أن يختصر الطريق للوصول إلى قمة ( الشطارة ) بدون شهادة أو ملحق أو إعادة ، أن يشاهدها على الطبيعة بين التاجر والمشترى ، الذى يبلغ فيه إغراء البائع للمشترى حداً يفوق إغراء ليدى ما كبث لزوجها على قتل الملك دنكان ليعتلى عرشه .

وإن من يزور إستانبول بدون أن يتناول غداءه أو عشاءه فى مطعم ( عبد الله أفندى ) ( مكسيم ) تركيا ، أو مطعم ( بنديللى ) فى إستانبول القديمة بمبانيها الأثرية ، التى تقتحمها العين ، حتى إذا دلفتْ إلى داخلها وقفت مشدوهة أمام البديع النادر من النقش والزخرفة والأثاث والرياش ، وكذلك مطعم (كارافان ساراى) بحديقته الغناء ، ومطعم ( حكمت بلك) على الشاطئ الأوربى من البوسفور بضاحية ( ستينيا ) ، فقد فاته التنعم بالأكل فى أحد هذه المطاعم ، ويكون قد فاتته نصف مباهج إستانبول .

* * *

كنت أستمع كعادتى بعد ظهر كل يوم إلى إذاعة القاهرة فى يوم ٢٣ يولية ١٩٥٢ ، وإذا بى أمام أكبر نبأ يمكن أن يستمع إليه مستمع ناء عن بلده .

فقد استمعت إلى بيان الضباط الأحرار الموجه إلى الشعب المصرى ، بوصفهم أعضاء مجلس الثورة ، بعزل الملك فاروق ، بعد أن كان الفساد الحزبى والسياسى ، فى سبيل الوصول إلى الحكم ، قد تغلغل وتفشى فى جسد الأمة حتى تركها عرضة للانهيار ، وليست أحداث حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ببعيدة . وذكر البيان الذى كان يلقيه العقيد محمد أنور السادت (رئيس الجمهورية الحالى) ، أحد أعضاء مجلس الثورة ، سبب هذه الثورة ، وما تنشده من إصلاحات وما سوف تستهدفه من

إجراءات تكفل تحقيق ما حددته من مبادئها الستة ، التى ما تزال فى الذاكرة حاضرة . وقد تم اختيار اللواء محمد نجيب رئيساً لحركة الضباط الأحرار ، ليتولى مع أعوانه منهم إدارة شئون البلاد ، إلى أن يستقر النظام الجديد للدولة على الوجه المنشود ، حتى تولاه مجلس قيادة الثورة برئاسة جمال عبد الناصر ، الذى انتخب فيما بعد رئيساً للجمهورية .

لم أتوان فى إبلاغ هذا النبأ الهام إلى السفير الذى كان يقيم مع بعض أعضاء السفارة فى مقرها الصيفى بضاحية ( ببك ) . وبعد ساعات وصلتنا برقية تتضمن النبأ المذاع . وكان على السفارة أن تتولى إبلاغ وزارة الخارجية والسفارات الأجنبية فى أنقرة ، كما تعين علىّ أن أقوم بإبلاغ والى المدينة وقناصل الدول المعتمدين فى إستانبول .

ولست فى حاجة إلى القول بأننا ــ أعضاء السلك الدبلوماسى المصرى فى الخارج ــ كنا أول من يتلقى مظاهر الرثاء والسخرية مرسومة على وجوه الدبلوماسيين الأجانب ، كلما ذاع نبأ مشين عن أعمال القصر أو رجال الحكم . وكنا ننطوى على مرارة لا حيلة لنا فى علاجها .

ولست كذلك فى حاجة إلى القول بأن أعضاء السلك الدبلوماسى فى أى دولة من الدول ، وأينما حلوا ، إنما هم وطنيون قوميون ، يضعون نصب أعينهم خدمة أوطانهم ، والبعد برسالتهم عن المهاوى الحزبية والانحرافات السياسية ، والارتفاع فوق كل ذلك ، حتى لا تستهدف أعمالهم وجهودهم سوى وجه الوطن دون ما نظر إلى ميول أو نزعات أو اتجاهات . فالسياسة الحزبية انحياز ، فى حين أن الدبلوماسية شمول وتجرد وتفان .

وهم ــ فى مثل ما مر بمصر من تغيير لنظام الحكم ــ كانوا فى الطليعة بإخلاصهم وتجردهم ، لشرح وتفسير الظروف التى أدت إلى هذه الثورة على الأوضاع التى كانت قائمة . وكانت عدتهم فى ذلك ، الصحافة والإذاعة أحياناً ، والأحاديث التى يدلون بها فى مختلف المناسبات والدعوات التى يقيمونها أو يدعون إليها ، وكانت الصحافة التركية لا تخفى اغتباطها

بزوال عرش سليل بيت محمد على الذى خان ذات يوم سلطانهم وخان الأمانة التى أقامه عليها .

ومضينا فى مسيرتنا المحددة بالتعليمات التى كنا نتلقاها من الوزارة بالقاهرة ، مضيفين إليها ما يتمشى معها من واقع معلوماتنا ومعايشتنا لما كان يجرى فى تاريخنا القريب ، مستعينين فى ذلك بسبق ممارستنا لأعمالنا سنوات عديدة .

فقدحدث بعد يوليةسنة ١٩٥٢أن كنت أرد زيارة لقنصل عام بريطانيا ـ وكان بدرجة وزير مفوض ـ وقد سبق له أن كان قنصلا عاماً لبريطانيا فى الإسكندرية حيث أمضى ثلاث سنوات جعلته ملماً بمجريات الأمور فى مصر . وقد جرّنا الحديث إلى قانون تحديد الملكية الزراعية بمائتى فدان أول مرة ومائة للأبناء فقال إنهم فى إنجلترا رفعوا الضرائب ـ فى سبيل تقريب الفوارق الطبقية ـ حتى كادت تصل إلى ١٠٠٪ بعد العشرة آلاف جنيه الأولى من ثروة المواطن . وكان هذا فى نظره علاجاً يغنى عن تحديد الملكية وتوفير الكثير من الجهد . وقد أجبته بأن الأمر فى مصر مختلف كل الاختلاف . فإن الهدف عندنا من تحديد الملكية ، إنما مرده إلى تصحيح أوضاع جاءت نتيجة الظلم الذى أحاق بما يزيد عن ٩٠٪ من مجموع السكان من حيث الملكيات الزراعية الكبيرة وبقاء أغلبية الفلاحين الساحقة لا يكاد يكفيها ما تملك أو ما تستأجر ، ففى عهد محمد على ، قام هذا الوالى بمسح الأراضى الزراعية فى مصر ، وضمها إلى ملكه ، ليوزع منها على أعوانه الذين حضروا معه ، أو المقربين إليه ؛ ما يشاء دون حسيب أو رقيب . وكانت الحكمة الكبرى فى ذلك تكمن فى خلق طبقة ثرية قوية متحكمة تحمى عرشه فى عهده وفيما بعده من ذريته . وقد بلغت ثروات بعض أعوانه عشرات الآلاف من الأفدنة بما عليها من فلاحين وأدوات ودواب ، حتى يصنع منهم فى مواقعهم حكاماً يدينون له بالطاعة ويستغلون نفوذهم الذى توارثه الخلف عن

السلف، حتى أصبحت العصبية الأسرية تتحدى سلطان الحكومة، فيما أتى بعد ذلك من أعوام، وعندما قامت ثورة ١٩٥٢ كانت هذه الأوضاع الاجتماعية والفوارق الطبقية من بين مبادئها التى عملت على علاج ما ترتب من مظالم سابقة. وتم توزيع الزائد من الأرض على المدقعين من الفلاحين الذين عاشوا كالإبرة التى تكسو الغير وتبقى وحدها عارية.

ومن فضل الفلاح على المجتمع، بسبب الفارق الكبير فى النسبة بين ما ينتج ومايستهلك، أنه غدا عونًا على انتظام تنفس الاقتصاد القومى فى مصر وفى بلدان أخرى عديدة وتجنيبها ويلات الهزات الاقتصادية.

* * *

منذ وصولى إلى إستانبول فى شهر فبراير من عام ١٩٥٢ والنشرات والمكاتبات والدعوات تترى على القنصلية العامة من إدارة سوق أزمير الدولية التى تقام بمدينة إزمير كل عام فى المدة من ٢٠ أغسطس إلى ٢٠ سبتمبر، حيث تساهم فيه الدول المشتركة بعرض منتجاتها ومصنوعاتها فى الأقسام المستأجرة من السوق.

وكنت أبعث إلى الجهات المختصة بالقاهرة للعمل على الاشتراك فى هذه السوق لعرض أحدث منتجاتنا، وبخاصة أن إسرائيل مشتركة فيها وغيابنا يمكن تفسيره بأنه هروب من المنافسة. ويبدو أن الوقت لم يكن متسعًا للبت فى أمر الاشتراك ولم تكن مصر قد اشتركت من قبل فى سوق إزمير، وانتهى رأى الجهات المختصة بتكليفى بزيارة السوق وحضور يوم الافتتاح وموافاة تلك الجهات بتقرير شامل عن مشاهداتى وانطباعاتى، يتقرر على ضوئه اشتراكها فى الأعوام التالية.

وقد أبحرت من إستانبول فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٥٢ بالباخرة أنقرة فى طريقى إلى إزمير. كانت الباخرة تشق طريقها وسط بحر مرمرة الهادئ الجميل حتى إذا ما حلك الليل كنا نمر أمام قلعة (جنا كلى) واسمها باللغة العربية ( جناح قلعه ) وهى القلعة التى تقابلها على الشاطئ الآخر

الآسيوى من الدردنيل غاليبولى حيث دارت بين الموقعين المنيعين بقلعتيهما القائمتين على مرتفعين شامخين ، المعركة البحرية التى أصر تشرشل وزير البحرية آنذاك على خوضها فى الحرب العالمية الأولى ، وراح ضحيتها عند اختراق أساطيل الحلفاء للدردنيل عشرات الآلاف من الجنود الأستراليين ، كما نقل تشرشل على أثرها إلى وزارة التموين .

سارت بنا الباخرة وهى تتهادى فى مضيق الدردنيل الذى كنا نرى شاطئيه ، حتى اتسع المسار أمامها لتمضى فى بحر ايجه نحو غايتها إزمير ، فبيروت فالإسكندرية ثم باقى الرحلة الدائرية حول موانئ البحر المتوسط .

هبطنا إزمير ثانى مدن تركيا بعد إستانبول ، فى اليوم التالى للسفر .

لقد شاب الزمان من حول إزمير ، وهى ما تزال غضة ناضرة . وأوغل تاريخها فى أغوار الدهر حتى لقد يصل ميلادها إلى آلاف السنين قبل الميلاد . وهى تحمل كذلك اسم ( سميرنا ) نسبة إلى إحدى عرائس الأساطير التى عاشت فى إزمير القديمة ، ورأت أن تخلع عليها اسمها فلازمها حتى اليوم .

وفى مدن خليج إزمير ، وبين دساكره وقراه ، يقولون إن هوميروس صاحب الإلياذة والأوديسا نشأ وترعرع . وكان هذا الشاعر الضرير يتنقل بين القصور والأكواخ ينشد شعره الذى غالب الزمن ورواه الخاصة والعامة ، وبقى يتردد قوياً كلحن الخلود . وكانت إزمير إحدى مدن سبعة ، تنافست على انتمائه إليها ، مثل خيوس ورودس وسالاميس وأراجوس وأثينا وكولوفون ، وإن كان أغلب المؤرخين ، على اتفاق فى انتمائه إلى إزمير .

وبمدينة إزمير آثار من العهد اليونانى أيام الإسكندر الأكبر . وكذلك من العهد الرومانى . وبعد غزو تيمور لنك لها وتدميره لمبانيها وتقتيل سكانها إلا من هرب فزعاً من هول ما رأى ، حكمها سليمان القانونى بواسطة حاكم ولاه عليها من قبله ، هو قبطان باشا أمير البحار .

وعند انتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ، احتلتها قوات اليونان بمساعدة أساطيل الحلفاء . وفى ١٩ من شهر سبتمبر عام ١٩٢٢ تم لمصطفى كمال إخلاؤها من القوات اليونانية المتقهقرة بعدما نزل بها من هزيمة حملتها على أن تشعل الحرائق بها عند انسحابها ، كما عمدت بوارج الحلفاء إلى رميها بوابل من قنابلها ، حتى تركوها حطاماً كأن لم تكن بالأمس عروس بحر إيجه . ولهذا يلاحظ الزائر لها اليوم ، أن أغلب مبانيها جديد ، وشوارعها متسعة مستقيمة ، وحدائقها وأشجارها تلتف بها أينما اتجه البصر عن يمين أو عن شمال .

وقد اختيرت إزمير مقراً للقيادة العامة لقوات القطاع الجنوبى الشرقى لحلف الأطلسى منذ عام ١٩٥٠ ، وعهدت إلى الأسطول الأمريكى بإقامة منشآته وأحواضه واستحكاماته فى إزمير ، ليتولى الإشراف على هذا القطاع ، وليتخذ من إزمير قاعدة بحرية له برغم تذمر قطاعات كبيرة من السكان . وقد تم ذلك فى عهد حكم الحزب الديموقراطى فى تركيا . وقد جاء ذلك الإجراء مطابقاً لاستراتيجية أمريكا التى تعتبر أن حدودها الآمنة ، تمتد وتتسع حتى تصل إلى صورة متكاملة للعالم . فأوربا وأفريقيا وآسيا فيما عدا الصين الشعبية حدود آمنة لأمريكا ، ما دامت تفصل بينها وبين الاتحاد السوفيتى وتتيح لها إقامة قواعد فى دول هذه القارات طالما كان الموقع استراتيجياً بالنسبة لها . وقد تسنى لها أن تقيم قواعد فى أوربا وفى البحر المتوسط وفى كافة المحيطات وفى تركيا والحبشة وإيران ، تخضع للعسكرية الأمريكية وللنفوذ السياسى الأمريكى .

وكانت إزمير من قبل ذلك من أكبر موانئ بحر إيجه ، وموانئ تركيا كلها . وتمشياً مع هذه الأهمية أنشأنا فى أول العهد بالسلك الدبلوماسى المصرى ، قنصلية مصرية فى إزمير . وقد قص على أول قنصل من الزملاء تعين بها قصة مفادها أنه عندما عثر على دار للقنصلية ، وقام بتوقيع العقد، أرسل طبقاً للتعليمات المالية، صورة العقد وأرفق بها رسماً للدار وبيانا

يصف محتويات الدار ، وزاد فى الدقة حتى أدخل نفسه فى المساءلة ، عندما ذكر أن الدار تحيط بها حديقة صغيرة مسورة ، وكانت وقت توقيع العقد مزروعة خياراً وقثاء وقرعاً إسطامبولياً . ذلك أنه لم يمض سوى شهور معدودة ، حتى تلقى من الإدارة المالية كتاباً تخطره فيه بأنه بمراجعة حسابات متحصلات القنصلية ، لم يرد ذكر لمحصول الحديقة من خيار وقثاء وقرع ، وهى ترجو بعد بيع المحصول، توريد ثمنه إلى خزينة المتحصلات ، بعد عمل ممارسة بين المشترين طبقاً للتعليمات المالية . . . .

ويحتضن إزمير خليج يضم أطرافها وينسحب بها إلى أعلى فى مدرجات تأخذ فى الارتفاع من الشاطئ على شكل ( انفتياتر ) حتى يصل إلى قمة جبل باجوس الذى يرتفع ١٨٠ متراً فوق سطح البحر .

وتبلغ مساحة إزمير وضواحيها ٥٤٣ كيلومتراً مربعاً ، وتضم هذه المنطقة ٦٨٠ قرية . ويبلغ عدد سكان إزمير وحدها ربع مليون نسمة .

وتقام سوق إزمير الدولية على حديقة للبلدية أنشأها مصطفى كمال تبلغ مساحتها خمسين فداناً ، وأسماها (كولتورباركَ) .

وقد قام بتنسيقها متخصصون فى إنشاء الحدائق حتى أتت تحفة بين الحدائق العالمية نظاماً واتساعاً ونضارة وتنسيقاً .

وفى ذلك العام ، اشترك فى تلك السوق أربع عشرة دولة كبرى ، و٩٣١ مصنعاً ، واشتركت تركيا بمصنوعات ٨١٣ مصنعاً ومحلاً تجارياً . وحرصت أمريكا على أن تعرض أحدث آلاتها الزراعية والصناعية ونماذج للطائرات والموتورات وأدوات الكهرباء المنزلية .

وبعد عودتى إلى إستانبول بعثت بتقريرى لإدارة المؤتمرات والهيئات الدولية والإدارة الاقتصادية ، وكان مما اغتبطت له ، أن قررت لجنة المؤتمرات والمعارض الدولية ، الاشتراك فى هذه السوق فيما أتى بعد عام ١٩٥٢ من أعوام .

* * *

كان خط شركة ساس للطيران ينتهى فى إستانبول . وعندما رأت الشركة أن تمد خدمتها إلى القاهرة لتكون هى نهاية الخط الجوى ، تم الاتفاق بينى وبين وكيل الشركة النرويجى أن أسافر عند افتتاح هذا الخط ، على أول طائرة تكون وجهتها القاهرة ، وبصحبتى سبعة من الصحفيين الأتراك الذين يمثلون مختلف الاتجاهات للبقاء فى القاهرة أسبوعاً ، ثم أعود بهم على أن يلحقنا فى الطائرة التالية سبعة من الصحفيين المصريين لزيارة تركيا ، وذلك فى إطار تعميق التفاهم بين البلدين ، الذى كانت أياد كثيرة تتضافر على العبث به . وقد نجحت الرحلة ، وتمنيت لو أنه تم ذلك فى أجزاء كثيرة من العالم ، عندما تتعرض لأزمات تؤثر على الصداقة والتفاهم . فالصحافة تمثل السلطة الرابعة فى الدول .

وكنت فى سبيل الإطار نفسه ، على وشك أن أنجح فى ترتيب رحلة للقاهرة لوالى إستانبول — كان هو الذى أبدى رغبته فى القيام بها تمهيداً لزيارة يقوم بها وزير خارجية تركيا — للعمل على إزالة ما كانت تضعه من عقبات ، محاولات الإمبريالية ، لتوسيع شقة الخلاف لا لتضييقه . وحدث بعد أن تلقت القنصلية العامة الدعوة الموجهة للوالى من محافظ العاصمة ، وتحدد اليوم الذى يسافر فيه ، وقمت بدعوة زملائى القناصل العامين وكبار رجال المحافظة ومندوبى الوكالات والصحف وصفوة من أساتذة جامعة إستانبول وغيرهم من أصدقاء القنصلية ، للاشتراك فى توديع الوالى ليلة سفره فى غد تلك الليلة ، حدث أن شب حريق كبير فى تلك الليلة عند منتصفها فى بلدة كبيرة على الشاطئ الآسيوى من البوسفور ، لم يستطع معه السفر ، وإن كان من الواضح أن تدبير الحريق كان مخططاً ، بدليل أن الوالى تلقى فى ذلك الأسبوع ، عدة دعوات من محافظين فى الولايات المتحدة ، لزيارة ولاياتهم . لصرف أنظاره عن السفر إلى القاهرة .

وكنت أرجو من وراء مثل هذه الزيارة إيجاد أرضية لتفاهم يقلل من

توتر النفوس . وفى الترك تعصب لوطنهم يعميهم عن سلوك السبيل المألوف ، ويخرج بهم عن حدود الاتزان. حدث أن كنت مدعواً فى حفل مسابقات وعروض رياضية . وكان الجو قارس البرودة وكنت أضع قبعتى فوق رأسى استجلاباً للدفء . ولم يكن قد مضى على وصولى أسابيع معدودة . وكانت الموسيقى تعزف أناشيد ومقطوعات ذات شهرة عالمية كنت أعرفها وفجأة عزفت نشيداً لم أدرك أنه النشيد القومى التركى . وإذا بى أرى أحد الجالسين خلفى يخلع قبعتى بنفسه من فوق رأسى بدون أن يترك لى هذا الشرف ، مثلما فعل عكس ذلك نابليون عندما أراد البابا أن يلبسه التاج ، فبادر نابليون ووضعه بيديه فوق رأسه عند تتويجه .

وفى يوم ذكرى وفاة أتاتورك ، حضرت مظاهرة أمام دار القنصلية العامة لتحتج على عدم تنكيس العلم المصرى فوق الدار . وقد استقبلت ثلاثة منهم ، أفهمتهم أن المستخدم الذى يتولى مهمة رفع العلم أو تنكيسه فى الأعياد القومية لمختلف الدول ، بموجب قائمة يحملها بتواريخ تلك الأعياد ، هذا المستخدم تركى الجنسية ، وبهذا تنتفى أية شبهة فى الاستخفاف بهذا اليوم ، وإننى سوف أوقع به أشد العقاب . وعند ذلك تخاذل المحتجون عندما علموا بجلية الأمر وبجنسية المسئول ، والتمسوا مجرد لفت نظره .

* * *

صدرت فى أواخر شهر أبريل من عام ١٩٥٣ حركة دبلوماسية شملتنى بالنقل من إستانبول وبتعيينى مستشاراً أول لسفارة الجمهورية المصرية فى أنقرة لأحل محل المستشار الزميل والكاتب الكبير الأستاذ يحيى حقى ، الذى كان قد تقرر نقله من أنقرة وتعيينه وزيراً مفوضاً لمصر بالمملكة الليبية آنذاك .

غادرت إستونبول فى الأسبوع الأول من شهر مايو عام ١٩٥٣ بالقطار من محطة حيدر باشا التى تقع على الضفة الآسيوية من البوسفور . وكانت المسافة بين إستانبول وأنقرة يقطعها القطار فى ١٤ ساعة ، ينصرم أغلبها

فى أحشاء الليل ودياجيه ، بدون أن تتاح للركاب فرصة مشاهدة الأناضول ، الذى هو تركيا الحقيقية منذ العهد الطورانى .

وتقع أنقرة وسط جبال تحيطها من كل جانب ، حتى لقد شبهها أحد اليونانيين الأوائل عندما رآها من مرتفع ، بأنها ومن حولها الجبال تشبه ( هلب ) المراكب حيث تمثل أطراف ( الهلب ) الجبال المحيطة التى تقع فى قاعها أنقرة . ويقول بعض المجتهدين ، إن اسم أنقرة مشتق من كلمة Anchor أى ( الهلب ) .

وقد كانت أنقرة قرية فى صميم الصحراء والريف الأناضولى ، لا يوجد إلى جانبها من المدن الكبيرة سوى إسكيشهر وبروصه وأفيون‌قره حصار ، وبين أنقرة وبين أقرب هذه المدن مسافة ٣٠٠ كيلو متر . وتقع أنقرة على رافد صغير من روافد نهر ( سقاريا ) . وهى لا تعتمد قليلا أو كثيراً فى الرى ، لصعوبات فنية ، على هذا الرافد ، وبخاصة فى دائرة محيط أنقرة ، ولكن مصطفى كمال الذى كان يتخذها قاعدة لحركته للاستقلال ببعض ولايات الأناضول عن حكم الخليفة العثمانى فى إستانبول ، عمد عندما دان له السلطان إلى تخطيط المدينة على أحدث طراز ، وصرف همه إلى الاعتماد على ادخار مياه الأمطار الصيفية الغزيرة فى مخازن تشبه البحيرات الصغيرة Reservoirs للاستفادة منها طول العام . وقد أقيمت بأنقرة على جوانب شوارعها المستقيمة مبان ومنازل ودور للهيئات وللأفراد ، كان قانون المبانى يحتم على كل مالك أن ينشئ حديقة أمامية لداره يزرعها بالزهور وحديقة خلفية لزراعة أنواع من الخضراوات وبعض الفاكهة . ولما كان الماء شحيحاً فى أول العهد بإنشاء العاصمة ، فقد كانت مياه الاستعمال اليومى ، تصرف بالتناوب ، شارعاً بعد شارع . وكانت الأفضلية فى صرف المياه للمزروعات . وبعد سنوات قليلة معدودة ازدهرت العاصمة وامتلأت بالمبانى الحكومية الضخمة ومن بينها مبنى المجلس الوطنى الكبير ومبانى

السفارات الأجنبية ودار الأوبرا والفنادق . كما انتشرت الحدائق الواسعة التى استحدثت لتزيد من خضرة العاصمة ، ولتساعد على عملية التبخر التى يعقبها المطر ، الذى يتجمع فى مخازنه التى سلفت إليها الإشارة . لقد كان هذا العمل من الأعمال الجبارة التى أخضعها لعزمه وتصميمه ، مؤسس تركيا الحديثة ( أتاتورك ) .

وكان عدد السكان فى ذلك الوقت من عام ١٩٥٣ ، يبلغ ٣٠٠ ألف نسمة . وكانت وسائل الترفيه محدودة ، لاتتجاوز ثلاثة أماكن للصور المتحركة وأوبرا موسمية وفندقين متوسطين وحدائق عديدة مترامية المساحات ، خصصت إحداها للأطفال ، ومطاعم راقية معدودة وكانت حفلات السفارات تساعد على شغل فراغ الدبلوماسيين ، إلى جانب رحلات للضواحى القريبة والبعيدة فى أيام العطلات الأسبوعية .

وقد كان وفاء مصطفى كمال للمدينة التى اتخذ منها مركز قيادته لثورته على الغاصب المحتل لأهم مناطق من وطنه ، وعلى خلافة آل عثمان التى أفضت فى نهايتها إلى ما وصلت إليه تركيا من ضعف أغرى بها الأعداء ، كان هذا الوفاء من بواعث اختياره النهائى لعاصمة الجمهورية عند إنشائها فى ٢٩ أكتوبر عام ١٩٢٣ .

وفى مطلع الثورة الكمالية كانت أنقرة هى مركز تجمع نواب كافة الألوية فى الأناضول فى مجلس أقاموه لهذا الغرض هو الذى على أساسه تكون المجلس الوطنى الكبير عند المناداة بالجمهورية ، بعد أن لفظت دولة آل عثمان آخر أنفاسها وبعد أن ألغى مصطفى كمال الخلافة فى ٣ مارس عام ١٩٢٤ مثلما ألغى سلطنة آل عثمان من قبل ذلك فى نوفمبر من عام ١٩٢٢ . كذلك كان من بين دوافع اختياره لأنقرة مقراً لعاصمة أول جمهورية تركية ، البعد عن وكر الدسائس والمؤامرات فى إستانبول التى كانت تعج بعملاء الدول الطامعة فى وقت كان يريد أن يتفرغ فيه ، وهو فى أول طريق الاستقلال الحقيقى للبلاد ، لتنفيذ

مخططاته العسكرية والخارجية والاجتماعية والعلمية والإصلاحية وبإيجاز لإقامة دولة على ركائز وقوائم لا تمت بصلة للدولة العثمانية القديمة ، إلا من حيث التراث المشترك من عادات وتقاليد ، لم يشأ أن يصدم النفوس بالتعرض لها فى بادئ الأمر ، ولكنه راح يروض النفوس على تقبل ما كان يريده من تغيير الكتابة العربية إلى كتابة بالحروف اللاتينية ومن أداء الأذان باللغة التركية ومنع الظهور بملابس رجال الدين فى الشوارع والتحتيم على كل صاحب مقهى بأن يزوده بكتب لرواد المقهى بدلامن لعب النرد والدومينو . وكان يطلق على هذه المقاهى ( قراءات هانه سى ) أى مكان القراءة ، أو المكتبة ، ثم إبطال الغناء والموسيقى التركية القديمة واستبدالها بموسيقى الكونسير والجاز والسوناتا وهو أمر لم يعش من بعده يوماً واحداً . ويحسن فى هذه الشئون تركها لسنة التطور .

* * *

بعد أسابيع من إقامتى فى أنقرة ، رحل السفير وبعض موظفى السفارة ، كالمتبع فى صيف كل عام ، إلى المقر الصيفى للسفارة فى ضاحية ( ببك ) على البوسفور ، وبقيت أنا وبعض الزملاء الدبلوماسيين لأقوم فى غيبة السفير بأعماله ، طوال شهور الصيف .

لم أعمل من قبل فى السفارات إلا شهوراً فى أثينا . وفجأة وجدت نفسى أمام عمل دبلوماسى كبير ، أنا على رأسه ، وعلى أن أقوم به وأنجزه على أحسن وجه ، فى هذا المنصب الرفيع . وربما قربت إلى ذهن القارئ ، هذه الصعوبة المباغتة ، بضرب المثل بقاض فى محكمة ابتدائية ، قضاياه كلها مدنية ، يكاد ينسى مع الوقت عالم الجنايات وموادها وفقراتها ، وإذا به ينتقل إلى سلك النيابات حيث لا عمل له إلا فى الجنايات والجنح والإيقاع بمن تثبت إدانته فى الجرائم التى يحققها لينال جزاء ما اقترف مثل هذه النقلة تحتاج إلى بعض الوقت حتى يعاود

القطار مسيرته فوق القضبان .

على أن درايتى بالعمل بالسفارات ، كانت دراية نظرية ، نماها ما كنت أقرأه من كتب التاريخ الدبلوماسى والقانون الدولى والدراسات السياسية والدبلوماسية التى توفر على إصدارها كبار الساسة والدبلوماسيين أمثال نيفيل هندرسون ، وه. نيكلسون وجول كامبون وفيلكس جلبرت وما نشره أصدقاء فيليب بارتيلو عن أعماله عندما شغل منصب سكرتير عام وزارة الخارجية الفرنسية عشرات السنين ولكنى وجدت أن القراءة النظرية شىء والممارسة العملية شىء آخر . صحيح أن الخلفية تساعد على اتساع الأفق والإحاطة والشمول ، إلا أن أكثر ما يميز الدبلوماسى عوامل ولدت معه ومواهب تميز بها ، فى مقدمتها حاسة الاستقراء والتنبؤ بالنتائج من المقدمات ، والذوق السليم ، وحسن التصرف وشجاعة القلب ، وبراعة الحديث ، ومعارف عديدة من كل فن وعلم والإحاطة بما يجرى حوله ومأتى ذلك وباعثه ، والإحاطة بكل ما يتصل ببلده من تاريخ وسياسة واجتماع وتيارات فنية فى مختلف مجالات الفنون .

وإذا استطاع الدبلوماسى أن يوفق بين عمله فى المكتب ولقاءاته خارجه ، فليطمئن إلى أنه كسر حاجز الصوت ، وانطلق إلى فضاء واسع الأرجاء .

مضت الأيام تجرى فى سيرها الوئيد ، والعمل يجرى فى مستقر له ، إلى أن احتشدت فى الجو السياسى فى تركيا ، سحائب تجتذب الانتباه مثلما يجذب الرادار مشاهد نائية ، أبعد ما يكون النوى . وكان فى مقدمة المسائل السياسية ذات الأهمية القصوى ، وصول مستر دالاس إلى أنقرة . وفى زيارته لمصر عام ١٩٥٤ فشل فى ضمها إلى حلف بغداد وقد تخلفت عن هذه الزيارة لمصر عام ١٩٥٤ مرارة ما تزال قائمة . وكان حنق أمريكا على رفض انضمام مصر ، بداية للمواجهة الساخنة مع إسرائيل بتحريض أمريكا ، فيما بعد . وقد كان نجاح مصر عام ١٩٥٤ فى

إجلاء بريطانيا عن قاعدة القناة من حوافز أمريكا لضم مصر لهذا الحلف ، لتملأ بذلك الفراغ المتخلف عن الجلاء ولتسيطر أمريكا على منطقة الشرق الأوسط . وتلا ذلك تحرك مواضيع خلاف بين روسيا وتركيا ، لم تستطع المعاهدات الموقعة بشأنها ، أن تضع حدا لها .

وكان يقتضيني متابعة الأنباء الجديدة التي توشك أن تتخلف عنها أزمة تشغل العالم بأسره ، أن أبادر بالذهاب إلى مكتبي في ساعة مبكرة من كل نهار ، إلى ساعة متأخرة منه ، لأوافي الوزارة بأنباء زيارة دالاس ومتابعة الأزمة القادمة .

وإذا كنت نسيت أن أذكر أن جو أنقرة قارى جاف ، فإنه فوق ذلك من أكثر الأجواء انتظاماً في بدايات ونهايات الفصول وما يتبعها من ظواهر جوية ، كالثلج أو المطر . فموسم المطر يبدأ في يوم معلوم ونهاية محتومة ، كأنه موسم الأوبرا في فيينا أو ميلانو . أما جفاف جو أنقرة ، فهو نسيج وحده ، لا يدانيه مثيل له في شرق أو في غرب ولم أكن أستطيع أن أنام أكثر من أربع ساعات في الأربع والعشرين ساعة . أقوم بعدها نشيطاً في الخامسة صباحاً ، لا أدري ماذا أفعل أو أين أذهب . ولم يكن ليفتح أبوابه في هذه الساعة سوى أقسام البوليس والمستشفيات الساهرة ، وليس بي حاجة لأي منهما . وهكذا كنت أذهب إلى مكتبي قبل حضور الزملاء والمستخدمين والسعاة والفراشين بوقت طويل . وكان التصميم المعماري الذي أقيمت على أساسه مكاتب السفارة — ولم أشترك في وضعه — يسمح لمن يجلس في مكتبي ، أن يرى كل داخل أو منصرف ، حتى لو تعمد عدم النظر ، كما لو كان مدخلا لسينما أو مسرح . فكنت عندما يمر أمامي الزملاء في ساعتهم التي يحضرون فيها قبل صلاة الظهر بقليل ، أعتذر لهم من حضوري مبكراً ، كما كانوا يعتذرون لي من أن تأخرهم مردّه إلى سهرهم على قطع ساعات الليل في محاولة النوم .

كانت الخلافات على المرور فى المضايق التركية والإشراف عليها وتسليحها، وكذلك الخلافات على بعض مناطق الحدود ( قرص وأردهان ) من أكثر المسائل التى تقف عقبة فى سبيل قيام تفاهم قوى الأواصر بين روسيا وتركيا من قديم الزمن .وبرغم أن الموضوعين قد أصبحا فى إطار معاهدات تنظم مسائل الخلاف ، إلا أن الخلافات السياسية عندما تتأزم، تبدأ فى تفسير بنود المعاهدات بما يتفق ومصلحة كل دولة .

فعندما أثارت روسيا فى عام ١٩٤٥ رغبتها فى الاشتراك فى الإشراف على المضايق ، مخالفة بذلك ما نصت عليه معاهدة مونترو الموقعة عام ١٩٣٦ من دول معاهدة لوزان فيما عدا إيطاليا وذلك استناداً إلى أن تركيا خلال الحرب العالمية الثانية ، لم تكن ملتزمة الحياد التام فى الإشراف على المضايق ، رأت تركيا أن تضع حداً لهذه المجادلات ، بإبداء استعدادها فى مذكرة مقدمة لروسيا فى ١٨ أكتوبر عام ١٩٤٦ ، لوضع مسألة إدارتها للمضايق أمام أى هيئة للتحكيم ، وأن تركيا على استعداد لدعوة الموقعين على معاهدة مونترو للمباحثة فى تعديلها ، مع استشارة الأمم المتحدة فى أى اتفاق جديد . وكانت مسألة المضايق والحدود بين البلدين ، كالبراكين التى تتحرك فى الحين بعد الحين .

ولم يحدث جديد منذ ذلك التاريخ ، ولم تظهر أى رغبة بدعوة إلى مؤتمر تبحث فيه الدول المعنية أمر تعديل معاهدة مونترو أو قيام معاهدة جديدة محلها ، ولكن حدث فجأة فى ٣٠ مايو عام ١٩٥٣ أن سلمت الحكومة السوفييتية للسفير التركى فى موسكو ، مذكرة أشارت فيها إلى رغبتها فى إقامة العلاقات التركية الروسية التى تهم البلدين بطريق مباشر على أساس من الود والتفاهم ، وأبدت استعدادها للدخول فى مباحثات تستهدف تحقيق هذه الرغبة ، وتنتهى إلى اتفاق الطرفين على مسألة المضايق وغيرها من مسائل الحدود ، بدلا من بقاء هذه

المسائل معلقة بدون التوصل إلى حل جازم بات .

لم تشأ تركيا أن ترد على مذكرة روسيا قبل أن تتشاور مع الأطراف التى دخلت تركيا معها فى محالفات واتفاقيات . فهناك حلف الأطلسى ، والحلف البلقانى الثلاثى ( تركيا — يوجوسلافيا — اليونان ) وهناك إلى جانب ذلك الدول المشتركة فى التوقيع على معاهدة مونترو وأهمها بريطانيا ، وهى دول معاهدة لوزان ( ١٩٢٣ ) فيما عدا إيطاليا .

وبعد أن أتمت تركيا هذه المشاورات ، بعثت بردها الذى أبدت فيه رغبتها فى الالتقاء مع روسيا على قيام علاقات الود والتفاهم فيما بين البلدين ، وأما فيما يختص بالمضايق فإنها ترى الفرصة سانحة لتذكير روسيا بأنها فى هذه المسألة تخضع لمنطوق معاهدة مونترو التى ينتهى العمل بها عام ١٩٥٦ ، والتى لم يتقدم عضو بطلب تعديلها منذ توقيعها ، وأنه لا بد من إجراء مشاورة بين الأعضاء الموقعين عليها ، إن أرادت روسيا أن تدخل عليها تعديلا .

كانت روسيا تستند إلى معاهدة بينها وبين تركيا موقعة عام ١٩٢١ قبل مونترو ، ومن بين نصوصها نص يحتوى على انفراد دول البحر الأسود بتنظيم العلاقات الدولية فيما بينها وفى مقدمتها الإشراف على المضايق . إلا أن تركيا ، فى مقابل ذلك ، رأت أن تثير جدلا ورد نص له فى معاهدة ١٩٢١ يعطيها الاعتراف من جانب روسيا باحترام حقوقها فى إقليمى ( قرص وأردهان ) اللذين تنازلت عنهما روسيا لتركيا بكامل رضاها ، فإذا شاءت روسيا أن تحيى تلك المعاهدة ( ١٩٢١ ) فعليها أن تكف عن المطالبة بهذين الإقليمين ، وهو مادأبت على المطالبة به خلال هذه المجادلات ، فى خطب زعمائها ، ومقالات رؤساء تحرير صحفها ، واستحداث عامل الإثارة فى هذا الحوار الساخن .

وما دمنا بسبيل بحث ما بين روسيا وتركيا من مسائل معلقة ، تأتى فى مقدمتها مشكلة المضايق ، فإن الأمر جدير بإلقاء نظرة عابرة على أصل

المشكلة من جوانبها التاريخية والسياسية[١].

كانت تركيا تتشبث بأن مضايقها (البوسفور والدردنيل) من منح الطبيعة السخية ، وأنه لا دخل ليد الإنسان فى إنشائها مثلما هو الحال بالنسبة لقناة السويس أو قناة بناما ، وأنها استناداً إلى هذا المنطق ، تكون هى وحدها صاحبة الحق فى الإشراف عليها بحكم تملكها لها ووقوعها فى منطقة سيادتها على أراضيها ، مثل نهر المسيسبى بالنسبة لأمريكا . وهى تملك هذا الحق ، منذ انتصار جيوش محمد الفاتح عام ١٤٥٣ وفتحها للقسطنطينية . وبعد أن تم لتركيا فيما بعد ذلك ، احتلال شبه جزيرة القرم ، خضعت كل الدول المحيطة بالبحر الأسود ، فيما عدا روسيا ، لسيادة تركيا ، كما أصبح البحر الأسود ، بحيرة تركية . وكان من الطبيعى أن تحتكر تركيا حق المرور فى المضايق بموجب هذه السيادة ، وتحرمه فى أغلب الأحوال على السفن الأجنبية ، وفق ما تراه ، مدى ثلاثة قرون.

والبوسفور فى اللغة التركية يعنى (الزور) من الرقبة. بمعنى أن من يتحكم فى هذه المضايق يتحكم فى الدول المحيطة بالبحر الأسود ، وبالدول التى يمر بها نهر الدانوب قبل أن يصب فى البحر الأسود مثل هنجاريا والنمسا ويوجوسلافيا ورومانيا وبلغاريا . وطبيعى أن هذه الدول ، تحتاج إلى ممر للوصول إلى البحر المتوسط ثم قناة السويس ، فلا سبيل لنقل بضائعها ومنتجاتها إلا عن طريق هذه المضايق . كما أن الدولة التى تتحكم فى هذه المضايق ، تخنق تركيا وتدعها تحت رحمتها .

وبعد حروب طويلة بين تركيا وروسيا ، كانت سجالا ، انتصرت روسيا فى حرب القرم عام ١٧٧٤ ، واضطرت تركيا بعد تدخل دولى كان يستهدف المحافظة على ميزان القوى ، عندما رأت دول أوربا أن روسيا

---

(١) تأخذ تركيا بنظام حكيم ، مؤداه الاستفادة من سفرائها المتقاعدين بتأليف مجلس استشارى من بعضهم ، تعمل وزارة الخارجية على استشارته كلما حزب أمر ، دون أى التزام برأى المجلس .

فى عهد كاترين كانت تريد أن تضم القسطنطينية إلى ملكها للإشراف على هذه المضايق ، اضطرت تركيا إلى قبول مبدأ حرية الملاحة فى هذه المضايق للسفن التجارية فقط ، ثم زادت تنازلات تركيا إلى أن نص عليها فى معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ ثم فى اتفاقية مونترو عام ١٩٣٦ وتحددت بتلك المعاهدات ، حقوق تركيا فى الإشراف على المضايق ، وفى منح الحق للسفن التجارية والحربية لكافة الدول بالمرور ، على أن يكون مرور السفن الحربية خلال الحرب فى أثناء النهار ، مع اتباعها فى سيرها ، الخط الذى ترسمه لها السلطات البحرية التركية .

ظلت هذه المجادلات شهوراً ، ساهمت الصحافة فى البلدين فى إشعالها وزيادة توترها . إلا أن ثبات تركيا ، واعتمادها على مساندة أمريكا والغرب لها فى موقفها ، تمسكاً بمعاهدة مونترو من جهة ، وخوفاً من سيطرة روسيا على المضايق إذا أجيبت إلى طلبها من جهة أخرى ، أخمد جذوة هذه المجادلات .

وغنى عن البيان ، أن هذه الفترة العصيبة ، قد شغلت السفارات الأجنبية فى أنقرة ، بالمتابعة والاتصالات الشخصية والكتابة إلى وزارات خارجيتها ، طالما كان النور الأحمر مضاء ، وما دامت المقدمات تنذر بخطورة ما يؤدى إليه التوتر ، إلى أن أضىء مرة أخرى النور الأخضر ، وعند الصباح يحمد القوم السرى .

وسيبقى أمر الإشراف على هذه المضايق وإدارتها ، مشكلة المشاكل[١] ، ومثاراً لخلاف دائم بين روسيا وتركيا . ويصعب كثيراً التوصل إلى حل ترضى به روسيا رضاً كاملا ، ويحمل تركيا على الرضا به ، وتوافق الأطراف المرتبطة بها تركيا كحلف الأطلسى وحلف البلقان ، على مثل

---

( ١ ) للمؤلف بحث عنوانه « مشكلة المضايق » تناول بالتفصيل هذا الموضوع وقد طبعته وزارة الخارجية المصرية وعممته على بعثاتها فى شهر سبتمبر عام ١٩٥٣ .

ذلك الحل . وهذا مما يجعل لهذه المشكلة أهمية تجاوز الطرفين المتعارضين ، إلى غيرهما من دول العالم ، التى يهمها أمر المرور من هذه المضايق فى حالى السلم والحرب .

* * *

بعد شهور من إقامتى بأنقرة ، صدرت حركة دبلوماسية ، على أثر إعادة العلاقات الدبلوماسية التى كانت مقطوعة بين مصر وألمانيا طوال الحرب العالمية الثانية وما تلا ذلك من سنوات احتلال الحلفاء للأراضى الألمانية ، قبل توقيع معاهدة باريس عام ١٩٥٣ ، التى مارست ألمانيا الغربية بموجبها بعض حقوق السيادة كما سيأتى بيانه .

وقد تضمنت هذه الحركة الدبلوماسية نقلى واختيارى لأكون المستشار الأول لسفارة مصر فى برن عاصمة ألمانيا الغربية عند إنشائها . وتلقيت عقب إخطارى بهذا النقل ، من السيد السفير المعين ، الذى تفضل وأشار بهذا الاختيار ، وهو العالم القادر ، مما حملنى على الزهو والاعتزاز ، أقول تلقيت تعليماته بالعمل عاجلاً على السفر إلى بون لاختيار مكان للسفارة ، ثم الإعداد لفتحها ، وإجراء المكاتبات المتعارف عليها دبلوماسياً فى هذا الشأن مع جهات الاختصاص إلى أن يصل من مقر عمله فى أثينا . ولقد كان مما أعتز به ، عملى مستشاراً للسفير أحمد ثروت .

غادرنا أنقرة إلى إستانبول بالطائرة ، وبعد أيام غادرناها على ظهر الباخرة التركية ( أضنه ) إلى مارسيليا ، مارين بيريه ثم نابولى ثم جنوا قبل الوصول إلى مارسيليا التى بقيت بها يومين وليلة ، لأستعيد ذكريات زمالة سابقة خالدة عام ١٩٣٥ فى القدس بينى وبين الزميل المغفور له الأستاذ كمال الدين صلاح الذى كان يشغل منصب القنصل العام لمصر آنذاك فى مارسيليا ، وهو الذى وافاه أجله ، فيما بعد ، فى الصومال وقت أن كان يجاهد كأفضل ما يكون عليه الجهاد فى سبيل الإنسانية ، وهو الجهاد الذى أبته عليه بعض المنظمات الاستعمارية ، عندما كان أحد

أعضاء لجنة الوصاية الثلاثية الموفدة من الأمم المتحدة للانتقال بالصومال من الحكم الإيطالي إلى الاستقلال ، فدست عميلا لها لطعنه بكل خسة ، وهو فى الطريق إلى عمله، وكان ذلك فى شهر رمضان عام ١٩٥٦ وكان صائماً ، وأبى أن يشرب ماء قدمه له الطبيب عندما نقلوه إلى المستشفى ليلاقى وجه ربه ، وقد أدى ما عليه من واجب قبل الحياة ، ومن واجب قبل الله ، وقضى شهيداً كأوفى ما تكون عليه شهادة الأبرار .

ولم تكن مارسيليا غريبة عنى ، ولكنى فى رفقة الزميل الراحل الكريم ، رأيتها ، أو هو الذى أرانى بها ما لا تراه العين العابرة من مفاتن كورنيشها الجميل ، الذى يفضى فى نهايته إلى طريق ( نيس وكان ) حيث موائد الروليت والباكارا ، وهى طريق الندامة .

غادرنا مارسيليا بالقطار السريع إلى باريس لأقضى بها فترة قبل مغادرتها إلى بون التى بلغناها فى الأسبوع الثانى من شهر سبتمبر عام ١٩٥٣ .

## الفصل السابع

### فى ألمانيا الغربية :

غادرنا مارسيليا إلى باريس بالقطار السريع . إن الريف الفرنسى لوحة فاتنة للناظرين من فرط نضارته ، ومدى العناية به ، وعرفان قدره عند أهله . وبلغنا باريس بعد اثنتى عشرة ساعة . وبرغم كتمانى نبأ سفرى ، فقد رأيت زميلا فى انتظارى بمحطة باريس ، وهو اليوم من السفراء النابهين . وعلمت أن صديق العمر ، زميلى القنصل العام فى مارسيليا ، غافلنى واتصل بالسفارة وطلب إليها حجز حجرة لنا ، كما طلب إلى صديق له وزميل بالسفارة أن يستقبلنى . وكنا فى مطلع شهر سبتمبر . وباريس فى هذا الشهر على وجه الخصوص ، تشرح القلب الشجى . وتجبر الخاطر الكسير ، وتمسح عن الصدر المكدود ما يريم عليه .

أمامى ثمانية أيام لا تزيد . على أن أرى فيها ما أحب من باريس . وهل فى باريس ما لا يحب ؟ . ماذا أرى وماذا أدع . أمامى ورقة امتحان مليئة بالأسئلة ووقت الإجابة عليها لا يتسع لها كلها . فلنأخذ الأمر بالحيلة . لقد قسمنا اليوم نصفين . نصفه النهارى للمتاحف والآثار والقصور . ونصفه المسائى لمباهج باريس ومطاعمها التى يغمرها هناء لا تدرى مأتاه ، وتفيض من جنباتها موسيقى وأضواء كلها أنس وإيناس . والنفس مشتاقة للحى اللاتينى ومنتدياته ورواده الغارقين بين شطين من الرومانسية والسريالية. إن باريس وطن كل غريب، ووطن كل فنان. والفنان له موطنان. وطنه حيث ولد، وباريس حيث يهفو ويقتدى.

إن من يعرف الشعب الفرنسى وخصائصه وطريقة معيشته وآماله وطموحه ، إنما يعرف فرنسا نفسها . وكل من تتاح له معرفة الشعب الفرنسى ، سوف يحب ذلك الشعب من كل قلبه ، ولعل من خصائص الفرنسيين الرئيسية ، عمق شعورهم نحو بلادهم ، وولاءهم الشديد لوطنهم ، وافتخارهم بما تحويه من كنوز وجمال ومفاتن ، ينعم فى أجوائها ، ويتغنى حسنها وتفردها ، ويدعو الآخرين من مختلف الشعوب ، ليشاركوه ما أفاءه الله على وطنهم من نعم سائغة موفورة .

زرنا قصر اللوفر حيث كنوز الفن تزيغ البصر ، ويرتد عنها أكثر نهماً لرؤيتها من جديد .

وجلنا فى أبهاء قصر فرساى وصالوناته التى شهدت أعجب القصص وحوت أندر التحف . ورأينا قصر شايو حيث تعقد فى قاعاته الوسيعة أخطر المؤتمرات الدولية ، وجلسات مجلس الأمن فى إحدى السنين . ومررنا بالأنفاليد الذى شيده لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٠ ليأوى جرحى الحروب والعجزة من الضباط والجنود . وقد ضم رفات نابليون بونابرت عام ١٨٤٠ . وزرنا برج إيفل وقوس النصر وميدان الكونكردا ودار الأوبرا والكوميدى فرانسيز وكنيسة المادلين ونوتردام دى بارى الشامخة

العريقة . أما الشانزليزيه فهو كفيل بأن يبدد ساعات نهار وليل متتاليين لرؤية بعض ما حواه . ولمن يحب اقتناء النادر من الكتب أن يدلف إلى شاطئ السين حيث أكشاك بيع الكتب والمطبوعات والصور وأما غابة بولونيا ، فإنها فى حاجة ، للتمتع بما حوته من مغان ومنتديات ، إلى أسبوع يضيع نصفه فى مشاهدة ما تضمه فى حنان ، ونصفه فى مشاهدة روادها من عشاق موصولين أو مهجورين :

يا غاب بولونيا سعدت وعشت يا غاب الهوى
كم ذكريات للأحبة فيك والذكرى دوا
أغصانه ملتفةٌ مشتاقة تشكو الجوى

* * *

ومن الأشياء أشياء تحيطها المعرفة ، ولا تدركها الصفة . وعلى رأس هذه الأشياء باريس : تاريخاً وحضارة وعلماً وفناً ومعرفة ولهواً وذوقاً وكوناً فريداً لا يدانيه مثيل . إن شئت لهواً وجدته حاضراً ، وإن شئت علماً نهلت من أصفى المنابع وأصدقها .

غادرنا باريس كمن يحثونه على القيام عن مائدة حوت كل ما ينساغ عذباً فى اللها ، ولم يكن قد نال منها إلا لقيمات ، وكل ما فى الحياة من مفاتن ومباهج ، ورغبات مطلوبة ومآرب مرغوبة ، لا نناله إلا بمقدار ، كما أن التماس راحة اليأس منه ، والسلو عنه ، يصعب تحقيقه ونعجز عن قهره :

إذا اعتادت النفس الرضاع من الهوى فإن فطام النفس عنه شديد

* * *

وصلنا بون قبل الظهر ، وكان فى انتظارنا زملاء السفارة الذين تعجلوا إنزال ما كان معنا من حقائب ، سبقها شحناً حقائب كبيرة منذ أبعد من شهر . وكان مرد العجلة فى النزول ، إلى أن ( بون ) برغم أنها عاصمة ألمانيا الغربية التى تعد خمسين مليوناً من الأنفس ، كانت قرية لا يقف القطار فى محطتها سوى دقيقتين اثنتين . وظل هذا التقايد

معمولا به محافظة على تطبيق القوانين الألمانية الصارمة فيما هو أدنى من ذلك . وكثيراً ماحمل القطار حقائب الكثيرين من رجال السلك الدبلوماسى الأجنبي إلى كولونيا ، وهى المحطة التالية لبون ، نتيجة لتخلف هؤلاء عن الإسراع فى النزول . وقبل اختيار ( بون ) لتكون عاصمة لألمانيا الغربية ، ( إلى أن يتم اتحاد الجمهوريتين الغربية والشرقية ، الذى أوشك أن يتجمد على وضعه الحالى ) ، لم يكن بها من شىء يستحق الذكر ، سوى جامعتها ، التى لم يكن ليرفع من ذكرها هى الأخرى ، سوى أن البرنس ألبرت زوج الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا ، تلقى علومه بها . وبالجامعة صالة باسمه ( ألبرت هول ) . كذلك تشتهر ( بون ) بأنها محل ميلاد الموسيقار الكبير ( بيتهوفن ) الذى يتوسط تمثاله أشهر ميادين العاصمة ، كما أن من مزارات بون السياحية المنزل الذى ولد فيه ( بيتهوفن ) والذى جمعوا فيه البيانو الذى كان يستعمله وبعض نوتات سيمفونياته الخالدة وأفلام وإعلانات لحفلاته الموسيقية وصور له ولبعض من اتصل بهن من السيدات ورسائلهن إليه .

لم يكن تعداد بون عام ١٩٥٣ يزيد عن ١٣٠ ألف نسمة . وكان يحلو لبعض معارضى كونراد أديناور مستشار ألمانيا الغربية منذ عام ١٩٤٩ قولهم إن المستشار اختار بون عاصمة لألمانيا الاتحادية ، لأن بلدته ( بادهانوف ) التى بنى بها قصراً ريفياً جميلا ، تقع على الضفة المقابلة لبون على نهر الراين . وكان يقيم فى هذا القصر الريفى ، ويذهب إلى دار المستشارية فى بون صباح كل يوم فيما لا يزيد عن ربع الساعة . وقيل غير ذلك كثير . ولكن حقيقة اختيار بون كعاصمة ، يرجع إلى أنها بهيئتها كقرية ، لا تصرف أذهان الألمان عن طلب الوحدة ، وعودة برلين عاصمة لألمانيا بقسميها . ولو أنهم اختاروا ديسلدورف أو كولن أو فرانكفورت ، ودبت فى هذه المدن ما يدب فى العواصم من توسع فى المبانى والإنشاءات ، فوق ما بها ، لكفت الأذهان عن التفكير فى

برلين كعاصمة . هذا إلى جانب أن بون تبرأت من وجود ثكنات عسكرية لجيوش الاحتلال الثلاثى لأمريكا وفرنسا وإنجلترا التى توجد فى الشمال وفى الجنوب وفى الجنوب الشرقى ، حتى لا تصدم العيون عقب الهزيمة برؤية جنود الأعداء فى عاصمتهم .

كان أول ما سعينا إليه ، البحث عن دار للسفارة تضم مكاتبها ، ودار لإقامة السفير . وكنت قد حجزت قبل قدومى حجرة فى فندق يواجه تمثال بيتهوفن فى ميدانه ، بقيت به عشرة أشهر لصعوبة الحصول على مسكن فى بلدة انقلبت فى غمضة عين من قرية إلى عاصمة ألمانيا الاتحادية وما تضمه العاصمة من مبانى المستشارية والوزارات والمصالح والهيئات الدبلوماسية ومجلس النواب والمجلس الاستشارى ومكاتب المهن الحرة ومعامل البحث ، وفى إيجاز كان ذلك أشبه بعملية وضع الفيل فى منديل أو المارد فى قمقم أو البغل فى الإبريق .

وكنت مع المستشار الثانى وسكرتير السفارة وملحقها نذرع المدينة بحثاً عن مكاتب للسفارة بصورة مؤقتة ، كما كانت إدارة خاصة بوزارة الخارجية الألمانية تساعدنا فى هذا الغرض بدون جدوى . وكان المستشار الثانى الذى أمضى من حياته أكثر من عشر سنوات فى ألمانيا ، يدأب على حمل شنطة رجال الأعمال الألمان الضخمة ، ويضع فيها أختام كاوتشوك باسم السفارة وخاتماً بتاريخ متحرك ، وآخر نحاسياً بارزاً للمذكرات الرسمية وملفاً وأوراقاً وأقلاماً وختامة وخرامة ومشابك للورق وفواتير وإيصالات مدفوعة قيمتها ، وفى إيجاز كانت الشنطة مكتباً ( بورتاتيف ) . ولما كانت مكاتب السفارات قد جرى العرف الدباماسى على تسميتها Chancellerie فقد قلت للزميل المستشار من باب العزاء عن عدم وجود مكتب للسفارة : إننى سأخلع على شنطتك الدبلوماسية اسم ( شانطيليرى ) .

وأخيراً عثرنا على فندق صغير لا تزيد حجراته عن ست ، وافق أصحابه على أن نحتل حجرتين فى مبدأ الأمر مع الوعد بالتوسع كلما خلت بالفندق

غرفة على ألا نزيد عن ثلاث حجرات ، أى خمسين فى المائة من حجرات الفندق . وقد حجزنا مكتباً للسفير من هذه الثلاث حجرات وحجرة لى ، وحجرة ثالثة كان يجلس فيها أعضاء السفارة من الدبلوماسيين ( أربعة ) وآنستان واحدة للترجمة والثانية للآلة الكاتبة ، وحاجبان ، يجلسون حول مكتبين اثنين ولا يرتفع قدر واحد منهم عن الثانى إلا بقدر حجم جسمه وما يشغله من الغرفة الضيقة نسبياً . وبعد حين وجيز ، انضم للزملاء فى حجرتهم الوحيدة ، المستشار التجارى للسفارة ، الذى كان يصر على أن يدق الجرس للحاجب الجالس بجواره . . .

أخذنا فى الإعداد لتقديم أوراق اعتماد السفير عندما وصل إلى بون . وكان حفل تقديم الأوراق بسيطاً ، لا تتخلله خطب كما هو المتبع فى بعض العواصم . وقد ذهب موكبنا إلى قصر رئيس الجمهورية فى ثلاث سيارات وكان يتقدم الموكب ثمانية من راكبي الدراجات البخارية من الحرس الجمهورى تليهم سيارة السفير الذى جلس إلى جانبه مدير البروتوكول ، وسيارة تقلنى مع وكيل البروتوكول ، وسيارة ثالثة استقلها أعضاء السفارة . وعدنا عقب تقديم أوراق الاعتماد بالترتيب السابق نفسه .

كانت ألمانيا الغربية قد حظيت عام ١٩٥٣ بالاعتراف من جانب دول الحلفاء الثلاثة ، أمريكا وفرنسا وبريطانيا ، باستقلالها بموجب معاهدة باريس التى تم التصديق عليها من برلمانات هذه الدول الثلاث بعد ذلك بعام . وقد حقق ذلك لألمانيا ممارسة بعض حقوق السيادة فى حضور المندوبين السامين للدول الثلاث سالفة الذكر . وكان مندوب فرنسا أوسعهم شهرة وقدرة ، وهو فرانانسوا بونسيه ، الذى كان سفيراً فى برلين عام ١٩٣٦ حتى قيام الحرب عام ١٩٤٠ . كما كان من قبل فى العشرينيات رئيساً للمكتب التجارى بالسفارة الفرنسية فى برلين ، حيث ألم بأوضاع ألمانيا الاقتصادية إلمام خبير . ولقد أعانته هذه الخبرة عندما عمل سفيراً ثم مندوباً سامياً لفرنسا بعد الحرب .

كان كونراد أديناور هو مستشار ألمانيا الاتحادية ( الغربية ) منذ عام١٩٤٩ وقد أعيد انتخابه عام١٩٥٣ بفوز حزبيه على الحزب الاشتراكى الديموقراطى المعارض .

وكونراد أديناور من كبار سياسيي ألمانيا فيما بعد الحرب العالمية الثانية . وكان يشغل منصب عمدة كولونيا سنوات عديدة . وهو من الداعين إلى السلام مع فرنسا ، حتى لا تتكرر مأساة الحرب بين البلدين منذ الحروب السبعينية ١٨٧٠ ، ثلاث مرات .

وكان الحلفاء بعد انتصارهم فى حاجة إلى مثل هذه الشخصية التى تجمع إلى الوطنية والقومية الألمانية ، حب المسالمة والعمل على إشاعة الأمن الأوربى ، حدث أن كان أديناور يحضر اجتماعاً مع المندوبين السامين الثلاثة لأمريكا وفرنسا وبريطانيا فى فندق ( بيترسبيرج ) الذى يقع فوق قمة شامخة حيث يكشف شاطئ نهر الراين ويطل من عليائه على ما يجرى من تحته ، وعند ما انفض الاجتماع وهم المؤتمرون بالانصراف ، دعوا أديناور ليتقدمهم فى الخروج من باب الفندق ، لمقامه ولكبر سنه ، إلا أنه بسرعة خاطر خارقة قال لهم ، لو تقدمتكم لكنت ضيفاً عليكم ، ولكن أنتم ضيوفى إلى أن ترحلوا.

* * *

وفى ألمانيا الغربية مجلسان تشريعيان . مجلس ( البوند زتاج ) أى مجلس الشعب ، ومجلس ( البوند زرات ) أى المجلس الاستشارى . وجدير بالذكر أن مجلس ( البوندزرات ) يتكون من مندوبين ينتخبون من المجالس النيابية للحكومات التسع التى سلفت إليها الإشارة ، وبنسبة عدد سكان كل ولاية ، إذ أن لكل ولاية من الولايات التسع حكومة ومجلساً نيابياً تجرى الانتخابات فيها على أساس المبادئ الحزبية فى كل ألمانيا الغربية .

ولكل ولاية قوانينها التى يراعى فى سنها البيئة والحالة الاقتصادية والاجتماعية للإقليم .

أما فيما يختص بمدينة برلين ( التى تحتلها الدول الأربع ) ، بين شرق

وغرب ، فقد صدر تشريع يعطى برلين صفة الإقليم وصفة المدينة في وقت واحد ، وهو ما صادق عليه الحلفاء الثلاثة فى برلين عام ١٩٥٠ .

كانت معركة انتخابات عام ١٩٥٣ تجرى عندما كنت فى طريقى إلى بون من أنقرة لافتتاح السفارة . وكنت فى كل ميناء أو عاصمة أمر بها أجمع قصاصات الصحف التى تتناول أنباء الانتخابات. حتى إذا ما وصلت إلى بون كان قد اجتمع لى من المصادر الرسمية والصحفية ما يعين على كتابة تقرير عكفت على إعداده وبعثت به للوزارة مكتوباً بالحبر . وطبيعى أن يكون التقرير من صورة واحدة ، لعدم وجود آلة كاتبة عربية ، حيث لم تكن قد وصلت الآلات المشحونة من مصر ، كما لم يكن فى بون قبلنا أى سفارة عربية .

وبرغم ذلك ، فقد تلقينا من إدارة المحفوظات ، لفت نظر وتنبيهاً بضرورة إرسال تقارير السفارة للوزارة من أصل وأربع صور . وهذا أمر ميسور فى حالة وجود آلة كاتبة ، أما كتابة خمس نسخ من تقرير يقع فى خمس عشرة صفحة ، فإن الأمر يبدو كما لو كان عقوبة ينزلها المدرس بطالب نام ، أى متخلف ( بلغة السياسة المهذبة ) ، عندما يأمره بكتابة جملة مفيدة أو غير مفيدة ، مائة مرة . . .

* * *

حاولت أن أتعلم اللغة الألمانية حتى أستمتع بكل هذا الثراء العلمى والأدبى والمعمارى والصناعى والفنى والموسيقى والمسرحى . ولكن لسوء حظى ، وقع فى يدى كتاب باللغة الإنجليزية لتعليم اللغة الألمانية . وكان عنوانه . « اللغة الألمانية بدون مجهود » . وشاء المؤلف فى مقدمة كتابه ، أن يكون رفيقاً ورئيفاً بالمبتدئين ، فقال ما مؤداه : « إن اللغة الألمانية لغة جميلة. وستعرف ذلك عندما تتعلمها . وسوف تحبها أكثر كلما أتقنتها . ونصيحتى لك يا عزيزى القارئ المبتدئ ، أن تترك هذا الكتاب من يدك ، فور شعورك بالضيق من هذه اللغة ، حتى لا تكرهها وتنفر منها. ونحن نريد أن نكسبك ليزداد بك عدد عارفيها » . وقد عملت بهذه النصيحة بإخلاص لم أعهده فى

نفسي في أي عمل أتيته . وكنت كلما أمسكت بالكتاب ، وأحسست بالضيق ، تركته كما نصح البروفيسور المؤلف ، ومضيت أمسك بالكتاب ثم أتركه ، وأمسك من جديد بالكتاب ثم أتركه ، إلى أن تركت ألمانيا بدون أن أكسب سوى تحية الصباح وتحية المساء وكلمة للشكر وكلمة للتوديع ، أى ما لا يزيد عن مفردات الرضيع . . .

وقد حاولت أن أترك أذنى لتلتقط بضع كلمات من الطريق أو المحلات التجارية أو السينما أو المسرح ، أو الإذاعة ، ولكنها كانت تعزف عن التقاط الكلام ، مكتفية بالتقاط الكثير من موسيقى بيتهوفن وباخ وبراهمز وفاجنر ومندلسون .

إن ألمانيا تعد قمة فى الصناعة والطرق والتعليم الجامعى والطب والعلوم والكيمياء والاختراع والفلسفة والموسيقى . وقد كانت فى مركز الصدارة فى كل هذه الفنون والعلوم قبل الحرب ، ثم أخذت تستعيد سريعاً مكانتها بعد الحرب بما يشبه المعجزة . ولعل تحريمها من تأليف جيش كبير عصرى وصناعة حربية واسعة ودفاع فى الأرض والبحر والسماء ، كما قضت بذلك معاهدة الصلح ، لعل ذلك قد يسر لها توفير ما ينفق فى هذا السبيل ، من بلايين الدولارات أو الماركات ، طوال هذه السنين ، فانشق أمامها الطريق لتنفق فى مجالات العلوم والأبحاث والإنشاءات والتعمير والطرق والصناعات السلمية . هذا إلى جانب ما ساهمت به رءوس الأموال الأمريكية فى ظاهرها ، واليهودية فى حقيقتها ( من يهود أمريكا ) ، فى هذا السبيل. لقد قامت مدن كاملة مثل هامبورج وهانوفر بعد تدمير شامل . وكذلك الشأن بالنسبة لكولونيا وفرانكفورت وديسلدورف وفيسبادن وعشرات غيرها من المدن التى تم ترميم ما تهدم من مبانيها. أما برلين الغربية فقد أريد لها أن تكون واجهة تمثل ثراء الغرب وتقدمه ، ليراها ألمان الجانب الشرقى فى هذا الثوب القشيب .

أما الطرق فى ألمانيا الغربية ، العلوية والسفلية والمتقاطعة وتحت الأرض فلا يفوقها سوى الطرق فى أمريكا واليابان .

والطرق فى كافة أنحاء العالم ، هى نبض الحياة وشرايين الدولة . إنها تسهم فى التجارة وفى التعليم وفى الصحة وفى استتباب الأمن وفى النظام ، ثم فى السياحة الخارجية والداخلية . إن من المشاهد التى لا تغيب عن النظر فى ألمانيا ، قوافل السائحين من الألمان ومن أجناس أخرى تنقلهم أوتوبيسات ضخمة سريعة مكيفة مريحة ، من أقصى الشمال من هانوفر إلى ميونيخ جنوباً ومن الشرق إلى الغرب ومن كل مكان فى ألمانيا إلى أى مكان فيها ، ليرى أهل كوبلنز مدن : كولونيا ومعالمها وكاتدرائيتها وهانوفر ودقة مصنوعاتها وهامبورج أكبر مدن وموانى ألمانيا. وقل المثل فى بون وديسلدورف وفرانكفورت والغابة السوداء وهايدلبرج وجامعتها القديمة . ويساعد نهر الراين بما يمخر فيه من بواخر نهرية سياحية سريعة وكبيرة وتتسع لمئات بسياراتهم ، يساعد هذا النهر على زيادة التنقل وسهولته . فهذا النهر الذى ينبع من سويسرا ، يخترق ألمانيا ، ثم يتجاوزها ليخترق كل أراضى هولندا إلى أن يصب فى بحر الشمال . وهذه الرحلة تهيئ للراكب أن يمر فى أراضى ثلاث دول ، كما تهيئ له النزول فى أى منها ليقوم بالتجوال بسيارته أو بالأوتوبيس حسبما يرغب .

ولعلنا ونحن نبحث مشروع إنشاء عبارات بين أوربا ومصر وبين مصر والبلاد العربية ، أن نفكر فى الطرق وتوسيعها وإنشاء المزيد والطويل منها .

فالسائح العربى أو الأجنبى الذى يحضر على ظهر عبارة مستصحباً سيارته ، لا يكفيه أن يسير بها إلى العجمى أو رأس التين ، ثم يقطع بها الطريق الصحراوى ، أو الزراعى ، ثم يمضى إلى أهرام الجيزة أو جسر السويس أو شبرا المظلات .

إن السياحة تقوم على ثلاث قوائم : الطرق والنظافة والمعاملة . ويندرج تحت المعاملة ، الجمارك والجوازات والفنادق والبيع والشراء وتداول العملة والأمانة وحرية الانتقال ، وعدم المغالاة فى الأسعار ، إذ أن سائحى هذا العصر معظمهم من الكادحين من مختلف المهن ، وهم يقومون برحلاتهم عن طريق ضمانات مصرفية وقروض تدفع على مدى عامين . وقد بدا أننا

فى العهد الحالى نسير على الدرب الصحيح وبأقدام ثابتة واعية . ومصر التى تمتلك كنوزاً من الآثار مع وداعة جوها وأهلها النادرين ، فى استطاعتها أن تكون – عندما تفرغ من أزمتها مع إسرائيل – فى طليعة الدول السياحية فى العالم ، التى تستوعب فى يسر ملايين السائحين .

* * *

كنا ننتهز فرصة العطلات الأسبوعية والأعياد لنذهب إلى ما حولنا من مدن ، إذ أن مدينة بون العاصمة ، لا تزيد كثيراً فى حجمها عن مصر الجديدة . وكان سائق سيارتى يحمل مؤهلا جامعياً عالياً . وكان بهذه الصفة معواناً كبيراً فى رحلاتنا للشرح والتعليق على ما نراه من آثار القصور والقلاع القوطية الباقية منذ القرون الوسطى شاهداً على ما كانت عليه ألمانيا من استمساك بالنظام الإقطاعى العريق الذى يتملك كل ما على الأرض من إنسان أو دابة ، مع إحاطة كل أمير أو نبيل ، أملاكه بالقلاع والتحصينات ضد أطماع الأمراء المجاورين . وكنا نذهب إلى ( كولونيا ) لنشهد كاتدرائيتها العريقة التى تبلغ مبانيها وما احتوته من تماثيل وأيقونات وزجاج حد الروعة والجمال . وفى ديسولدورف كنا نرى ما أقيم بها بعد الحرب من طرق واسعة وميادين تلتقى فيها شوارع مستقيمة تضم محلات تجارية أريد لها أن تضارب أسواق باريس أو نيويورك أو لندن . وعلى مقربة منها تقوم مدينة ( ديسبورج ، مقر مصانع شركة ( ديماج ) للحديد والصلب ، وهى الشركة التى أقامت بمصر مصانع حلوان للحديد . ولهذه المصانع ميناء نهرى يضم صنادل ضخمة لحمل منتجات المصانع إلى مختلف المدن التى تقع على نهر الراين . وكنا نزور مدينة آخن ( اكس لاشايل ) وكاتدرائيتها التى كان يتوج فيها ملوك ألمانيا ، ومتحفها الذى يضم آثار تلك العهود . وعلى مرأى البصر منها يمكن أن ترى المدن القائمة على حدود بلجيكا . وكذلك مدن فيسبادن وبادن بادن وهما من مدن المياه المعدنية والعلاج الطبيعى . ومدينة كوبلنز حيث يلتقى نهر الراين بنهر الموزل . والغابة السوداء ( شفارتز فالد ) التى لا تطول الشمس

منها إلارعوس أشجارها السامقة التى تعتبر ثروة خشبية ضخمة لألمانيا . ولكل مدينة من هذه المدن التى ذكرتها على سبيل المثال صناعات صغيرة تشتهر بها ، كما تضم قاعات موسيقية ومطاعم وأسواقاً خاصة بهذه المدن . وكانت السياحة الداخلية من أبرز أسباب رواج تجارة هذه المدن فى الأسواق أو المطاعم أو الفنادق .وفى مدن المياه المعدنية مثل بادن بادن أو فيسبادن أو بادنوين آر ، كنا نرى عيون المياه المعدنية تحاط بحدائق غناء ، تبدو فى أزهى حلة وأتم تنسيق ، وفى داخلها مبنى به نافورة الماء المعدنى وحولها مقاعد مريحة وطاولات وكوبات من البلاستيك ليتناول الزائر فيها القدر الذى وصفه الطبيب . وتقوم بالخدمة فيها فتيات فى نضارة الشباب وجمال الزنبق المتفتح وفى لباس يزرى بأردية الأطباء والممرضين . وكنت أتخيل أنى فى معمل تحليل بكتريولوجى من فرط ما توفر فى القاعة من نظافة وسكون . ولتوفير التسلية والترفيه للوافدين ، كانت توجد جوقة موسيقية تعزف أعذب الألحان وأكثرها استجلاباً لراحة الأعصاب المكدودة والنفوس المجهدة . . .

وفى إحدى المدن التى تقع فى سفح سلسلة جبال ( آيفن ) حيث تمتلىء تلك السفوح بالكروم المخصصة للعصر واستخراج النبيذ الألمانى الشهير ، الذى يحمل أكثر من مائة اسم ، كانت تقام فى كل عام أعياد الكروم التى تستمر أسبوعاً . وفى يوم الأحد من هذا الأسبوع كان رجال البوليس يمنحون إجازة ، حتى يعتمد الأهالى على أنفسهم فى حفظ النظام والبعد عن الشجار ، برغم أنه يوم تزدحم فيه طرقات المدينة بالزوار والأهالى وجوقات الموسيقى والرقص فى الميادين ، ومن العسير أن تجد طفلا أو كهلا غير مخمور من هذا الرحيق الذى يمجدونه ويحتفلون به احتفال قدماء المصريين بعيد عروس النيل .

ومن ملاحظاتى التى وقفت عليها فى تجوالى ورحلاتى فى أوربا ، أن الدول الأنجلوساكسونية كألمانيا وإنجلترا ودول الشمال كالدانمارك والسويد والنرويج ، تميل فى مبانيها وفى أذواقها وفى اتجاهات أفكارها إلى التماثل

والتشابه ( Comformism ) . وكان ذلك يبدو واضحاً وأنا أمرق بالسيارة من بلدة إلى بلدة فى ألمانيا ، فأرى التشابه يكاد يكون تاماً ، فى كنيسة القرية ومجلسها البلدى ومدرستها وميدانها الكبير ذى الساعة الرنانة وفى أسواقها ، حتى كنت أول الأمر أظن أن السائق ضل السبيل وعاد أدراجه إلى ما كنا تركناه من قرية أو مدينة ، هى صورة مما مر بنا على طول الطريق . أما الدول اللاتينية كفرنسا وبلجيكا وإيطاليا وأسبانيا فإنها تتمتع بطابع الفردية ( Individualism ) فالمبانى والحدائق والشوارع والأسواق والميادين والكنائس والمقاهى والمطاعم ودور السينما ، كلها تتباين من بلد إلى بلد ، فلا يصيبك فى التنقل بينها ملل ، أو يتسرب إلى نفسك ضيق .

* * *

كان على السفارة أن تتابع ما يشغل بال الحكومة الألمانية من مسائل داخلية وخارجية ، كما كان عليها أن ترقب بحذر تطور علاقات ألمانيا بإسرائيل ودور أمريكا فى هذا السبيل ، بعد أن تم توقيع اتفاقية التعويضات فى ١٠ سبتمبر ١٩٥٢ بين أديناور وشاريت وزير خارجية إسرائيل ، وهى الاتفاقية المعروفة دولياً باسم اتفاقية لوكسمبرج .

ففيما يختص بالجزء الأول ، كانت الحكومة الألمانية وبعد فوز المستشار أديناور وحزبه فى انتخابات عام ١٩٥٣ ، تريد أن تصل إلى نتائج حول :

١ — التوصل إلى توقيع معاهدة باريس التى تنهى الاحتلال ، وحث الحكومة الفرنسية على الموافقة عليها ، حتى تتصرف ألمانيا بعد رفع وصاية المندوبين السامين الثلاثة ، إلى تنظيم داخليتها . وكان تردد فرنسا مبعثه الخوف من عودة العسكرية الألمانية إلى سابق عهدها من العدوان . وكانت تقول لحليفتيها فى معرض الحديث عن ترددها ، إن فرنسا هى التى تدفع الثمن ، لأنها أول من يتلقى عواقب العدوان الألمانى ، ولهذا فإنها تريد أن تحصل على كافة الضمانات التى تكفل سلامتها من هذا العدوان . حتى لقد شاع على سبيل التندر على موقف فرنسا ، أن فرنسا تريد ألمانيا قوية ، إلى

الحد الذى تقوى معه على مقاومة الاتحاد السوفييتى ، كما تريدها ضعيفة إلى الحد الذى تستطيع معه أن تهزمها . وقد تحقق لفرنسا ما طمعت فيه من ضمانات حول تحديد تسليح ألمانيا وضمها إلى معاهدة بروكسل وإلى مشاركتها فى معاهدة الجيش الأوربى وضمها كذلك إلى حلف الأطلسى .

٢ – التوصل إلى عودة السار إلى ألمانيا : وقد تكللت مساعى أديناور ومباحثاته ومفاوضاته مع فرنسا ومع الحلفاء بعودة السار إلى ألمانيا بعد عامين من جهود متواصلة .

وقد تم بعد جهود أديناور بالفعل، الاتفاق بين دول الحلفاء على عودة السار لألمانيا بدون الالتجاء إلى استفتاء لن تخرج نتائجه عما سبقه ١٩٣٥ ، وكان توقيع الاتفاقية فى شهر أكتوبر عام ١٩٥٤ . وفى هذا العام أيضاً تم اتفاق الحلفاء الثلاثة على إنهاء نظام الاحتلال القائم فى ألمانيا الغربية ، وأسفر اجتماع دول حلف الأطلسى الأربع عشرة على دخول ألمانيا عضواً فيه ،وبذلك أصبح أعضاء الحلف خمسة عشر .

٣ – موضوع وحدة ألمانيا ومشكلة برلين : وكان هذا الموضوع هو الشغل الشاغل لألمانيا الغربية . وكان المراقبون السياسيون يرون أن مرور الزمن ، يضع العراقيل فى سبيل الوحدة ويميل بها نحو تجميد الأوضاع ، بعد أن أصبح كل من القسمين جمهورية ولكل منهما حكومة ومجالس نيابية ، كما حصلت ألمانيا الشرقية على اعترافات بها بدأتها الدول الشرقية ، ثم تلتها دول أخرى فى العالم . وكان الاتحاد السوفييتى يساعد على بقاء هذه القسمة ويعمل على توسيع الهوة بينهما. وبرغم ما فى هذا التقسيم من ألم للألمان فى كلا القسمين، فقد كان حتماً عليهما الاتفاق على التبادل الاقتصادى والتزاور فى حدود مرسومة . وفى ٢٥ مارس ١٩٥٤ أصدرت الحكومة السوفيتية تصريحاً خولت بمقتضاه لحكومة ألمانيا الشرقية مباشرة حقوق السيادة . وقد أعلن وزير خارجية ألمانيا الشرقية آنذاك ( أولبرخت ) أنه بموجب هذا التصريح ، تصبح حكومة ألمانيا الشرقية ، حكومة مستقلة ذات سيادة .

كانت هذه المسائل ذات الأهمية القصوى فى حياة ألمانيا الغربية ومستقبلها ، تتطلب المتابعة والدراسة من جانب السفارات جميعاً ، بسبب اتصالها بالأمن الأوربى من جهة، ولأن حلها على الوجه الذى تدارسه الحلفاء، يباعد بين ألمانيا وبين عسكريتها التى كانت تهدد سلام العالم مدى مائة عام، بحروب كانت هى التى تشنها، وكانت هى التى تجنى عواقبها الوخيمة. وإن كان طمع الغرب واستعماره واحتكاراته من أسباب الحروب.

ولكن كانت تقوم إلى جانب هذه المسائل ، مسائل تهم العالم العربى ، بسبب اتصالها بإسرائيل ، التى أصبحت خراجاً فى جسم الأمة العربية ، يتداعى له سائر الجسد ، ما اقترب منه أو ابتعد من أطراف وأعضاء .

وكانت اتفاقية التعويضات التى وقعتها ألمانيا الغربية عام ١٩٥٢ مع إسرائيل بضغط الحلفاء وبخاصة أمريكا ، تنص على أن تقوم ألمانيا بدفع ٣٦٥٠ مليون مارك لإسرائيل على مدى عشر سنوات . أو بحساب مبسط ، أن تقوم ألمانيا فى مطلع كل صباح ، بدفع مليون مارك لإسرائيل لمدة عشر سنوات . وقد تضمنت الاتفاقية شروط الدفع ، وتأليف هيئة إسرائيلية يكون مقرها كولونيا لمراقبة التنفيذ ، الذى يشمل خلاف الدفع النقدى ، بعض أدوات وأجهزة ومصنوعات تطلبها إسرائيل ، وكانت على الدوام مثار جدلنا مع الجانب الألمانى ، باعتبارها مواد حربية أو مما يمكن تحويله إلى أدوات حربية . ونذكر على سبيل المثال، اللنشات والصنادل البحرية والموتورات والحديد والصلب ، وكلها كان فى استطاعة إسرائيل عقب تسلمها لها ، أن تحولها إلى أجهزة حربية .

وكنا فى جدلنا حول ذلك، نواجه دائماً بإجابة لا تتغير ، وهى أن هذه البضائع ورد ذكرها فى اتفاقية التعويضات ، التى لدينا نسخة منها ولا وجه للجدل حولها .

وفى عام ١٩٥٢ ، لم يكن قد قام للبلاد العربية تمثيل دبلوماسى مع ألمانيا الغربية . وكانت اتفاقية التعويضات تتراءى أنباؤها مما تردده وكالات

الأنباء، وتصل إلى مسامع الدول العربية . وقد رأت جامعة الدول العربية فى أواخر عام ١٩٥٢ أن توفد السيد أحمد الداعوق سفير لبنان فى فرنسا وأحد رؤساء وزاراتها السابقين إلى بون لمباحثة المسئولين فى شأن التعويضات ومدى ما تتركه من آثار أليمة لدى العرب . وكانت الحجة العربية والمنطق العربى يستندان إلى أن إسرائيل لم تكن قائمة عندما كان هتلر وأعوانه ينكلون باليهود ويصادرون أملاكهم فى ألمانيا وفيما غزاه النازى من دول مثل بولونيا وتشكيوسلوفاكيا وبلجيكا وهولنده وغيرها وغيرها، وما أنزله بيهودها من عذاب .

وإذا كان هناك وجه للتعويض فليكن لأهالى هؤلاء المضطهدين . أما دفع التعويضات إلى إسرائيل فإنه يعتبر عاملا من عوامل شد أزرها عسكرياً واقتصادياً بصورة تجافى كل عدل وتقلب ميزان القوى بين الجبهتين المتصارعتين . وكأنما لم يكف العرب أن يحملوا وحدهم وزر ما أتاه هتلر والألمان من معاونيه ، لتوجه إليهم ألمانيا غير النازية ، هذه الطعنة القاتلة بتزويد عدوهم الدخيل بالسلاح والعون المادى والمعنوى ، بأمر الإمبريالية العالمية التى تقودها أمريكا .

لقد فشلت سفارة السيد أحمد الداعوق فى مباحثاته مع المسئولين الألمان فى بون ، أمثال هالشتاين وبلاكنهورن واتزدورف وفون مالترن ، الذين كانوا يسيطرون على وزارة الخارجية . وكانوا يستمعون إلى حجج السفير الداعوق وإلى المنطق العربى السليم ، ولا يترددون عن الإجابة بأن الأمر قد انتهى ، وأن الاتفاقية قد تم التوقيع عليها يوم ١٠ سبتمبر ١٩٥٢ ، ولا حيلة فى الرجوع عنها أو تعديلها .

كان على ممثلى الدول العربية ، عند عودة علاقات دولهم بألمانيا ، ابتداء من عام ١٩٥٣ ، وهى : مصر ، سوريا ، لبنان ، العراق ، اليمن ، أن يراقبوا تنفيذ الاتفاقية حتى لا يساء استعمال بعض بنودها فى تسليح إسرائيل ، إذ أن ألمانيا اشترطت — فى نطاق تخفيف وقع الاتفاقية على العرب — ألا تكون البضائع المصدرة إلى إسرائيل تنفيذاً للاتفاقية ، بضائع

حربية ، أو مما يمكن استعماله فى الأغراض الحربية .

وكنا نجتمع بناء على اقتراح الجامعة العربية ، وبتوجيه وزارات خارجياتنا ، بين الحين والحين ، لنقل ما يكون قد انتهى إلى علم أحد منا ، لنناقش على ضوئه المسئولين. فإذا ما ترامى إلينا أن ألمانيا صدرت موتورات أو بواخر صغيرة تحت ستار لنشات يمكن تحويلها هي أو الصنادل البحرية إلى قطع حربية ، نتفق على إيفاد ممثل مصر بوصفه أقدم الممثلين ليلفت النظر إلى ما فى ذلك من مخالفة للاتفاقية . وكان الجواب الألمانى دائماً حاضراً ومعداً ، ولا يخرج عن أن هذه البضائع موضوع الحديث تستخدم لأغراض سلمية . كما أن الحديد الذى يستعمل فى صنع المواد الحربية . يستعمل كذلك فى المبانى وفى السكك الحديدية وفى الكبارى إلى آخر هذه السفسطة والالتوائية .

إذن فالأمر لا يخرج عن كونه تحدياً لمشاعر العرب ، والسير فى سبيل تغليب فريق على فريق ، على يد سلطة عليا تتحكم فى مصائر ألمانيا الغربية ، وهى أمريكا التى ساهمت بأموال يهودها وبأموالها فى إعادة بناء ألمانيا من جديد ، وهو أمر ربط المسئولين الألمان بقيود ، يتعذر عليهم الفكاك منها ...

واستغل اليهود ، كأتم ما يكون عليه الاستغلال ، الشعور بعقدة الذنب ، التى كان يعانيها الألمان ، واستغل الرسميون الألمان شيوع هذا الشعور ، وتضخم هذه العقدة ، لدى الشعب المغلوب على أمره ، فأحسنوا اللعب من ورائها بتنفيذ كل ما تطلبه إسرائيل من مطالب . وحينما أحست إسرائيل بهذا الضعف الألمانى وملأت يديها من وقوف أمريكا إلى جانبها فيما تطلب ، تقدمت إلى ألمانيا خلال تنفيذ الاتفاقية ، بطلب قروض جانبية ، تتجاوز ملايين الماركات .

ولم يكن باقياً إلا أن تعترف ألمانيا بإسرائيل ، وهو أمر كانت تحاول التملص من ضغط أمريكا عليها بشأنه ، استبقاء لبعض مظاهر الاستقلال بالرأى من جهة ، وابتعاداً عما يجره عليها سخط البلاد العربية ، إذا تم ، من جهة أخرى.

وعند ما أصدر الاتحاد السوفييتى فى ٢٥ مارس عام ١٩٥٤ ، كما قدمنا ،

تصريحه الذى خول بمقتضاه لحكومة ألمانيا الشرقية ، مباشرة حقوق السيادة ، وجدنا أن ورقة رابحة سقطت فى أيدينا ، إذا أحسنا اللعب بها .

كنا نلمح فى أحاديثنا مع المسئولين الألمان ، بدون أن يرقى التلميح إلى حد الرسمية ، أو ينزل إلى مستوى ( الدردشة ) ، بما يمكن أن يؤدى إليه هذا التصريح من اعتراف بعض الدول بألمانيا الشرقية على أساسه . وقد تساءل ذات يوم كبير من المسئولين ، الذين كنت أتردد عليهم فى وزارة الخارجية الألمانية لمسائل تهم السفارة ، وألحف فى معرفة موقف البلاد العربية من ألمانيا[1] الشرقية بعد هذا التصريح ، ووجدت الفرصة سانحة ، وكان هو الذى هيأها لى ، فقلت له ، إن للبلاد العربية مواقف تتباين بالنسبة للمسائل الخارجية العالمية ، وفقاً لقربها أو بعدها منها ، وطبقاً لما ترسمه سياستها الخارجية حيال هذه المسائل ، ولكن بالنسبة لبلدى مصر ، فإنى أرجح ، وهذا رأيى الخاص ، أننا سوف نعترف بألمانيا الشرقية ، ونتبادل معها التمثيل الدبلوماسى فور اعتراف ألمانيا الغربية بإسرائيل . وقد وجم محدثى برهة ، أدار بعدها حديثه ، وجهة أخرى .

لا أزعم ، ولا ينبغى لى ، أن ذلك كان من مثبطات عزم ألمانيا الغربية عن الاعتراف بإسرائيل ، ولكن فى استطاعتى أن أزعم كذلك ، أنه قد أشاع جواً من التردد حول الاعتراف بإسرائيل ، استمر سنوات ، فالأمر كان متفقاً عليه من حيث المبدأ . أما من ناحية الشكل فقد رؤى أن تتمهل ألمانيا وتنتهز السوانح القادمة ، حتى وقعت الواقعة ، ورأت ألمانيا الظرف مناسباً للاعتراف بإسرائيل فى التوقيت الذى ارتأته ، وهو يوم ٧ مارس عام ١٩٦٥ ، عقب تهديد الدول العربية بقطع علاقاتها بألمانيا الغربية ،

---

( ١ ) وقد رأت ألمانيا الغربية حيال ما هو منتظر من اعتراف بعض الدول العربية التى تربطها بالدول الشيوعية مصالح واتفاقيات ، ان تتمسك بما عرف فيما بعد بمبدأ ( هاليشتاين ) الذى يقضى بقطع ألمانيا الغربية علاقاتها بالدول التى تعترف بألمانيا الشرقية .

على أثر تزويدها إسرائيل بأسلحة فى شهر سبتمبر ١٩٦٤ وفقاً لما تم عليه الاتفاق بين أديناور وبن جوريون عندما اجتمعا فى أمريكا . وكأنما كانت ألمانيا الغربية ترجو من وراء هذا الاعتراف ، أن تنال صك الغفران من إسرائيل عن خطايا النازى حيال اليهود ، وكأنما كانت تحقق فوق ذلك ما أصدره المؤتمر اليهودى العالمى من بيان يحمل فيه الشعب الألمانى بأسره مسئولية اضطهاد اليهود على يد النازية وإبادتهم .

وإنى لا أذكر أن دولة ملكت من الرصيد الأدبى ، مثلما كانت تملكه ألمانيا الغربية ، فى البلاد العربية . فلقد كان العرب مع ألمانيا بقلوبهم فى الحرب العالمية الأولى عندما كانت ألمانيا حليفة لتركيا ، مقر الخلافة ، وقبل تضليل شريف مكة على يد ما كماهون واستماع العرب لأباطيل لورانس وكانت ألمانيا تحارب دول الاستعمار الأوربى ، إنجلترا وفرنسا وإيطاليا تارة وإنجلترا وفرنسا وأمريكا تارة أخرى ، وهى دول ذاق منها العالم العربى الأمرين . حتى إذا ما هزمت هزيمتها النكراء فى الحرب العالمية الثانية ، واتجهت اتجاهاً مخططاً على يد دول الاستعمار ، وقبلت كل الشروط التى فرضها المنتصر ، وتنازلت عن حدود الرايش القديم ، الأودر ونييس ، وامتنعت عن صناعة الأسلحة ، إلا ما يأمر به المنتصرون ، وارتبطت بإسرائيل باتفاقيات تعويض وتبادل تجارى أولا ، ثم اعتراف بها كما قدمنا ، اطمأن الغرب لها ، وأصبحت من دول حلف الأطلسى الخمسة عشر ، وأصبحت أكبر دولة رأسمالية فى أوربا ، وأصبحت الدولة الخامسة فى الصناعة فى العالم ، وأصبحت عملتها تهدد أغنى العملات وأرسخها ثباتاً وهو الدولار ، بعد تعويم المارك أخيراً .

عند ذلك أفاق العالم العربى على هذه الحقائق الثابتة ، ولكنه برغم ذلك كان يأمل ألا تجنح ألمانيا الغربية كل هذا الجنوح نحو إسرائيل ، استمساكاً ببعض مظاهر الاستقلال ، ولكنها راعت مصالحها مع الغرب الذى يحميها ، فى توهمها ، من الاتحاد السوفييتى ، وراعت حماية صناعاتها

وتجارتها ، وراعت وضعها فى برلين مع الحلفاء ، كما راعت إعفاء الحلفاء لها من ديون تعويضات الحرب ، الأمر الذى حملها على هذا الجنوح ، وأصبحت فى حل من كل قيد سلوكى يقف فى سبيل مصالحها .

إن فقدان الثقة والتقدير فيمن كان موضعهما فى وقت من الأوقات ، يثير شعوراً مختلطاً من الرثاء وخيبة الأمل .

وكانت هذه الفترة العصيبة تضع فوق أكتافنا أعباء ثقالاً ، وواجبات متعددة . وكنا نحمل فى أعناقنا أمانة كبرى تجاه الوطن ومصالحه . وكلما انتمى المرء إلى بلد عريق الأصل ، تضرب جذور حضارته فى أغوار التاريخ زاد حجم المسئولية ، وتضاعف الجهد المبذول .

وربما كانت مصر من أشد الدول العربية تأثراً بتحول مشاعر الألمان تجاه إسرائيل ، وتنكرهم للعرب ، وهى التى كانت تقف من ألمانيا موقف الصديق المتفانى فى الإعجاب والتقدير ، ولكن السياسة كما يقولون ، كالحب لا ثبات لها ، وعجيب الزمان غير عجيب ، كما يقول ابن الرومى .

* * *

لعل سوق الأمثلة يعمق فهم ما ذهبنا إليه من موقف ألمانيا بالنسبة لدول الحلفاء الغربيين ، وإسرائيل ، وموقفها الشاذ بالنسبة للعالم العربى .

كانت مصر فى نهاية عام ١٩٥٤ قد انتهت من دراسة مشروع السد العالى على يد خبراء عالميين ، أقروه واستحسنوا فكرته وأشادوا بفائدته ، وقد بقى أن تقوم مصر بتمويل نفقات الإنشاء عالمياً عن طريق البنوك العالمية وهو أمر طبيعى ، سبقنا إليه كثيرون . وقد رأت أن تبحث الأمر مع البنوك الألمانية قبل أن تلجأ إلى غيرها استناداً إلى رواسب من تقدير قديم . وقد قامت السفارة بالاتصالات الأولية التى أسفرت عن وجوب اجتماع رؤساء البنوك الألمانية ، على هيئة مجلس أعلى لهذه البنوك ، (كونسورتيوم) ، ليتدارسوا أمر القروض المطلوبة ، لتمويل السد العالى ، وضرورة إجراء دراسة للمشروع على الطبيعة فى موقع السد فى أسوان ، تتبعها دراسة اقتصادية

عن مدى سلامة الاقتصاد المصرى وتحمله للإنفاق على مثل هذا المشروع الضخم ، على يد خبراء كانوا سيتوجهون مع مندوبى البنوك إلى مصر لهذا الغرض . وكانت الأمور تسير سيراً طبيعياً لا تعترضه عقبات . حتى إذا اكتمل تأليف الوفد المسافر من الألمان المذكورين ، تدخلت إسرائيل بضغطها على أمريكا التى ضغطت بدورها على ألمانيا الغربية ، وإذا بنا نفاجأ بأن وفد البنوك الألمانية ومن وقع عليه الاختيار من خبراء الهندسة والاقتصاد ، قد امتنعت وزارة الداخلية الألمانية عن منحهم جوازات سفر لمغادرة البلاد لأسباب تتعلق بالأمن . وتلا ذلك ما هو ثابت فى الأذهان من رفض دالاس تمويل المشروع وتشكيكه فى ثبات الاقتصاد المصرى برغم شهادة البنك الدولى بسلامته ، وما كان على أثر ذلك من وقع على مصر حملها على تأميم القناة . وقد بقيت مصر نفسها تواجه تكتلاً استعمارياً أعقبه مواجهة ساخنة مع إسرائيل وحليفتيها عام ١٩٥٦ ، ثم ما لبثت عندما توقفت الحرب ، أن اتصلت بالاتحاد السوفييتى الصديق ، الذى استجاب لرغبتها بدافع التفاهم والمودة ، بدون غرض أو هوى ، وأتم إقامة السد بما أمد به مصر من خبرة ومال ورجال ومعدات ، حتى قام السد شاهداً على هذه الصداقة ، وأخذت مصر تجنى ثماره قبل ميعاده الموقوت .

إن طول الإقامة ببلد ، والاتصال بمختلف طبقاته ، يمد المرء بمدى بعيد للرؤية ، وبطاقة كبيرة من المعرفة . والألمان شعب جدير بأن يبذل الإنسان ما فى وسعه لينظر إليه من خلال دراسة نفسية ، تحلل دوافع تصرفاته ، وتكشف عن ثرواته الفنية والفكرية والخلقية ، وعن مدى آماله الظاهرة والخفية .

كان طابع الفن القوطى هو السائد والمتحكم فى الآثار القديمة من كنائس وقصور وقلاع فى ألمانيا ابتداء من القرن الحادى عشر حيث انتقل بعد ذلك إلى فرنسا وباقى أوربا منذ ذلك القرن حتى القرن الثالث عشر . إلا أن ألمانيا كانت تلتزم به فى المعمار وفى الفنون الزخرفية وفى

الكتابة وفى اللغة . وهذا الطراز يعكس فى البناء بصفة خاصة ، الطبيعة الكامنة فى أغوار النفس الألمانية ، لما فيه من مبالغة فى الضخامة وفى الارتفاع وفى السمو ، وهى تعبيرات واقعية ملموسة عن مغالاة الألمان فى التوسع وفى العظمة وفى حب الرفعة والتفرد والعلو .

بل إن مشروبهم المفضل وهو ( البيرة) الذى يحفظونه فى براميل ضخمة تتسع لما كان يتسع له حصان طروادة ، ويتناولونه فى أقداح ضخمة من السيراميك ، ترزح تحتها السواعد الهزيلة حيث يحتوى القدح منها على لتر أو يزيد ، فيه انعكاس لحب التوسع والاحتواء ، الذى أطلقوا عليه خلال عهد هتلر ، اسم المدى الحيوى .

وكنت أعجب من أن ثورة مارتن لوثر التى قامت ضد صكوك الغفران ، عادت من جديد فى صورة معكوسة فى ألمانيا الاتحادية ، التى تبذل ما تبذل لإسرائيل ، طمعاً فى حصولها منها على صكوك الغفران ، التى تمسح فى ظنها خطايا وسوءات النازية .

والألمان فى كل تاريخهم ،لا يأبهون بالحاضر، فهم إما أن تراهم فخورين بماضيهم، أو متطلعين إلى ما سوف يبلغونه فى مستقبلهم من رفعة وسمو .

وإذا كان العرب قد قدموا للعالم الأديان ، وقدّم الرومان المعمار والإغريق الأدب والفن والفلسفة ، فإن الألمان قد قدموا الموسيقى التى تجاوزوا بها النطاق القومى ، عبر حدود موطنهم ، إلى العالم الخارجى بأسره ، حتى اتسع أمام موسيقاهم بعد المجال الروحى لها ، الذى تتحرك فيه إبداعات مؤلفيهم الموسيقيين العمالقة .

والألمانى من فرط ما بلغه من تكنوكراطية ، تجده يتصرف تصرف العقل الإلكترونى الحاسب ، بدون أن يتحول أى تحول يخشى أن يخرجه عن الخط المرسوم لتفكيره . فقد روى لى صديق نزل بأحد الفنادق الكبرى ، أنه ذات مساء وقبل تناول العشاء ، ذهب إلى بار الأوتيل وطلب من البارمان كأساً من شراب ( Drymartini ) لفتح الشهية . ولما كانت كلمة Dry بالألمانية تعنى

ثلاثة ، ويكتبونها (Drei) ، فقد ظن البارمان أن الصديق يطلب ثلاث أقداح من هذا المشروب ، برغم أنه كان وحده ، ولم يستطع الصديق أن يناقش البارمان ليعيد كأسين مما أحضر ، إذ أن تحضير هذا الشراب الممزوج ، لا يسمح بإعادته إلى الزجاجة ، فاضطر إلى شرب ( المقلب ) ، ولكنه ظل ينظر للبارمان ويضحك من تصرفه الآلى ، كما راح البارمان ينظر إلى هذا الزائر ويضحك من نهمه فى الشراب ، ومن ( فراغة ) عينه . . .

وهم فى تنفيذهم الحرفى للقانون ، لا يجاريهم أحد فى العالمين . كنا فى كولونيا التى قصدناها من بون . وكانت معنا تذاكر الذهاب والعودة . وعندما بلغنا فى العودة محطة كولونيا ، وكان القطار على وشك التحرك ، ووجدنا أنفسنا أمام عربة الدرجة الثانية فى القطار ، اضطررنا إلى أن ندخلها ونجلس على مقعدين من مقاعدها . وعند ما مر عامل التذاكر ، ووجد أن تذاكرنا درجة أولى ، طلب منا بكل أدب ، الوقوف ، حيث أن المقاعد مخصصة لركاب الدرجة الثانية وهم أحق منا بها ، إذ أن مكاننا فى الدرجة الأولى ، وعلينا أن ننزل فى المحطة القادمة لنركب العربة الصحيحة . . وامتثلنا للأمر ونحن نحمد الله أن أمره لم يكن مشفوعاً بوضع وجهنا فى الحيط . . .

وهم يقسمون العمال إلى درجات ثلاثة ا ، ب ، ج . تبعاً لحذق العامل ، ولو أن عاملاً من حرف ا كان عاطلاً ووجد عملا فى مصنع فى الدرجة ج وقبل أن يشغله ، فإن مفتش وزارة العمل يوقع الجزاء على المصنع وعلى العامل ، لأنهما بتصرفهما الخاطئ والمخالف للقانون ، قد حجبا عن عامل من الدرجة الثالثة ، عملاً كان يمكن أن يشغله .

* * *

من مزايا العمل فى بون عاصمة ألمانيا الغربية ، فوق الاحتكاك بشعب بلغ الذروة فى القدرات الفكرية والعلمية والفلسفية والصناعية ، أنه لا يفصلها عن بلجيكا أو هولندا سوى أربع ساعات بقطارات سريعة فخمة مجهزة بكل وسائل الراحة . -

وفى عطلة أحد الأعياد، قصدنا بالقطار . بروكسل ، عاصمة بلجيكا ، التى تعد أصغر دول أوربا مساحة ، حيث لا تزيد مساحتها عن ثلاثين ألف كيلو متر مربع ، ولا يزيد سكانها عن تسعة ملايين نسمة . وعندما كانت تستعمر الكونغو البلجيكى ، كان الفارق بين المساحة فى البلدين يبعث على العجب . فقد كانت مساحة الكونغو تبلغ ثمانين مرة مثل مساحة بلجيكا . ولا تزيد المسافة بين أوستند فى الشمال وأرلون فى الجنوب على حدود لكسمبورج عن ٢٩٠ كيلومتراً تقطعها السيارة فى سرعة متوسطة فى أربع ساعات .

ومن عجائب أمر بلجيكا أنها دولة يشيع الثراء فى كل نتاجها سواء أكان فى الزراعة أم فى الثروة المعدنية أم فى الثروة الحيوانية أم فى نتاج الفكر والثقافة ومجال الصناعات الدقيقة التى تتميز بالبراعة والذوق . إن بلجيكا تحمل بجدارة اسم بلد العمل .فكل من فيها يعمل فى محيطه بمهارة ودقة وضمير لا يحتاج إلى رقيب .

ويبلغ سكان بروكسل وما حولها من ضواح وقرى . مليون نسمة . وتشهد مبانى العاصمة بعراقة تاريخها وما تقلب عليها من دول غازية تركت بصمات من آثارها فيها .

ومن أقدم مبانيها (أوتيل دى فيل) الذى يضم بلدية العاصمة . ويرجع تاريخ هذا المبنى إلى القرن الخامس عشر . واللغات الرسمية فى بلجيكا هى الفرنسية والفلاماندية التى تجمع بين الألمانية والهولندية والفرنسية ، وتعد بروكسل من أكثر مدن أوربا ثقافة . وهى الآن عاصمة السوق المشتركة . ولجامعة بروكسل سمعة علمية عالمية . وكذلك مدينة (لييج) وجامعتها وجامعة ( بروج ) التى يعتبر معهدها للعلوم السياسية الثانى بعد معهد باريس فى العالم . وتضم جامعات بلجيكا ٣٧٪ من مجموع طلبتها من الطلاب الأجانب .

وتقع على مشارف بروكسل ، ٢٢ كيلومتراً ، قرية (ووترلو) التى

ختم نابوليون أمجاد انتصاراته على ثراها ، عندما أطاحت بجيشه المتعب المكدود ، جيوش ( ولنجتون ) الدوق الحديدى الإنجليزى ، والقائد البروسى ( بلوخر ) فى ١٨١٥/٦/١٨ .

ولا يزيد سكان القرية عن ٧٦٠٠ نسمة . وقد أقام البلجيكيون ( بانوراما ) لمعركة نابوليون الأخيرة ، تمثل ميدان معركة ووترلو بالحالة التى جرت عليها المعركة ، وما تخلف عنها من أشلاء وجثث جنود وخيول وحطام مدافع ومركبات وعربات حربية .

ويرى المشاهد من شرفة دائرية تطل على أرض المعركة كل ما كان يجرى عليها من ويلات وتكتيكات بحجم مكبر فيه خداع للبصر ، حيث لم يترك موضعاً إلا أوضحه بالرسم وباللافتات . فالجنود القتلى يملأون أرض المعركة وقد تلطخت ثيابهم بالدماء ، وارتسمت على وجوههم سكرات الموت . ونابليون على صهوة جواده ، كان يراه المشاهد وهو يجمع شوارد عبقريته العسكرية لينقذ ما تبقى من جيشه من هذا الحصار الإنجليزى البروسى ، حتى إذا ما فشل ، استسلم وهو يودع مجداً غارباً ، ازدهر حيناً ثم تولى .

وما تزال بالقربة بيوت شهدت المعركة ، يتحدث أهلها عن أحداثها بالتواتر عن الجدود ، وبالقرية متحف يضم مخلفات دوق ولنجتون ، هو نفس البيت الذى كان يتخذه ولنجتون مقراً لقيادته . ومن بين المخلفات الكرسى الذى جلس عليه بعد انتهاء المعركة بانتصاره ، ليكتب إلى لندن رسالة استسلام نابوليون .

ويروى لنا الدليل ، نقلا عن لسان مديرة المتحف ، من باب التندر ، أن الكرسى المذكور ، الذى يضمه المتحف ، بيع لأكثر من سائح أمريكى ، على أنه الكرسى الأصلى . وقد سأل ذات يوم أحد حراس المتحف ، السيدة المديرة عن حالة بيع الكرسى هذا العام ، فأجابته المديرة بحسرة ، إن حالة بيع الكراسى ليست على ما يرام هذا العام ، وعلى

غير ما كانت تأمل ، لنقص عدد السائحين الأمريكان ذلك العام . . .

وإلى غير بعيد من البانوراما ، أقيم نصب هرمى الشكل ، وعلى أضلاعه خضرة يانعة دائمة ، ويبلغ ارتفاع النصب مائة متر . وانتصب فوق قمته تمثال لأسد كبير رفع ذيله ووضع قدمه اليمنى على كرة برونزية تمثل العالم الذى خضع له .

ومن مشاهد الوفاء التى شدتنى ، رؤيتى لمنزل كان قد أقام به فيكتور هيجو عند زيارته لبلجيكا فترة من الزمان ، يقع بين بروكسل وووترلو . وعندما شرع فى توسيع الطريق بين العاصمة وموقع المعركة ، رؤى هدم ذلك المنزل الذى يعترض الطريق . وسرعان ما تنادى أصدقاء فيكتور هيجو ومحبو فنه من البلجيكيين ، وجلبوا خيرة المهندسين الذين أعدوا مشروعاً بنقل المنزل حجراً حجراً إلى جانب الطريق . وقد تم لهم ما أرادوا ، وأنقذوا منزل الذكريات من الهدم والضياع واستبقوا ذكرى شاعرهم وكاتبهم الأثير ، الذى رفض ذات يوم عفواً أصدره نابوليون الثالث عنه ، بعد القبض عليه ونفيه . وعندما بلغه نبأ العفو ، قال : إنى أرفض العفو من متهم مدان ، ومنذ متى يعفو المتهم عن برئ ؟

هلت علينا عطلة العيد الكبير ، ورأينا أن نمضيها هذه المرة فى هولندا ، بلد الزهور والتيوليب والمناظر الطبيعية الخلابة ، والقنوات وما عليها من مئات الكبارى ، وطواحين الهواء التى هى شعار هولندا . وتعد هولندا بين أغنى بلاد العالم فى منتجات الألبان. حتى قيل إن غطاء العملة الهولندية ( الجيلد ) هو اللبن لا الذهب . وهو البلد الذى يمثل قوة إرادة الإنسان وقدرته على قهر الطبيعة بإصراره ودأبه . إن بلادهم التى تعرف بالأراضى الواطئة ، يهددها بحر الشمال بالغرق ، ولكن إرادتهم أقامت سدوداً وموانع تدفع المحيط عنهم شبراً شبراً . وكلما اكتسبوا أرضاً اتسعت أمامهم رقعة الأرض الضيقة ( ٣٤ ألف كيلومتر) لأحد عشر مليوناً من السكان .

وهولندا بلد زراعى وصناعى . وهم يصنعون إنتاجهم من الألبان

والحيوان حتى بزّوا أكبر دول العالم . وبفضل قنوات هولندا التى تبلغ المئات ، وما تملكه من أسطول نهرى وآخر بحرى ، اتسعت اتصالاتها بكل دول العالم ، وراجت تجارتها ، وبخاصة مع جنوب شرق آسيا ومع أندونيسيا عندما كانت تستعمرها وتستغل خيراتها حتى عام ١٩٤٩ وهو العام الذى تكلل فيه جهاد سوكارنو وأعوانه الأبطال ، واضطرت هولندا للاعتراف باستقلال أندونيسيا . وإنه لمن عجائب السياسة والاستعمار ، أن دولة لا يزيد سكانها عن أحد عشر مليوناً ، تتحكم فى مصائر دولة واسعة الأرجاء ، متعددة الجزر ، مثل أندونيسيا التى يقرب عدد سكانها من مائة مليون نسمة .

إن من يرى امستردام وروتردام وإوترخت ولاهاى التى تغمر أسواقها المصنوعات المحلية والمستوردة من الشرق الأقصى وبضائعه من توابل وأفاويه ، وما بهذه المدن من مبان ضخمة ومنشئات ومصانع وثروات ، لا يدهش لما يرى ، وهو يعلم أن بين يديها كنوز أندونيسيا وجزرها التى لا يعدها حصر ، ولا تعيها أسماء .

لقد كان مما يسلب لذة تمتعى بما كنت أراه من عظمة المبانى وضخامة المصانع والمنشئات ، وذلك الثراء فيما تضمه المتاحف من كنوز ، ودور الأوبرا والمطاعم والقصور والطرق فى أى عاصمة كبرى فى أوربا : من باريس إلى روما إلى برلين إلى بروكسل إلى أمستردام إلى لاهاى إلى فيينا إلى لندن إلى أسبانيا إلى لشبونة ، إحساسى كلما أمعنت النظر فى كل هذا الثراء والترف ، بشقاء ودماء وعرق وحرمان من سلبت منهم هذه الثروات التى بنت كل هذه العظمة . فقد كانت تتملكنى نزعة تجريدية تدفع بى إلى الوقوف على مصدر كل هذا الثراء ، برجوعى القهقرى إلى غابات الكونجو وأحراش وغابات أفريقيا ومناجم جنوب القارة السوداء ومزارع الشاى فى الهند ، وثروات أندونيسيا المعدنيا والزراعية وثمرات أمريكا الجنوبية على عهد الإسبان ثم الأمريكيين حالياً ،

ومزارع وكروم شمال أفريقيا من المغرب إلى الجزائر إلى تونس إلى ليبيا ، ثم لا ألبث أن أكشف ببصرى وبصيرتى ، عما فى هذه المجاهل والأدغال من ثروات ، حملها المستعمر ، وبنى وشيد وأقام دعائم ما نراه فى عواصمه من عظمة وثراء ، هى نتاج عرق أصحابها وثرواتهم المغتصبة منهم بحكم القوة والتفوق العلمى والتكنولوجى ، إلى أن تنبهت تلك الأمم إلى حقيقة أوضاعها عندما سرت فيها شرارة المعرفة ، وقامت لتأخذ من الغاصب حقها فى الحرية والاستقلال .

كنا فى شهر أغسطس عندما زرنا هولندا . وكنت أشاهد وأنا أزور مصيف أمستردام وبلاجها الرملى الجميل فى ضاحية ( سفيخنجين ) ، المستحمين وهم يلهون بالعوم فى البحر أو يعرضون أجسامهم لشمس ذابلة صفراء فى درجة حرارة لا تزيد عن تسع درجات — أى كشتاء مصر — وفى مهب ريح لا تهدأ ولا تفتر . وكنت أرقب هذا المنظر من وراء زجاج فى مطعم أنيق جميل ظننته حجرة عمليات . وكنت متدثراً بثياب شتوية . وكأنما أثارت المفارقة — صيف فى الخارج وشتاء فى الداخل — فضول مدير المحل الذى راح يحدثنى عن قوة احتمالهم للجو فى أقسى برودته ، وأن الخير فى التعرض له لا فى الهرب منه . وكأنما عزّ على نفسى هذا التفاخر ، فقلت له : ونحن كذلك فى بلادنا نحتمل الحر احتمالا لا تقدرون عليه يا أهل الشمال ، بل تنهارون أمامه . ولو رأيتنا ونحن نسبح فى عرقنا فى مثل هذا الشهر ، أغسطس ، لأشفقت على نفسك من هذا المصير ، ولوليت الأدبار ، ولله فى خلقه شئون ، وكل فى فلك يسبحون .

* * *

بعد أكثر من عامين فى ألمانيا صدر قرار بنقلى فى منتصف عام ١٩٥٥ إلى سفارتنا بروما لأشغل منصب الوزير المفوض بالسفارة . وكنت بعد عشرة أشهر من إقامة دائمة فى أوتيل ( برجشرهوف ) فى بون ، انتقلت إلى منزل من منازل فى حى كان قد أقامه الأمريكيون لقادتهم وقت

احتلالهم لألمانيا ، يقع بين بون وضاحية بادجودسبرج . وقد تنازلوا عنه لرؤساء ومستشارى السفارات الأجنبية فى بون . وعند انتقالى إلى روما ، تولت شركة شحن نقل أثاث منزلى على عربة سكة حديدية استحضرتها أمام دارى سيارة ، حتى إذا ما حملت كل متعلقاتى . قادتها السيارة إلى محطة بون ومنها إلى محطة روما ومنها إلى دارى التى كنت استأجرتها فى روما بالطريقة نفسها ، حيث فتحتها بالمفاتيح التى كنت أحملها لها وأفرغ العمال محتويات العربة بدون أن ينشرخ أو يخدش قدح أو تغيب إبرة .
لقد تم النقل على بساط من حرير وعلى طريق من اردواز . وهكذا يتم التنقل بين دولة ودولة فى أوربا وكأنه قطعة من النعيم وجمع لمعارف ومدارك هيهات أن تلم بها من الكتب . والمشاهدة تختلف عن القراءة . فأنت فى المشاهدة تمتع حواسك الخمسة . فى حين أنك بالقراءة لا تمتع سوى الفكر مع إجهاد النظر .

غادرنا ( دريسن ) وهو الفندق الذى نزل به هتلر عندما حضر لمقابلة تشمبرلين عام ١٩٣٨ . ومضينا بالسيارة إلى كوبلنز ثم فيسبادن ومانهايم وكارلسرو مقر المحكمة الدستورية العليا لألمانيا الغربية ، ومنها إلى فريبورج حتى بلغنا الحدود السويسرية وبعد قليل وصلنا إلى ( بازل ) التى عقد بها تيودور هيرزل رائد الصهيونية الحديثة أول مؤتمر للصهيونية عام ١٨٩٧ . ومنها إلى زيوريخ حيث أمضينا يومين فى زيارة ما بها وما حولها من معالم وآثار . وإن من أكبر ما تتميز به سويسرا ، الأمانة والاستقامة والنظافة والبعد عن كل ما يسبب الضيق للغير . كذلك تختفى منها الاضطرابات والإضراب والانقلابات وهذه أمور إن دلت على شىء ، فإنما تدل على ما يجنيه العالم لو تجنب الحروب التى تخلف الدمار والفقر والجريمة . إن سويسرا الاتحادية بعد آخر حروبها مع الإمبراطور ماكسيمليان النمساوى ، تم الاعتراف باستقلالها عام ١٤٩٩ فى اتفاقية بال ومنذ ذلك الحين ، وبعد أن اعترف العالم بحيادها الذى يعد فى نظر

القانون الدولى حياداً تعاقدياً ، لم تلق سويسرا من ويلات الحروب ما يخدش ما أقامته من مبادئ قانونية وخلقية واجتماعية هى سمتها وشارتها إلى اليوم . ومن يشاء أن يرى العالم مبرءاً من عيوبه ومثالبه ، منذ جريمة قتل قابيل لأخيه هابيل ، فليذهب إلى سويسرا ، ليرى هذا الكمال قائماً فى مدنها وقراها ودساكرها ، على أتم صورة وأوفاها .

ومن زيوريخ مضينا إلى لوتسرن حيث أمضينا فى فندق على بحيرتها الفاتنة اللعوب يومين زرنا فيهما معالمها وجلنا فى بحيرتها الوديعة . وكان سائقنا الألمانى ، قد قطع الطريق من بون إلى روما مرات فى عطلاته على دراجته البخارية ، مما أعاننا على معرفة الكثير من المعالم والآثار التى كنا نمر بها . ومن لوتسرن إلى الحدود السويسرية الإيطالية التى يفصل بينهما نفق سان جوتار الشهير . وقد اقترح السائق العالم الدليل ، أن نقطع الطريق من فوق النفق — وهناك من يقطعه بسيارته بواسطة السكة الحديدية داخل النفق — حتى نمتع النظر بأروع ما يمكن أن يراه المرء من جمال الطبيعة صيفاً أو شتاء . وإن كان لا وجود للصيف فى هذا الارتفاع الشاهق الذى يبلغ فى بعض قممه ( ٣٠٠٠ متر ) من جبل الألب ، إلا فى الأجندة السنوية . ومن هذه المرتفعات ينبع نهرا الراين والرون .

دخلنا الحدود الإيطالية . وكان أول ما طالعنا من مدن إيطاليا مدينة كومو وبحيرتها الأنيقة . وقد أعادت لى رؤيتها ذكرى زيارانى لها عندما كنت أعمل بإيطاليا قبل حرب ١٩٤٠ ، وقد لاحظ السائق الألمانى العالم الدليل البصير ، فرحتى وتهللى وانشراح خاطرى عندما أشرفت ببصرى على الأرض الإيطالية . ولم أستطع أن أخفى مثل هذا الفرح ، لأن الشعور بالفرح توأم للحب الذى لا وسيلة لكتمانه ، فى حين أن الحزن توأم للبغض الذى يلفه ويطويه الكتمان ويعجز عن إبدائه . ولقد أسر السائق فى دخيلة نفسه ما بدا من فرحتى . وعندما انتهى مطافه الطويل الآمن الملىء بالمعرفة والإدراك ، وبلغنا روما ، قال لى بأدبه الجم ، الذى يتمتع

به كل الألمان فى أوقات السلم :

« كنت أود يا سيدى أن تحمل لألمانيا نصف هذا الذى تولى به إيطاليا ». فقلت له إننى أحمل لألمانيا وشعبها كل مشاعر التقدير والاحترام ، ولا أنكر ما أفدته خلال إقامتى بها ، ولكن ما عاناه العرب من تصرف الحكومة الألمانية ، حيال أهم قضايا العرب ومشاكلهم ، وهى اسرائيل ، يحملنى على أن أستشعر المرارة التى كنت أبديها للمسئولين الألمان بدون جدوى ، وكان يخذلنى كتمانها إذا شئت .

وإنى لا ألتمس العذر لألمانيا بما كان يقع عليها من ضغوط أمريكا وإسرائيل والحلف الأطلسى ، ولكن الأمر يخرج عن نطاق هذا الكتاب ويتصل شأنه بالتاريخ والمؤرخين .

وبعد أن غادرنا كومو ، طالعتنا مونزا ، التى تقع على مشارف ميلانو ثم اجتزنا ميلانو التى أمضيت بها عامين قبل حرب عام ١٩٤٠ . ومنها إلى جنوا ، وعلى طريق الريفييرا الإيطالية الذى يشرف على أجمل مواقع للبحر وتقع عليه مدن تضم قصوراً وفنادق لأثرياء أوربا الذين يؤمون إيطاليا للانتجاع فى جوها البديع . مررنا براباللو وسانتا مارجريتا حتى بلغنا لاسبيزيا . وتوقفنا فى بيزا لزيارة برجها المائل الشهير الذى يرجع عهد بنائه إلى القرن الثانى عشر . كما زرنا كاتدرائيتها ومعمدانيتها الشهيرتين . وبيزا هى موطن العالم جاليللى صاحب نظرية دوران الأرض الذى دفع حياته ثمناً لإعلان رأيه العلمى . وبها جامعتها الشهيرة . وبيزا تقع فى مقاطعة توسكانى . ومن بيزا ذهبنا إلى ليفورنو حيث أمضينا بها ليلة . وهى ميناء بها معامل لتكرير البترول ، كما تضم أحواضاً لبناء السفن وإصلاحها . وفى الصباح الباكر غادرناها إلى روما . وفى الطريق توقفنا عند مدينة كاستليانو التى تعتبر مدخلا ومعبراً إلى روما وعلى مبعدة ساعتين منها .

وأطلت علينا روما الخالدة بأبراج كنائسها العديدة ، التى تطاولها جميعاً أبراج الفاتيكان وقبته التى تراها ، مثل برج إيفل فى باريس ، من أى مكان ، وحيثما كنت ، وفى أى اتجاه ، فى ليل كان ذلك أو فى نهار .

# الفصل الثامن

## فى روما :

لم تكن روما غريبة عنى . فقد أمضينا بها عشرة أيام عند قيام الحرب عام ١٩٤٠ ، كانت فيها برغم إظلامها ، تؤنس كل عابر بما يشبه السحر . وقد اتفق المعسكران المتحاربان على اعتبار روما مدينة مفتوحة ، حفاظاً على ما بها من آثار تعد سجلا لتطور الإنسانية . وروما فوق ذلك مزار دينى وعلمى وفنى وثقافى وسياحى لكل الأمم .

سأسرد بعض ما يصف به الإيطاليون عاصمتهم . أسمعهم يقولون : إنها المدينة الخالدة . إنها سيدة العالم . إنها دنيا قائمة بذاتها . إنها متحف يضم آثار كل العصور . وهى وطن أهل الفن جميعاً . وهى نبع الحضارة الإنسانية . وهى التى نقلت منها أوربا المدنية منذ أن أدخلتها إلى فرنسا فى عهد جوليوس سيزار عندما هب لنجدة فرنسا من قبائل الهون . وهى المدينة المقدسة التى قصدها بطرس الرسول ليبشر بالمسيحية . وإذا كانت كل الطرق توصل إلى روما كما يقول المثل السائر ، فإن أى طريق فى روما يصل بعابره إلى دنيا الخلود . وإذا تغنى بها الإيطاليون فى أغانيهم ناجوها بقولهم : (رومَى ) .

إن سر إيناس روما للمصريين ، فوق انفتاح أهاليها على العالم أجمع ، وترحيبهم بالقادمين إليها ، وأحاديثهم التى تتم بالقول والإشارة فى مرح وخفة يشيعان جوًّا من الألفة . وألوانهم السمراء ، هو ما بها من مبان لا تخطئ العين ما فيها من شبه لما هو قائم فى القاهرة والإسكندرية وبورسعيد بصورة كاملة . فهذا المبنى رأيت مثيلا له فى شارع النبى دانيال بالإسكندرية . وهذه الفيلا شبيهة بفيلا فى ستانلى برمل الإسكندرية وهذه العمارة توأم لعمارة فى شارع شريف . وأينما اتجهت وجدت أشباهاً

لظلال ومآلف للقاهرة أو الإسكندرية فى المبانى والمطاعم والمقاهى والمنتديات . ومرد ذلك كله إلى أن المهندسين الإيطاليين الذين أقاموا هذه العمائر فى روما ، أقام مواطنون لهم عمائر فى القاهرة والإسكندرية منذ القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين .

وتقع روما على نهر التيبر . ويبلغ عدد سكانها مليوناً وسبعمائة ألف نسمة . وبعد انهيار الدولة الرومانية الشرقية بعد العهد البيزنطى ،أصبحت روما مقراً للبابا وقصبة للعالم المسيحى الكاثوليكى . ومنذ ذلك الحين وهى كعبة القصاد من كل لون وجنس وهدف وغاية . وقد أمها أهل الفن من الرسامين والنحاتين والمعماريين والشعراء والموسيقيين والمغنين . وفن المعمار فى روما مدين للفن الإغريقى ويأخذ عنه ويضيف إليه ، مما اكتسبه من ذوق جديد وفن حديث ، بحكم التطور والتقدم والارتقاء . وبعد عهد النهضة ، وفى عام ١٨٧٠ أصبحت روما عاصمة إيطاليا بعد اتحادها . وفى عهد موسولينى ، زحف عليها بأنصاره عام ١٩٢٢ ، حيث استدعاه الملك لتولى الحكم . وفى عام ١٩٤٣ دخلها الألمان . وفى عام ١٩٤٤ أخرجهم الحلفاء منها .

كانت فيلاسافويا وحديقتها ( ٦٠ فداناً ) هى مقر مكاتب السفارة والقنصلية ومسكن السفير . وهى من أملاك ورثة الملك فيتوريو إيمانويل الثالث ، إلى أن اشترتها الحكومة الإيطالية منهم عام ١٩٥٧ . وكانت الحكومة المصرية تستأجرها من هؤلاء الورثة الذين استقروا بالإسكندرية بعد زوال الملكية عقب الحرب . وكانت السفارة تضم مكاتب وأقساماً تفوق الحصر . ففيها عدا مكاتب السفارة والقنصلية مكاتب تجارية وصحفية وعسكرية لمختلف الأسلحة . وكان موظفو هذه المكاتب ومن يقصدونهم لأعمال تتعلق بوظائفهم ، يملأون دهاليز وممرات السفارة ، حتى لقد كدنا نستعين بشرطى مرور لتنظيم الحركة بين هذه المكاتب .

وكان مكتب السفير وصالونه ، يواجهه مكتب الوزير المفوض

وصالونه حيث كنت أعمل . ومما يروى أن خلافاً دب بين موسولينى والملك إيمانويل ، تحمس معه كبير ياوران الملك وحاول اعتقاله . وبدأت القصة باستدعاء الملك لموسولينى ليقابله فى قصره الخاص ( فيلا سافويا ) إذ أن القصر الملكى الرسمى هو قصر الكيرينال الذى يقع فى قلب روما .

وكان ذلك قبل تكليفه بتأليف الحكومة . وعندما حضر موسولينى ، جلس فى مكتب كبير الياوران– وكان مكتبى –انتظاراً لإذن الملك لمقابلته فى مكتبه ، وهو مكتب السفير . وقد حاول كبير الياوران بعد مناقشة حامية مع موسولينى أن يعتقله ، لولا تدخل الملك الذى خشى مغبة احتكاك أنصار موسولينى العديدين بالحرس الملكى . وانفض المشكل ، إلا أن المكتبين دخلا التاريخ . وأصبح مكتبى مزاراً من كثيرين من أصدقاء السفارة من الإيطاليين . وكنت أفاجأ وأنا أعمل بفوج من هؤلاء السائحين ، جاءوا للفرجة على حجرتى التى حجز فيها موسولينى . وطبيعى أن دليل هؤلاء الزائرين كان يشير إلىّ كما لو كنت أنا وفقاً لشرحه ، كبير الأمناء ، إبان الحادث ، وأن الكرسى المواجه لمكتبى كان يجلس عليه موسولينى [١] .

فى إحدى حفلات السفارة ، كانت ممثلة إيطاليا الأولى ، جينا لولا بريجيدا ، بين المدعوات . وقد حضرت مع زوجها الطبيب اليوجوسلافى ، الذى سرعان ما أحاطت به عند دخولهما سيدات وصحفيون وأصدقاء ، كما أحاط بلولا سرب من القلوب الهائمة والعيون النفاثة . ومن حسن طالعى أن وجدت نفسى جاراً لها فى هذا الحشر . وفى سعيى لإنقاذها من هذه الزحمة ، أشرت عليها بمصاحبتها لمشاهدة صالونات وأروقة

---

( ١ ) كان أثاث الصالون الملحق بمكتبى عجيباً فى طرازه . فقد كانت أرائكه وكراسيه تبدو كما لو كانت ( مينياتير ) أو مصغر لصالون . ذلك أن الملك فيتوريو إيمانيول الثالث كان قصير القامة إلى حد بعيد ، ولو أنه جلس على فوتيل عادى لبدا ضيفه عملاقاً وبدا هو فى حالة لا يرضاها .

ودهاليز وأثاثات القصر . وكنت أقول لها وأنا أفسح الطريق أمامها إننا زملاء . وربما كان هذا مما اطمأنت له وصحبتني من أجله في هذه الجولة . وقد دار بيننا حديث خاطف – تخلل المشاهدة – بدأته بسؤالي عما إذا كنت زميلا من زملاء الشاشة أو المسرح . فأجبتها بأني ممثل دبلوماسي في السفارة . وأما دعوتي أو ادعائي بأني زميل ، فرجعه إلى أن وسيلتنا وهدفنا واحد . فنحن نعمل مثلكم لإشاعة الهدوء والسلام في أي مكان ، ونعالج مشاكل ونخلق جواً من التفاهم الدولي مهما تباينت الأجناس أو اللغات ، وإذا كان مسرح أعمالكم هو البلاتو ، فنحن مسرح أعمالنا العالم أجمع . ولقطاتكم التي تمثلونها ، نقوم نحن بأدائها عندما ننفذ ما يأمرنا بتنفيذه ، مخرجنا الأكبر الذي يصمم سياسة خارجية بلدنا . وأفلامكم المسجلة ، عند الانتهاء من عملياتها من تحميض ومونتاج ودوبلاج ، وإعدادها للعرض ، هي أعمالنا نفسها من واقع تقاريرنا أو مقابلاتنا أو تحركنا السياسي . أما الماكياج الذي تضعونه وفقاً لما يتطلبه الدور المرسوم ، فنحن كذلك نقوم بوضعه ، بما نرسمه على وجوهنا من ابتسامات ليس وراءها في الحقيقة ما يدعو لها ، أو من إبداء دهشة لأمر ، نحن نعلم عنه كل تفصيل ، أو من كبت انفعال لابد لنا من كتمانه ، ولحسن حظكم ، أنكم تزيلون ماكياجكم بعد القيام بأدواركم ، أما نحن فإننا حتى بعد تقاعدنا ، تبقى رواسب وآثار لما وضعناه من ماكياج ، التصقت بأساريرنا وحركاتنا ، وغدت جزءاً منا لا سبيل إلى الانفصام عنه . ولا خلاف بيننا إلا أن لكم معجبين ، وأن لنا محاسبين .

إن روما من العواصم التي تنفرد بميزة لزوم التخصص في فرع مما تضم من آثار أو آداب أو فنون ، للمقيم بها (لفترة زمنية كالتي نمضيها بها ، حتى نخرج منها لا بحصاد المشم ولكن بقطر من بحر ، وحتى لا نطلع من المولد بلا حمص .

فقد كان لي زميل بالسفارة ( سكرتير تان ) هو الآن من الوزراء المفوضين

النابهين ، أمضى أكثر من عام فى زيارات علمية تاريخية أثرية لكنائس روما ، ولم يكن قد غطى بزياراته نصف ما فى روما من كنائس .

وزميل لنا آخر ، كان همه زيارة معاهد اللغة الإيطالية وتاريخها وأدبها ومتابعة ما ينشر من أبحاث عنها وعن اللغة اللاتينية ، وهو كزميله لم يكن قد قطع فى أبحاثه نصف ما كان يبغى ، برغم تمكنه من اللغتين الفرنسية والإيطالية ، تمكناً كان مثار عجب وإعجاب مترجم السفارة الإيطالى . وكان هذا المترجم الجليل ، يعدّ من قدماء الإيطاليين ، حيث جاوز الثمانين من عمره . وكان يحمل لقب (البيكوية ) منذ أن كان يعمل رئيساً للقسم الإفرنجى بمجلس الوزراء بمصر عام ١٩٢٠ . وكان اسمه ( إرموللى ) . ولم يكن يسمح لأحد إذا ناداه ، بأن يغفل لقب ( بك ) الذى كان يعتز به كثيراً . وكنت كثير الحرج من هذا اللقب . وكان يخطر ببالى أن أقول له إن أخطأ بحكم السن فى تنفيذ طلب أو نسى قضاءه ، « فين يا جدع انته يا بيه اللى طلبته منك ! » . ثم أعود فأحترم شيخوخته واعتزازه بلقبه ، وأسكت حتى أنسى أنا أو يتذكر هو . وكان زميل ثالث فيلسوف ، أمضى أكبر من عامين وهو يريد أن يلم ويحيط بمطارح الأنس ومباهج ومشارب المرح فى روما ، استمساكاً منه بمذهب كان راسبوتين فى صدر شبابه قد اعتنقه ، ومن مبادئه ، أن الصلاح والنقاء لا يدركان إلا عن طريق مقارفة الممنوع ، حتى تنجاب حقائق الأضداد ، وذلك ليتسنى له وضع سفر يضمنه جولاته ويصف فيه ما رآه رأى العين ، وذاقه مذاق الخبير . وقد تركته فى روما ، وكان لم يتجاوز فى عمله الأدبى ، بضع صفحات من مقدمة الكتاب .

وكانت متابعتى للأحداث السياسية الجارية ، وميلى للموسيقى ، قد حددا طريقى فى التخصص . وقد عدلت بين الأمرين عدلاً استقام معه أمرى . فكنت أمضى نهارى فى متابعة شأنى الأول وتقصيه ، والتجول فى دروب السياسة المظلمة ، حتى أمسك أحياناً بطرف الخيط ، الذى لا ألبث أن أفقده ، مما يحملنى على إعادة الكرة حتى يقع فى يدى .

وكنت فى ليلى أشبع ميلى للموسيقى والمسرح والأوبرا والباليه، وهى شئون لا أول لها ولا آخر فى روما . ويا حسنها تلك الأيام لو أن حسناً يدوم .

إذ العيش كالغصن فى لينه يميل بعبء ثمار المنى

* * *

كانت سياسة إيطاليا فى تلك الفترة ١٩٥٥ – ١٩٥٦ حيال مصر تتميز بتفاهم متبادل وصداقة متأصلة منذ أقدم العصور . وكانت إيطاليا تكن لمصر مودة هى نتاج اتصالات ووشائج وتفاهم منذ فجر التاريخ . وقد حدث فى نهاية عام ١٩٥٥ أن ما كانت مصر تنتظره من قمح مستورد من أمريكا وكندا ، تأخر وصوله لأسباب سياسية ، حيث كان الاحتكاك بين مصر وأمريكا قد أطل برأسه بعد أن كسرت مصر احتكار السلاح بفضل صداقة مصر لدول أوربا الشرقية ، وهو أمر كان جديداً على السياسة المصرية بعد عام ١٩٥٢ ، ولكنه أثمر وجنينا ثمراته بالاتفاق على توريد السلاح من تشيكوسلوفاكيا بعد أن أبت كل دول المعسكر الغربى علينا مدنا به . وكان من الطبيعى أن تحجب عنا أمريكا هذه الكميات من القمح التى اتفق على شحنها فى وقتها . وقد فوجئنا فى السفارة بوصول وفد رسمى من مصر ، على أعلى المستويات فى شئون التموين . ووقفت من أعضائه على أن ما يوجد بمصر من القمح لا يكفيها سوى فترة وجيزة انتظاراً لما أمكن الاتصال بهم من جهات أخرى ، كان الاتحاد السوفيتى فى مقدمتها ومن أسرعها فى تلبية الطلب ، لتوريد ما هو مطلوب من مقادير . وعند ما أجرت السفارة اتصالاتها بالجهات الإيطالية المختصة ، حصلنا على موافقة إيطاليا على شحن الكمية المطلوبة دقيقاً مطحوناً ، على بواخر إيطالية ، على أن ترده مصر عند ظهور محصولها القادم من القمح . ولم تتجاوز الاتصالات يومين اثنين . وليس أدل من ذلك على مدى الصداقة التى كانت تربط بين البلدين ، ومدى التعاون المثمر بينهما .

أما بالنسبة للمسائل السياسية الكبرى التى كانت تشغل بال الحكومة

الإيطالية ، وتتطلب منا متابعتها عن كثب ، لتحليلها على ضوء ما يجرى حولها من أحاديث فى المجلس النيابى ، وفى أروقة الأحزاب وفى تعليقات الصحف وفى أحاديث المسئولين ، لإيقاف حكومتنا عليها ، فقد كانت بكل إيجاز تنحصر فيما يلى :

١ – كانت رحلة نهرو إلى أوربا وإلى إيطاليا عام ١٩٥٥ ، من بين أهم رحلاته التى قصد بها الدعوة لإشاعة السلام فى العالم الذى انقسم إلى معسكرين ، قد يؤدى الاحتكاك بينهما إلى خراب العالم . وعندما زار نهرو ، البابا ، تكهنت الأندية السياسية بأنه ربما كان الغرض من الزيارة بحث وضع المسيحيين البرتغاليين فى جوا بالهند ، ولكن تبين أنه لم يجر بشأنها أى حديث . ( وقد أنهت الهند هذه المسألة بجرة قلم فيما بعد ) .

وقد أتيح لى أن أتحدث لحظات ( بقصر فيلا ماداما ) فى دعوة رسمية مع بانديت نهرو والسيدة كريمته السياسية البارعةالذكية اللماحة أنديرا غاندى الرئيسة الحالية لحكومة الهند ، والتى كانت تصحب والدها العظيم كسكرتيرة خاصة ، باعتبارى ممثل دولة هى مع الهند ويوجوسلافيا ، أعمدة سياسة عدم الانحياز التى تمثل صمام الأمان بين المعسكرين .

٢ – كان قبول إيطاليا فى شهر ديسمبر من عام ١٩٥٥ عضواً فى الأمم المتحدة ، من الأحداث التى ارتاحت لها الدوائر السياسية الإيطالية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . وكان قد انضم معها سبع عشرة دولة أخرى ، معظمها ينتمى للمعسكر الغربى ، ولم يعترض الاتحاد السوفييتى على هذا الانضمام ، مما حير المعقبين السياسيين ، وكان التفسير الوحيد الذى خرجوا به ينطوى على تحول فى اتجاهات الكرملين . أما إيطاليا فقد اعتبرت انضمامها للأمم المتحدة بمثابة تخطيها لآخر حاجز كانت تأمل فى تخطيه بعد انضمامها إلى كل المنظمات الدولية الأخرى للعالم الغربى .

٣ – انتهت فى شهر ديسمبر ١٩٥٥ المباحثات التى كانت تجريها بعثة إيطالية قصدت أديس أبابا للانتهاء من توقيع اتفاق صرف تعويضات

الحرب ، وذلك فى حدود دفع إيطاليا مبلغ ستة عشر مليوناً من الدولارات للحبشة ، تصرفه فى صورة بضائع مما جرت على استيراده من إيطاليا . وقد حاز هذا الاتفاق رضى الجانبين .

* * *

كل ما فى روما وحولها يغرى بالزيارة أكثر من مرة . ومن أين لى الوقت الذى ألحت إلى صعوبة التوفيق فى إنفاقه . وهو محدود . وغنى روما بآثارها غير ذى حدود .

إن أول ما يطالعك من آثار روما . (الكوليسيوم) . أو ما هو معروف لدى الأثريين باسم (انفتياترو فلافيا) . وقد بدئ فى بنائه عام ٧٢ ميلادية ، وانتهى العمل فيه عام ٨٠ . وكان الأسرى اليهود هم الذين استخدموا فى بنائه ، وكان أحد حكماء روما يقول بعد بنائه ، إنه ما دام قائماً ، فستبقى روما ، فإذا ما انهار فسوف تنهار روما ، وإذا ما انهارت روما ، انهار معها العالم . وكانت تجرى على مسرحه حفلات القياصرة التى كان فى مقدمتها مشاهدة تنفيذ الإعدام فى أعداء الإمبراطورية والقيصر ، بإطلاق الأسود عليهم ، بين هتاف الشعب وتهليله .

وفى قلب روما يقع قصر (بالاتزو فينيتسيا) الذى أقامه باولو الثانى ، (١٤٦٤ – ١٤٧١) . وكان يعد تحفة فى فن المعمار والزخرفة والتأثيث . وكان مقراً لكاردينال روما ، ثم لبابا روما . وفى عهد الحكومة الفاشستية ، اتخذه موسولينى مقراً رسمياً له . وكان يلقى أخطر خطاباته من شرفته الرسيعة الشهيرة ، على عشرات الآلاف من الشعب المستمع إليها فى الميدان المقابل للقصر المعروف باسمه ، الذى يقاطع فقرات الخطاب ، بترتيب محسوب ، بهتافات تتردد فى جنبات الميدان الفسيح .

وفى مواجهة هذا القصر أقيم تمثال (فيتوريو إيمانويل الثانى) الذى يعزى إليه الفضل فى دحر قوات النمساويين والمناداة باستقلال إيطاليا .

وفى وسط روما تقع حديقة (فيلا بورجيزى) ، المترامية الأطراف ،

التى أقام بها الإيطاليون تمثالا لشاعر العرب الخالد ، أحمد شوقى ، إعراباً عن تقديرهم لفنه وعبقريته . ويقف تمثال هذا الشاعر الخالد ، بين تماثيل مشاهير العالم من رجال الفكر والشعر والفن . فإلى جانبه تمثال (جوته) الذى أحب المدينة الخالدة ووصف رحلته إليها وما رآه فيها وصفاً يعتبر درة فى أدب اللغة الألمانية . كذلك يقوم تمثال فيكتور هيجو الذى يقدر شعره ورواياته الخالدة غالبية المثقفين فى إيطاليا .

وفى الحديقة متحف لأعمال مشاهير النحاتين من مثالى إيطاليا ، وعلى رأسهم برنينى . وقد استوقفنى وأنا أشاهد المتحف ، تمثال لكيوبا را وهى مستلقية على أريكة . وقد اتشحت برداء شفاف يكشف عن مفاتن جسدها . والتمثال من رخام أبيض ثمين ، لم أقو على مقاومة رغبتى فى لمسه ولمس ذلك الرداء الشفاف الذى ظننته شيفوناً أو حريراً رقيقاً ، من فرط دقة نحته وبراعة إخراجه من الرخام على هذه الصورة من الفتنة التى استأثر بها برنينى وأصبحت علماً عليه .

وتعد قلعة سانت أنجلو من آثار روما الخالدة . وقد تم بناء القلعة فى القرن السادس . ولقد خلد ذكرها فى أوبرا توسكا للموسيقار جياكومو بوتشينى (١٩٠٣) .

أما مدينة الفاتيكان ، عاصمة دولة الفاتيكان ، فإنها تعد عالماً بذاته . فهى مقر البابا والعاصمة التى تهفو إليها قلوب الملايين من المسيحيين الكاثوليك فى كل بقاع الأرض . وهم يحجون إليها تبركاً بالبابا الذى يمنحهم بركاته من منصة منصوبة أمام ميدان سان بيترو حيث يتلقاها الأتباع الذين يملأون الميدان على سعته . وفى المدينة وزارات الدولة ومكاتب رجال الحكم وإدارات الكنائس والمصارف والأسواق والمكتبات .

وبالمدينة كنائس ومتاحف تحتوى على أندر كنوز الفن من رسوم وتماثيل وتطريز وأيقونات وصور فى السقف وعلى الجدران من أعمال رافائيل وميكل أنجلو .

وقد أصبحت المدينة مقرًّا لباباوات روما منذ عام ١٣٧٧ . وفى ميدان سان بيترو ، توجد أعمدة على صورة نصف دائرة من كلا الجانبين ، وأنت إذا وقفت وراء إحداها حجب عنك ما تلاه من أعمدة قامت على شكل قوس كما قدمنا . وهى من إعجاز أعمال العبقرى برنينى .

وفى متحف الفاتيكان تمثال للنيل الذى أنشأه برنينى على هيئة رجل هرم ، وإلى جانبه تمثال لأبى الهول ، ومن حوله وفوق كتفيه وعلى رجليه أطفال يمرحون . هم فى تخيل المثال ، العواصم والمدن التى تعيش على ماء النيل ، ويحتوى المتحف كذلك على القارورة النادرة المنحوتة من أغلى أنواع الأحجار الثمينة وأندرها ، التى كان نيرون يجمع فيها دموعه الغالية التى كان يذرفها حزناً على من يأمر بقتلهم من أحب أصدقائه وأقربهم . . .

ويضم الفاتيكان مكتبة تعد من أندر المكتبات الوثائقية فى العالم ، التى تحتوى على أثمن المخطوطات الأثرية . وزيارة الفاتيكان تحتاج إلى أسابيع للزائر الدارس ، الذى يميل إلى التعمق والبحث والاستقصاء .

وفى كنيسة ( سان بيترو إنفتكوليس ) . يشاهد الزائر تمثال النبى موسى الذى أنشأه ميكل أنجلو ١٤٨٩ . ويعد التمثال قمة أعمال هذا الفنان الفذ ، التى بوأته ذروة الفن وخلعت عليه أكاليل المجد . ويرى التمثال وهو جالس بجسمه الهرقلى المتين البنيان ، وقد نطقت أساريره بنورانية النبوة وكبرياء الرسالة ، وانطلقت عيناه وراء فكر شارد . مبعثه تألمه من شعبه الذى سدر فى غيه بدون أن تشفع فيه نصيحة أو ينفع توجيه .

ونافورة ( فونتانا دى تريفى ) تحتل من عقائد السائحين مكاناً بارزاً ، مؤداه أن كل من ألقى فيها قطعة معدنية من النقود ، ضمن عودته إلى روما . ذلك ما تقوله الأسطورة . وقد صحت هذه الأسطورة معى مرة . فقد عدت إلى روما بعد زيارتى الأولى لها ومرورى بها عام ١٩٤٠ ، وذلك عام ١٩٥٥ عندما نقلت للعمل بها ، أى بعد خمسة عشر عاماً . ولكنى اليوم — برغم إلقائى للنافورة بشيك على بياض تملؤه الأسطورة بمعرفتها — لم أعد

إلى روما إلا فى هذه الكلمات . أعود إليها مع الذكريات . وقديماً قالو :

ولو فهم الناس التلاقى وحسنه        لحبب من أجل التلاقى التفرق

وهذه النافورة من أعمال ( سالى ) المثال الفنان العظيم عام ١٧٣٥ . وقد أعانه فى زخرفة ما حولها من تماثيل عديدة نفر من مدرسة برنينى فى النحت . ويتوسط النافورة تمثال ( أجريبا ) التى كانت كما تقول إحدى الأساطير ، أول من جلبت الماء إلى روما .

وعلى طريق ( آبيا ) آثار ومخلفات قصور اندرست كانت قائمة منذ قرون عديدة حوالى عام ٣١٢ قبل الميلاد . وبها بقايا آثار ( كاراكالا ) ومسلة ( أكسيوم ) وغيرها .

ويقولون إن على هذا الطريق ، كان القديس بطرس الرسول ، يسير عند مغادرته روما هرباً من الاستشهاد على أيدى الرومان الوثنيين الذين كان يبشر بالدين المسيحى بينهم . وقد تراءى له وهو يجد فى السير ، طيف السيد المسيح يمشى نحو روما . وقد سأله القديس بطرس فى لهفة : « إلى أين أنت ذاهب أيها السيد ! » ، فأجابه السيد المسيح : « إلى حيث يقودنى قدرى » . وقد خجل القديس بطرس ، وعاد أدراجه إلى روما ، ليواجه استشهاده ، حيث لا مفر للإنسان من قدره .

وقد انتهز بعض أصحاب المطاعم الشهيرة ، فرصة ما لهذا الطريق من شهرة تاريخية ذائعة ، وأقاموا بين الأطلال الدوارس ومخلفات الآثار العتيقة مطاعم فاخرة ، تم تنسيقها وتأثيثها وإنارتها على يد مصممين من أساتذة فن الديكور ، راعوا فى تنسيقهم الزمان والمكان ، وراح الطهاة والمديرون يتفننون فى إخراج قوائم الطعام بما يتفق ومقتضى الحال . فهذا دجاج مشوى على طريقة نيرون ، وأنت تشاهد عملية الشواء أمامك ، وهذا حساء ( أجريبا ) ، وهذه شطائر جوليوس سيزار ، وهذه فطائر أنطونيو . على أنه لا يرتاد هذه المطاعم إلا كابر وابن كابر ، وله نسب فى الكابرين عريق يساعده على دفع فاتورة الحساب التى تبلغ مع نبيذ ( آبيا ) الإجبارى ،

رقماً خيالياً صاروخياً فلكياً .

أما حدائق ( البنشو ) الأنيقة الفاتنة ، التى تطل من شرفتها الوسيعة على كل روما . فإن الأهالى يقصدونها ليستمتعوا بكل هذه الفتنة الناضرة ، حيث ينتشرون فى طرقات الحديقة وما انتثر فيها من مطاعم . ونواد . وهى ترتفع عشرات الأمتار عن روما ، وفى أيام . الآحاد والعطلات تمتلئ هذه الحدائق بزوارها من مختلف الطبقات ، فمن لم تسعفه سيارته الخاصة ، أوصلته إليها السيارات العامة ، فالكل فى حق الحياة سواء .

ومن الشوارع التى لا ينساها الزائر فى روما ، شارع ( فيا فينيتو ) الذى تقع فيه أفخم فنادق روما ، مثل إكسلسيور وفلورا . كما أن به مبنى السفارة الأمريكية الذى اشترته السفارة من الملكة مارجريتا . كذلك توجد به أفخم صالات الشاى والمقاهى الفاخرة مثل مقهى ( الدونيه ) . وأنت تشاهد وأنت جالس مكانك أشهر ممثلات وممثلى إيطاليا عندما يكونون على موعد فى أحد فنادق هذا الشارع الأرستوقراطى العريق . وإنك لتسمع ٩٠٪ مما تسمعه من حديث فى هذا الشارع بلغات أجنبية ، حتى أطلق عليه بعض الماجنين من الإيطاليين اسم . « الأرض المفقودة » . وهذا الشارع يبدأ من قصر الملكة مارجريتا حيث تقيم السفارة الأمريكية ، ويصب فى حديقة فيلا بورجيزى . ومن شوارع روما الأنيقة ذات الأسعار العالية والبضائع النادرة ، شارع ( فيا كوندوتى ) . وهناك شبه مثل يقول : فى استطاعتك أن ( تفاصل ) فى أى مكان فى إيطاليا ، فيما عدا ( فيا كوندوتى ) ويوجد بهذا الشارع ( المقهى اليونانى ) ، ( كافيه جريكو ) الذى تقرأ عند مدخله لافتة تحمل اسمه وسنة تأسيسه وهى ١٧٦٠ . وكان يؤم هذا المقهى كبار الأدباء والشعراء والموسيقيين أمثال ( أناتول فرانسس وفيكتور هيجو ولامارتين وليست وشوبان ) . وبالمقهى مقصورات حول الجدران عدا الموائد المنتشرة فى الوسط . وكان مديرو المقهى ، كلما أم مقهاهم شهير ممن ذكرت ، أجلسوه فى إحدى المقصورات ، حتى إذا ما غادر المقهى ،

وضعوا لافتة نحاسية صغيرة باسم الفنان الكبير ، تخليداً لذكرى ذلك اليوم ، وهى ما تزال قائمة إلى يومنا هذا .

وكنا نجد فى عطلات آخر الأسبوع وإجازات الأعياد متنفساً ومنطلقاً للخروج إلى ما حول روما من ضواح وقرى ومدن . ولعل من أكبر نعم الله على روما . وجود شاطئ البحر على بعد ٢٥ كيلومتراً فقط منها . وعلى هذا الشاطئ يقع بلاج أوستيا الجميل ، حيث يجد المستحمون لذتهم فى رياضة السباحة والبحر ، وقضاء عطلة الأسبوع فى فنادقه ، أو الإقامة فيما حوله من منازل طوال الصيف أو العودة فى اليوم نفسه لمن يمنعه عمله عن التخلف . وهناك بلاج آخر يدعى ( فريجينى ) على نفس المسافة من روما .

وعلى مشارف روما تقع قرية ( روكا ديل بابا ) وكذلك ( كاستل جوندولفو) المقر الصيفى للبابا . وأنت إذا تركت روما فى طريقك إلى تيفولى ، حظيت برؤية قصر ( فيلا ديستى ) المسمى باسم الكاردينال إيبوليت ديستى ابن لوكريسيا بورجيا من الفونس الأول حاكم ( فرارى ) ، الذى بنى عام ١٥٥٠ ليكون مقراً للكاردينال المذكور . ويحتوى هذا القصر على نافورات راقصة متباينة الأشكال والاتجاهات ، تجعله الوحيد فى أوربا الذى ينفرد بهذا الامتياز ، ولكل من هذه النافورات التى تزيد عن المائة ، اسم تعرف به ويرمز إليها . وبرغم قدم القصر ، فإن جدرانه وأبهاءه وسقوفه ما تزال تحمل صوراً رسمها أقدر الفنانين فى ذلك العصر . ويقع القصر على مرتفع يشرف منه على ما حوله من مناظر فاتنة . وعلى جناح الأفق تنام روما وهى ملتفة فى ضباب كأنه نقاب العروس ، الذى يخفى ويكشف وجهها ، أو يتركه بين بين . وفى صالة وسيعة من صالات القصر ، أقيمت كنيسة صغيرة ، خلف مذبحها تبدو صورة للسيدة العذراء ويسوع المسيح فى طفولته ، تعد من أروع محتويات القصر . وهى من صنع الفنان ( أجريستى ) .

وأنت إذا تركت روما وصعدت شمالا ، قابلتك فلورانس مركز الإشعاع الفكرى فى إيطاليا مدى قرون . وهى مدينة ( دانتى الليجييرى ) . وإلى الشمال منها مدينتا فيرونا وبادوفا القريبتان من بحر الأدرياتيك . ولقد جرت أحداث مأساة شيكسبير ( ١٥٩٤ ) الخالدة ( روميو وجولييت ) فى هذه المنطقة . وتقع المدينتان فى مقاطعة الأديج الأعلى بين إيطاليا والنمسا . وتعدان من أكثر مدن إيطاليا غنى بآثار القرون الوسطى ( من القرن التاسع حتى الحادى عشر ) . وبها جامعتان باسميهما . وعلى مقربة من فيرونا تقع عروس الأدرياتيك ( فينيسيا ) الشهيرة بقنواتها وجندولها الحالم . ويبلغ عدد سكانها ٣٠٠ ألف نسمة . وتشتهر بالصناعات الزجاجية النادرة من مورانو إلى رقائق من البلور الملون . وفى استطاعة الزائر أن يرى المصنع وهو يقوم بصنع ما يوصى به ويستلمه بعد فترة قصيرة . وهى مركز للصناعات البحرية . وبها ملاهى الليدو العالمية التى يؤمها أثرياء السائحين للنزول بفنادقها الفاخرة التى تضم صالات الروليت والباكارا . ويقع ميدان سان مارك فى وسط المدينة حيث يشاهد قصر الدوج والحمام الذى يملأ الميدان . وبالمدينة تسعون كنيسة غنية بالآثار ، وعلى أحد قنواتها العديدة يقع كوبرى التنهدات ، حيث كان يصل بين السجن من ناحية وبين المبنى الذى يتم فيه تنفيذ حكم الإعدام من ناحية أخرى . وهناك الكوبرى المسمى ريالتو . وفى رواية شيكسبير ( تاجر البندقية ) يقول أحد أشخاص الدراما : « ماذا يجرى فوق الريالتو » . فقد كان هو مصدر أخبار المدينة لتزاحم الناس عليه .

وحلم كل عروس أن يجرى بها وبفتى أحلامها الذى يرافقها جندول ، يشدو ملاحه بأغان شجية عذبة ، وهو يعزف على آلة الجيتار أو التشيللو . ويرتدى ملاحو الجندول ملابس مزركشة جميلة ، لتكتمل الصورة الحالمة التى طرزها خيال العروس .

والحديث عن إيطاليا لا تتسع له موسوعات . ووقت الزائر محدود .

وجهده محدود . وعمله يحثه على العودة من حيث أتى ، كلما ابتعد عنه يوماً أو بضعة أيام .

ومثل كل حلم جميل ، انتهت فترة إقامتى بروما ، بصدور الأمر بنقلى إلى ديوان الوزارة ، لأشغل منصب السفير المشرف على الشئون العربية، ولأكون فى الوقت نفسه مندوباً دائماً للجمهورية العربية المتحدة لدى جامعه الدول العربية فى شهر مارس عام ١٩٥٦ .

غادرنا روما بالسيارة إلى نابولى حيث زرنا صخرة كابرى التى يؤمها السائحون من كل أطراف الدنيا واشتهرت بهم . كما زرنا سورنتو المدينة الغارقة فى صناعة أدق أشغال الإبرة والدنتيل . ومن نابولى ، حيث كانت ترسو الباخرة أسبيريا أبحرنا إلى الإسكندرية . وخليج سانتالوتشيا فى نابولى بهجة الزائرين ، وملتقى مراحهم .

ولقد سكت عن نظم الشعر فى إيطاليا ، أو لعلنى كنت أختزن ما أرى لأنشره نظماً أو نثراً حينما يبغى الخيال . ذلك أن فى إيطاليا من الجمال ، ما تحس به الروح فى قوة ونفاذ ، ويحيط به شوق النفس ووعى الخفاق ، ولكنه فى سموه وعلاه ، يجل عن الصفة مهما أدركته المعرفة . وكان سكوتى مشابهاً لسكوت المجنون عن التحدث إلى ليلاه ، يوم أن رآها بعد غيبة واشتياق ، فلما سأله أخدانه وخلانه عما تحدث به إليها ، أجاب : « شغلنى حبها عنها » . على أنى قلت فى إيجاز وأنا أرحل بعيداً عن روما :

تاه من حولها الزمان وتاهت وتمنى رواءهـــا كل مغنى
أى فجر وأى مغرب شمس وأصـــيل ، بحسنهـــا يتغنى

# الفصل التاسع

## فى صوفيا :

بعد أيام أربعة من مغادرتنا نابولى ، كحل الله عينى فى فجر يوم باسم من أيام الربيع ، بشاطئ ثغر الإسكندرية ، الذى بدا ماداً ذراعيه مرحباً بالقادمين ، وكانت تحيط به غلالات ، لم يكشف بعد المسافة عما يخفيه الشاطئ الوديع من أحلام الصبى وبدوات المنى وصبابات العذارى . كلما هل عليهن فجر أو أطل صباح .

وكانت غيبتى عن مصر طالت هذه المرّة ، وعدت أكثر إحساساً بما فى خيرات البعد عمن تحب من لهفة الحنين ، وصبوة العاشق ، وحرارة الشوق عند اللقاء .

وقفت أستاف عطر الفجر ، وأنشق عبير الذكريات ، والطبيعة من حولى هيأت لى ، من غذاء الروح ، أقصى ما تشتهيه الروح من قوت ، وأجمل ما تتمناه العين من متاع .

إننى أحسد السائحين الذين يجيئون إلى مصر ليروها أول مرة . فإن اعتيادك النظر إلى الحسن ، يمضى بك إلى حال من الألفة به ، حتى لايبهرك إذا بدا ، مثلما فعل بك أول مرة . والقمر إذا ظل بدراً طوال الشهر ، زهدته النفوس ، وملته العيون النواظر . ولدينا آثار لو تفرقت بين متاحف العالم — بطريق الإعارة — لأغنتها . ويشق وادينا نهر مبارك الروحات والغدوات وهو من بين أنهر العالم فريد ، لا يدانيه فى خيراته أو صفاته نهر آخر ، أى نهر كان . فهو يجرى بقدر وحسبان ، وأصبحنا نقيسه بالمتر واللتر ، بعد إقامة السد العالى الذى تحكم فى جريانه وتهذيب اندفاعه . بل إن لونه يتغير مع الفصول كما لو كان شجراً أو ثمراً . وله خرير هو سيمفونية خالدة فى سمع الزمان . ولدينا فوق هذا وذاك من نعم الوادى الخصيب ،

صوت أم كلثوم الذى نباهى به كل صوت على أى لسان . ولم أحمد لآلات التسجيل فضلاً ، قدر حمدى لها ويدها عندى، ممثلة فى أشرطة ما تغنت به أم كلثوم من شوامخ أغانيها وغنائها ، التى كنت أنتقل بها من دولة إلى دولة . وصوتها يؤنسنى ويملأ جوانحى فرحة وطرباً .

وجدير بكل مصرى أن يعتز بوطن علم الدنيا فنون الحضارة والعلوم والمدنية . عندما كان هذا العالم يحبو . وحينما كان يغط فى نوم ثقيل ، بدون أن يدرك مما حوله شيئاً .

بل لقد كانت مصر أول أمة حملت رسالة التوحيد فى عبادة إله واحد منذ عهد ( أخناتون )

وجدير به أن يتفانى فى رفعة هذا الوطن الذى جمع إلى العلم والحضارة ، والسبق بينهما ، عزيمة أبنائه وإصرارهم على اللحاق بما فوته عليهم عالم إمبريالى يخشى تقدمهم ويعمل على الفت فى إرادتهم ، بما يصطنعه لهم من عوامل وحواجز ، كإقامة إسرائيل ودعمها بكل ما تحتاج إليه ، وزرعها ودقها كإسفين يفصل بين دول المنطقة العربية .

وحللت أهلا ، وحللت سهلا ببلدى الحبيب ، وملأت عينى من مناظره، وقلبى من لهفة الحنين إليه، ومضيت فى عملى الذى لم يكن غريباً عنى ، منذ أن عايشت كما قدمت ، أدق وأخطر المشاكل فى الدول العربية التى عملت بها فى فلسطين والأردن وسوريا ولبنان .

كنت أشرف على الشئون العربية فى الوزارة ، وأمثل الجمهورية العربية المتحدة ، كمندوب دائم لها لدى جامعة الدول العربية ، مع زملائى من ممثلى الدول العربية ، على مستوى السفراء .

وكانت تتجمع فى الأفق الدولى سحائب قاتمة ، فى تلك الفترة من النصف الأول من عام ١٩٥٦ ، بعد أن فازت مصر بالحصول على ما تريده من السلاح من تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٥٥ ، عقب الحصار المحكم الذى ضربته حولنا الإمبريالية ، لنبقى عزلا أمام عدو يسبح فى بحر من أسلحة

الدمار . وكانت أمريكا توالى إسرائيل إلى جانب الأسلحة والمعدات العسكرية ، بالمال الوفير والعون الأدبى فى الهيئات الدولية .

أما فى المحيط العربى ، فقد كان شاغل الجامعة العربية فى تلك الآونة ، عرض موضوع إبراز الكيان الفلسطينى ومناقشته وإقراره . وكنا نجتمع وننفض ، وننتهى إلى إحالة الموضوع على مجلس الجامعة على مستوى وزراء الخارجية ، ثم يعود الموضوع إلى اللجنة السياسية على مستوى السفراء لإعادة بحثه . وكان للأردن وجهة نظر معارضة فى هذا الأمر ، الذى كان فى تنفيذه ، الرد العملى على دعاوى الدوائر الأجنبية التى كانت تنتقد سكوت أهل فلسطين عن قضيتهم . وسماحهم بأن يتناول بحثها دول عربية غيرها تقحم — فى ظنها — نفسها فى شئونهم . ولست فى حاجة إلى القول إن نقطة الحبر تعكر باللون الأسود ، كوب ماء . ولكن كوب الماء تضيع فى زجاجة حبر .

ثم جاء اليوم الحاسم ، يوم ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦ ، عندما أعلن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، قراره بتأميم قناة السويس ، حتى يستطيع أن يمول من دخلها مشروع السد العالى ، بعد أن أبت أمريكا وتوابعها إقراض مصر للقيام به ، بل عمدت متجنية إلى التشكيك فى متانة مركز مصر الاقتصادى ، الذى ثبتت سلامته .

وكان المهيمنون على السياسة الخارجية العليا عندنا ، قد رأوا أن تزيد مصر من روابطها السياسية والاقتصادية والثقافية بدول شرق أوربا ، التى كان التمثيل معها على مستوى القائمين بالأعمال . وقد صدرت بالفعل فى شهر يونية عام ١٩٥٦ قرارات بتعيين وزراء مفوضين فى هذه الدول كنت أنا من بينهم ، وكانت صوفيا من نصيبى .

كان اتفاقنا مع تشيكوسلوفاكيا على مدنا بما نريد من سلاح ، بمثابة البرهان العملى على ما يمكن أن تجنيه مصر من التوسع فى علاقاتها مع هذه الدول الشرقية ، الذى وجدت مصر أنه ألزم إليها من أى اتجاه آخر ومن أى صداقة أخرى ، فى فترة ترددت فيها تهديدات الدول الرأسمالية ،

وبخاصة دول المنتفعين من إدارة القناة . وقد جاء استعداد الاتحاد السوفيتى فيما بعد هذه الآونة ، للموافقة على بحث إقامة السد العالى ، دليلا عملياً ، وتأكيداً جديداً لما يمكن أن تقدمه الصداقة المجردة من الهوى والغرض ، من منافع تعود على الطرفين ، ورمزاً عند إتمام السد العالى بكل ما قدمه الاتحاد السوفيتى فى إقامته من بذل العون بالمال والخبرة والمعدات والرجال ، أقول إنه يبقى رمزاً ضخماً للصداقة المجردة بين الشعوب ، التى لا تنزع إلا إلى إقامة تفاهم وتعاون ومودة وإخاء . . .

صدرت لى التعليمات بالسفر إلى صوفيا لتقلد مهام منصبى كأول وزير مفوض ومندوب فوق العادة لمصر لدى بلغاريا . وهو المركز الذى لم يمض على فيه سوى فترة وجيزة ، حتى اتفق البلدان على رفع التمثيل الدبلوماسى بينهما إلى درجة السفارة ، وصرت بذلك أول سفير يمثل مصر لدى بلغاريا ، بعد أن أثبتت الأيام جدوى التوسع فى العلاقات مع دول شرق أوربا . ومدى ما تجنيه الأطراف المعنية من هذه الصداقة الصادقة .

غادرنا الإسكندرية بحراً إلى رودس ، حيث أمضينا بها يوماً . وهى جزيرة تقع ضمن أرخبيل الدوديكانيز ، ولا يزيد سكانها عن خمسين ألف نسمة . وبها آثار من مختلف العصور . وغادرناها مساء إلى بيريه ثغر اليونان ومنها إلى عروس الأدرياتيك ( فينيسيا ) حيث قضينا بها يوماً وليلة غادرناها إلى تريستا . وقد كان فى انتظارى مندوب شركة اللويد تريستينو حسب اتفاق سابق ، ليتولى تسلم متعلقاتى الكثيرة الكبيرة ومن بينها سيارة ، من المركب ، وليقوم بشحن كل هذه المتعلقات من تريستا إلى صوفيا بالقطار ، ثم يتولى حجز مكانين بقطار إكسبريس الشرق المتئد الرزين ، كنت أرغب فى أن يحجز لى بدلا منهما مقصورة ، حتى أستطيع أن أستبدل ملابسى بملابس سوداء قبيل وصول القطار إلى صوفيا التى كنت سألقى بها فى انتظارى ، مدير البروتوكول وأحد مساعديه وبعض رجال الإعلام بهيئة المفوضية . ولكنه طمأننى بظرفه الذى جمع أطرافه من أب إيطالى

وأم نمساوية ، فجاء مزيجاً من خفة الروح وسرعة الخاطر . فقد قال لى ، لا عليك ، فإن ( الهباب ) الذى تلفظه مدخنة القطار خلال الطريق وبلا ملل ، يتخلل كل مكان فى القطار ويدركك أينما كنت ؛ هذا ( الهباب ) كفيل بأن يحيل أى لون إلى أسود ، ويعفيك من التغيير والتمسك بالقواعد والعرف فى مثل هذه المناسبة . وقد كان ما توقع المندوب الذكى ، وهبطت من القطار ببذلة سوداء من غير سوء ، حيث كان فى استقبالى مدير البروتوكول ومساعد له وبعض مندوبى الصحف ومصورون . وقد أوصلنى مدير البروتوكول إلى دار المفوضية ( السفارة فيما بعد ) ، ومكثنا بالمفوضية بعض الوقت ثم استأذن فى الانصراف بعد أن حددت موعداً لمقابلة وزير الخارجية ، لتسليمه صورة من أوراق اعتمادى .

بعد أسبوع من وصولى ، قدمت أوراق اعتمادى لرئيس مجلس رئاسة الجمعية الوطنية . وكان البروتوكول يقضى بأن أستعرض حرس الشرف فى ساحة واسعة تقع أمام الجمعية الوطنية ، هى ميدان ( نارودنو سوبرانيى ) ثم أقوم بتحية الحرس بجملة للشكر والامتنان باللغة البلغارية . وقد حرصت على أن أحفظها وأنطقها نطقاً سليماً يتفق مع هذا المظهر العميق الذى ينطوى على معنى الود والتفاهم . وبعد هذا الاستعراض تقدمنى مدير بروتوكول قصر الرئاسة حتى أوصلنى إلى قاعة فسيحة وقف فى صدرها رئيس مجلس الرئاسة ، ووقفت أمامه على بعد مرسوم لألقى خطابى باللغة الفرنسية ، الذى رد عليه بما يتضمن الترحيب والاستعداد لبذل كل عون من الدوائر الرسمية العليا ، لتسهيل مهمتى وإنجاح بعثتى . ثم سلمته أوراقى التى سلمها بدوره للسكرتير المختص ثم تقدمنى إلى قاعة جانبية ، للترحيب بى .

إن تفتح نفوس أهل بلغاريا مستلهمة من تفتح أزهارهم واخضرار أرضهم . ذلك أن الخضرة لا تغيب عن نظرك أينما اتجهت وأنت فى بلغاريا. وقد صدق من أطلق عليها اسم (حديقة أوربا ) . ومثلما نمت وربت أرضها

بالزرع والضرع وأطيب الثمر ، نمت وربت قلوب أهلها بمحبة كل غريب ، والتسابق إلى صداقته وتقديم ما يكون فى حاجة إليه ، برغم صعوبة التفاهم بالحديث الذى ينوب عنه تلك البساطة والانفتاح والكرم والود الممدود الذى تحسه فى ريفنا المصرى . وربما تميز البلغارى بهذه الطيبة وروح المعاونة ، من دوام رعايته للأرض ، وعنايته بالزرع ومساعدته لما على أرضه من دواجن ودواب ، حتى تأصلت فى نفسه محبة بذل العون لمن أحاط به أو حل بأرضه وطمع فى عونه . ولم تغير الآلة بعد أن انتشرت فى بلغاريا المصانع ، من طبيعة أهلها ، التى هى أثبت وأرسخ من كل دخيل عليها أو ملتف بها . والطبع كما يقولون غلاب .

وأكثر ما تسمعه مردداً فى الحديث من البلغار ، قولهم : « قبل ٩ سبتمبر ، ومنذ ٩ سبتمبر » هذا اليوم من عام ١٩٤٤ ، هو اليوم الذى استطاع فيه البلغار بمعاونة حليفهم الأكبر ، الاتحاد السوفييتى من طرد النازيين والإطاحة بحكم الإقطاع ، وأمسك بين يديه بمقاليد الحكم والمصير بعد أن رزح طويلا تحت نير استعباد الأجنبى وإقطاع الحاكمين من أهل البلد قبل هذا اليوم الكبير الذى أصبحت فيه بلغاريا جمهورية شعبية . وهم يطلقون على بلغاريا اسم بلد (جورجى ديمتروف) وهو زعيمها البطل الذى جاهد ونظم وأوقد الشعلة وثار فى وجه الألمان الذين اقتادوه إلى السجن بتهمة اشتراكه فى حرق (الرايشستاج) عندما كان فى ألمانيا ، وهو الحريق الذى ثبت أن النازيين أشعلوه بقصد الفتك بالشيوعيين . وقد تعلم (ديمتروف) اللغة الألمانية وهو فى سجنه حتى يستطيع أن يدافع بنفسه عن نفسه بلغة القاضى الذى يحاكمه .

وبلغاريا بلد زراعى . وتبلغ مساحته ١١١,٠٠٠ كيلومتر مربع ولا يزيد عدد سكانه عن سبعة ملايين ونصف مليون نسمة . وصوفيا هى عاصمة بلغاريا التى اشتقوا اسمها من اسم آلهة الحكمة (صوفى) ويبلغ عدد سكانها ٤٥٠ ألف نسمة ، وهى تقع فى واد خصيب يمتد

حتى يصل إلى سفح جبل ( فيتوشا ) الذى يعلو وتتصاعد على جوانبه أشجار باسقة وزروع دائمة الخضرة حتى يبلغ ١٢٠٠ متر . وتعد صوفيا من أكثر مدن أوربا الوسطى نظافة وحسن تنسيق . وتنتشر بها الحدائق حتى لا يكاد يخلو بيت من حديقة خاصة . ومبانيها الحكومية ضخمة فخمة . وتعد ميادينها متوسطة الاتساع فيما عدا ميدان ( نورودنو سوبرونى ) الذى تطل عليه الجمعية الوطنية . وتقع بهذا الميدان كنيسة ( ألكسندر نيفسكى ) ذات القباب والطراز البيزنطى ، وهى من خير مبانى هذا الطراز فى أوربا . ومن بين مبانى صوفيا الفخمة مبنى المكتبة والجامعة ودوائر الحكومة المختلفة . كذلك مدفن الزعيم ( جورج ديميتروف ) الذى لا ينقطع سيل زواره من الصباح الباكر حتى المساء ، ليلقوا نظرة على جثمانه فى ردائه الأسود وبكل تقاسيم وجهه وحجم جسمه بعد تحنيطه بصورة علمية بارعة ودقيقة . أما المبنى الذى يضم اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ومجلس الوزراء فإنه يعد أكبر وأفخم المبانى جميعاً . وهو يحتوى إلى جانب المكاتب العديدة ، على صالات للمآدب تتسع لمئات المدعوين ، وصالات للاستقبال وقاعات للاجتماعات ومسرح زودوه بأحدث المعدات المستخدمة فى أرقى مسارح أوربا . وتقام على المسرح بين الحين والحين حفلات لكبار الزائرين من الدول الاشتراكية ، تتبارى فيها الفرق التمثيلية والفولكلورية التى تعرض فنونها بإعجاز .

ومن أكبر مدن بلغاريا بعد صوفيا ، مدينة بلوفديف إلى الشرق من صوفيا ، ومدينة فارنا التى تقع على شاطئ البحر الأسود ومدينة روسى فى الشمال . وتكثر فى بلغاريا الجبال العالية فى منطقة ريلا ورودوب . وتنمو فى بلغاريا غابات خشبية فوق سفوح الجبال تعد ثروة عظيمة ، تغنى عن استيراد أخشاب البناء والسكة الحديد والأثاث . وتزرع بلغاريا الحبوب بأنواعها والدخان الجيد وأنواعاً عديدة من الفاكهة الطيبة الثمر وبخاصة الخوخ والعنب والتفاح . وهى ترتوى من نهر ماريتزا وروافده ، ومن مياه

الأمطار الغزيرة التى يخزنونها بعناية فى خزانات بعد إقامة سدود على ما ينزل منها مندفعاً من الجبال العالية ، حيث يستغلون هذه الطاقة فى توليد الكهرباء التى تدير مصانعهم .

ويعتبر جبل (فيتوشا) متنفساً لأهالى صوفيا ، حيث يصعدون إلى قمته التى ينعمون فيها بالمنظر الجميل والهدوء والهواء النقى . وهناك بعض مطاعم صغيرة ومنتديات للرواد . وكثيراً ما يصعد الجبل جماعات تحمل معها معدات النوم والطعام ويقيمون مخيمات يقضون فيها أياماً فى رياضة وانتجاع يعودون بعدها على خير حال من الصحة والنشاط بدون أن يرهقوا أنفسهم بتكاليف المصايف ، ويعتقد البلغار ، أن من يصعد هذا الجبل ويكون مصاباً بقرحة المعدة ، يعود بعد صعوده سيراً ، وقد تخلص من علته بصورة نهائية .

والشعب البلغارى من رجال ونساء ، أهل عمل وجد ، وإن كانوا فى أوقات فراغهم ، المحدودة ، يعكفون على المرح والرقص والعزف والغناء ، حتى تظن أنهم منقطعون فقط إلى هذا اللون فى حياتهم . وهم يقومون برقصات شعبية على أنغام سلافية وموسيقى تزيجان ، السريعة الإيقاع لا تكاد أرجلهم تبين من حركاتها الخاطفة ، التى يساعد تواترها على دفع بردهم القارس وبعث الدفء فى أطرافهم .

وحل يوم ٢٩ أكتوبر بقتامة ظله . الذى بدأ فيه العدوان الثلاثى على أرض الوطن ، بترتيب مبيت ، وهو ما يزال عالقاً بالأذهان . وقد كان الباعث عليه فى نظر أغلب المعقبين السياسيين المحايدين ، هو تأميم القناة ظاهرياً ، وتحقيق مطامع الدول الثلاثة من هذا العدوان فى حقيقة الأمر ؛ كل بحسب ما دبر من أطماع .

فى هذه الأيام لمست طيبة الشعب البلغارى مكشوفة كأنك تقرأها فى كتاب . وإنك لترى أسارير وجه البلغارى وكأنك تنظر من وراء زجاج شفاف ، يكشف لك عما وراءه . كذلك لمست صداقة الحكومة

وسفارات الدول الاشتراكية ، والبارزين من أعضاء اللجنة المركزية الذين كانوا يخصونى إذا حضرت حفلا بكل تقدير وإكبار ، لأنهم كانوا يرون فى شخصى صورة لبلدى المكافح الصامد أمام قوى عاتية إمبريالية .

وكان الأهالى من مختلف الطبقات يتوافدون على دار السفارة كل يوم فى مظاهرات يتقدمها حملة اللافتات التى تحمل عبارات السخط والاحتجاج على المعتدين والتأييد لمصر الصامدة . وكانوا يخطبون وكنت أرد عليهم وسط كاميرات وأضواء كشافات السينما لأخذ أفلام كانوا يعرضونها فى دور السينما فى كل بلغاريا . وكان الكثير من البلغار الذين مارسوا العمل فى البحار يتقدمون لتسجيل أسمائهم ، للتطوع للعمل فى القناة كمرشدين ، بعد أن استقال المرشدون الأجانب العاملون بالقناة قبل العدوان ، حتى لم يبقَ سوى قلة من اليونانيين الأوفياء تمثل ٢٥٪ من مجموع العاملين .

وكنت أنوب عن المسئولين فى مصر ، بتقديم الشكر على هذه الروح الصادقة الود والاستعداد ، حيث كان الكثيرون يبدون استعدادهم للتطوع للدفاع عن مصر .

وتمضى الأيام فى سيرها المجد ، لتطوى ما هو شر وما هو خير من هذه الأيام ، كما يقول شيكسبير ، وتزول الغمة بعد إعلان الإنذار السوفييتى والإنذار الأمريكى للمعتدين ، بالتوقف الفورى عن القتال .

انفسح أمامى الوقت للتعرف على ما حول صوفيا من مدن ، أو قرى ، كنا نقطعها فى راحة كفلتها الطرق المرصوفة رصفاً حديثاً ، يزيد من متعة الرحلة . فإلى جانب جبل ( فيتوشا ) الذى كنا نصعده بالسيارة مرات ، كنا نذهب إلى مصيف بانكى الذى كان أثرياء البلغار قبل ١٩٤٤ يبنون فيه قصورهم لقضاء الصيف بها والاستفادة من ينابيعها المعدنية . وتوجد فى ضواحى صوفيا مدينة ( جورنا بانيا ) ذات الينابيع المعدنية كذلك . ويعمل البلغار على الاستفادة مما ببلدهم من مياه معدنية للشرب يعبئونها فى زجاجات للتصدير وللاستهلاك المحلى . وقد أقام البلغار بمساعدة الخبراء الروس

سدوداً على مساقط المياه ، وبنوا خزانات للمياه للاستفادة منها فى الرى والاستعمال ، واستخدموا الطاقة المتخلفة من اندفاع مياه الأمطار فى توليد الكهرباء التى تدير مصانعهم . وكان يتخلف وراء السدود بحيرات ، كانت تجرى فيها بعض القوارب البخارية ، ويقضى المرتادون — ونحن منهم — أيام الصيف على شواطئها الندية من فعل الماء والزرع النامى.

وفى عطلة أحد الأعياد ، ذهبنا بقطار ( اكسبريس الشرق ) المتئد الرزين ، إلى بلجراد فى نحو ثمانى ساعات . وتقع بلجراد عاصمة يوجوسلافيا على رافد من نهر الدانوب . وسكانها ٤٧٠ ألف نسمة . والعمل المتواصل المنتظم هو سمة المدينة . ولن يقع نظرك إلا على عامل منهمك فى عمله بإقبال ولذة . وهى مركز تجارى وصناعى هام فى النواحى الكيمائية والميكانيكية وصناعة أجزاء الطيارات . و روعى فى تخطيط المدينة اختراق رافد للدانوب لوسط العاصمة حيث كان يترك فى دورانه وانثناءاته جزراً كانت تعتبر تجميلا للمدينة ، حيث تقوم بها منتديات وحدائق عامة .

وقد نزلنا بفندق متروبول الذى كان يعج بالسائحين من مختلف الدول ، حتى إن اللغات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية كانت مسموعة أكثر من لغة البلاد . وهذا الانفتاح الذى يرجع الفضل فيه ولكل ما هو متقدم فى يوجوسلافيا إلى الرئيس تيتو ، قد أفاء العمل به ، على يوجوسلافيا ظلالا وارفة من الخير فى ميادين التجارة والصناعة والتعليم والثقافة والسياحة .

كان من شأن العلاقات الطيبة التى تربط مصر ببلغاريا أن ، تتيح للسفير العمل على انتهازها لزيادة التوسع فى العلاقات التجارية والثقافية والعلمية فى نواح وأنشطة مختلفة .

وقد تم تجديد اتفاقيات النقل الجوى وتبادل الخبرات الفنية فى الزراعة والثقافة . وتوافدت بعثات عديدة من مؤسسة الطيران ومن وزارة التربية والتعليم العالى ووزارة الإصلاح الزراعى وزادت حركة التنقل بين البلدين .

وقد تم وضع الأساس لاتفاقية ثقافية تشتمل على كل نواحى الفنون والآداب والعلوم والمسرح والغناء والموسيقى والفولكلور والرياضة البدنية وتبادل المنح الدراسية .

وقد أتاحت لى هذه الراحة النسبية من العمل فى وسط ودود صديق، أن أقوم فى إجازات الأعياد وإجازات آخر الأسبوع برحلات داخل بلغاريا أو خارجها . وكان يقام فى شهر أغسطس من كل عام سوق دولية فى مدينة ( بلوفديف ) التى تقع إلى الشرق من صوفيا وعلى مسافة تزيد عن الساعتين بالسيارة . ويشترك فى هذه السوق عدة دول أوربية غربية ودول اشتراكية ، حيث تعرض مصنوعاتها . وكانت مصر تشترك بعرض أنواع أقطانها . وكانت السوق تقام على مساحة من الأرض متسعة ، تحيط بها المزارع والغابات من كل ناحية . وتعتبر هذه المدينة من أكبر مدن بلغاريا بعد العاصمة وأكثرها نشاطاً من ناحية التجارة والزراعة وإنتاج الدخان والفاكهة . وقد افتتح السوق رئيس الوزراء بحضور كبار رجال الدولة وسفراء الدول .

وفى إجازات العيد الكبير أو الإجازات السنوية ، كنت أذهب بالطائرة إلى فيينا ، فى مسافة لا تزيد عن ثلاث ساعات مع احتساب هبوط فى بلجراد ثم طيران فوق المجر إلى فيينا.

وكان يجذبنى نحو فيينا عاملان : عامل تاريخى يكمن فى الرغبة فى رؤية عاصمة الإمبراطورية التى اتسع ملكها منذ عهد فرديناند الأول حتى ضمت كل المجر وأطرافاً كبيرة من بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا وإيطاليا . وكانت مساحتها تبلغ ٦٧٦,٢٥٠ كيلومتراً مربعاً ، كما كان يبلغ سكانها ٥٢ مليون نسمة فى المدة من ١٨٦٧ حتى عام ١٩١٨. وكانت تسمى جغرافياً إمبراطورية النمسا والمجر . وبتوقيع معاهدة ( سان جرمين إن لى ) فى ١٠ /٩ / ١٩١٩، عادت الأطراف السليبة إلى أوطانها الأصلية ، وبقيت فى حدودها الحالية التى تحيط بها يوجوسلافيا والمجر

وإيطاليا وألمانيا وسويسرا . وأصبحت مساحتها لا تزيد عن ٨٤ ألف كليومتر مربع كما لم يزد سكانها حالياً عن سبعة ملايين نسمة . وأكبر مدنها بعد فينا ، لينز ، وإيزبروك وجراتز وسالزبورج ذات الشهرة العالمية التى تقيم أعيادها الموسيقية فى سبتمبر من كل عام ، حيث يحج إليها أساتذة الموسيقى وهواتها للتزود من هذا النمير الصافى والنبع الغنى .

وفى النمسا صناعات متقدمة فى الميكانيكا والكيماء والآلات الكهربائية الدقيقة ، والنسيج الراقى الصنع . ولقد أصبحت من عواصم الأناقة فى العالم بما اجتمع لها من بيوت الأزياء . ولجامعتها شهرة عالمية واسعة وبها جامعات فى كل مدنها الكبرى . ويؤم جامعاتها كثير من أبناء الدول المحيطة بها . ولمصر بها مئات الطلاب . ولعل اللغة الألمانية التى سادت حيناً فى الدول المحيطة بها ، ساعدت على تدفق الطلاب من كل هذه الدول على النمسا .

ولقد عجبت من أمر الإمبراطوريات العاتية ومطامعها التوسعية . فالأهالى فى النمسا الآن ، ينعمون بسعادة ، لم يتوفر ظلها لأسلافهم فى العهد الإمبراطورى . فقد كانوا وقود الحروب المتتالية فى سبيل توسيع رقعة الإمبراطورية . ولم يكن سعيداً سوى الأسرة الحاكمة وحاشيتها . أما اليوم فإنك تعجز فى أن تعثر على مبتئس أو حزين ، وسط رخاء وأمان .

وكان العامل الثانى الذى يجذبنى لزيارة فينا ، هو عامل تذوق جانبها الفنى . فقد ظلت فينا مركز إشعاع ثقافى وفكرى لأوربا مدى قرون . ففيها أشهر دار أوبرا فى العالم ، وفيها دور للمتاحف والآثار التاريخية والحضارية . ولأهلها ذوق خاص فى إنشاء المبانى وتخطيط الطرق وتجميل المحلات العامة وتنسيق الحدائق الذى يبدو واضحاً فى حدائق قصر ( شونبرين ) الذى شيد فى ١٧٤٤ــ١٧٥٠ فى ضواحى فينا لإقامة الأسرة المالكة بعض الوقت من العام . وكانت الأباطرة ماريا تريزا ( ١٧١٧ — ١٧٨٠ ) من أطول الذين أقاموا به من بين الأباطرة الذين حكموا النمسا . وقد شاهدنا

فى هذا القصر حجرة صالون كسيت جدرانها بنسيج تجرى فيه سلوك من الذهب الخالص ، تقدر بخمسة ملايين جنيه إسترليني . وكذلك حدائق قصر البلفيدير الذى كان يعد مقراً للأسرة المالكة خلال الصيف ،وأصبح متحفاً للفن الحديث ، ويقع القصر الرسمى الملكى وسط فيينا وقد أصبح الآن متحفاً للحضارة والتاريخ الطبيعى . وتمتد أمامه حديقة متسعة مترامية يشقها طريق ويقوم على كل جانب من الطريق تمثال ، الأول لجيته والثانى لشيللر ، والشاعران الألمانيان ، الخالدان بما تركاه من تراث لم يتأثر بمعاول الزمن . ويحرص المثقفون من زوار فيينا على مشاهدة دار الأوبرا فى موسمها أو إذا لم يتيسر لهم ذلك ، زاروا المبانى والمسرح والستائر وطريقة تغييرها أوتوماتيكياً وطرق الإنارة والحيل المسرحية إلى آخر ما فى المسرح من فنون ظاهرة وخفية .

وكنا فى إحدى الزيارات ، فى موسم الأوبرا ، حيث حجزت إدارة الأوتيل لنا مكانين فى ليلة كانت ممطرة مطراً تعذر على التاكسى أن يصل إلى الدار فى الموعد المحدود. ودخلنا بعد أن كان الستار قد رفع منذ ثلاث دقائق . ولم يكن من المسموح أن يدخل أى مشاهد بعد رفع الستار وهو أمر مألوف وعام فى كل الأوبرات . ولما رآنا المستخدم المختص بإرشاد الرواد إلى محالهم ، تأثر لحضورنا بعد الموعد بدقائق ثلاث لأمر خارج عن إرادتنا ، ونظر إلى التذاكر ووجد أنها على الممشى الذى لا يفصلنا عنه من وراء الستار الذى كان يخفينا سوى مترين. وقد لاحظ من ألواننا أننا غرباء، والغريب أعمى ولو كان بصيراً ، فأخذته بنا شفقة ، وطلب منا أن نستعد ، حتى إذا صفق الجمهور ، لمقطع فى الأوبرا ، أسرعنا إلى مكانينا بدون جلبة . ولكن يشاء القدر أن تكون الأوبرا المعروضة ( بايخة ) وليس بها ما يحرك مشاعر الجمهور بالتصفيق . وكنت على وشك أن أهيب بهذا الجمهور ( تصفيقه أمال . . . ) عندما حل بى التعب . وهكذا مضى الفصل المعروض ونحن وقوف نسمع ولا نرى ، حتى نزلت الستار عن

الفصل الأول . . . البارد . . .

وكل ما فى فيينا ينطق بأنها كانت عاصمة إمبراطورية مترامية الأطراف يسكنها ٥٢ مليون نسمة . إن برلمانها لا يقل عظمة عن أكبر برلمانات أوربا . وقصورها وميادينها وطرقها ومبانيها وحدائقها العامة والخاصة ، وفنادقها ومطاعمها ودور اللهو فيها من أوبرا إلى قاعات للموسيقى إلى مسارح ، تترجم عن مجد تليد وعز قديم . وقد ظلت هذه المسحة القديمة ، للدلالة على ما كان من عظمة لم يترك الزمن عليها فى مساره تجاعيد الكبر ، وبصمات الشيخوخة . وكلما وقفت بهذه المبانى ، تعجبت من صمودها أمام معاول الزمن ، الذى لم يترك عليها من الأثر . إلا مثلما تتركه الفراشة على براعم الزهور .

وفى ضواحى فيينا مشارب للنبيذ ، يدعونها ( هويرجه ) حيث يتناولون فيها النبيذ الأحمر أو الأبيض فى أقداح ضخمة ، تحكى ما كان عليه العصر الإمبراطورى من طموح للاتساع .

وتحت ميدان الأوبرا فى فيينا ، مدينة أخرى تعج بالزائرين والمشترين والمحلات العامة والمقاهى والمنتديات والحمامات والصالونات والمطاعم والمكتبات . وعلى مبعدة لا تزيد عن ساعة بالسيارة السياحية ، تقوم ضاحية ( سيميرينج ) التى تعتبر كورقة الكومى فى أوراق ( الكوتشينة ) فإنها مصيف إن شئت وهى مشتى للترحلق على الجليد . وينتقل السائحون بين مرتفعاتها بواسطة ( التيليفريك ) الذى ينقلهم جماعات جماعات .

وفى فيينا مدينة للملاهى ( براتا ) تضاهى أحسن مدن الملاهى فى العالم ، وتتميز بأرجوحتها التى تتسع عرباتها المقفلة لركاب ترام أو أوتوبيس مفصلى كامل العدد . وهى عندما تعمل وترتفع عرباتها فى الفضاء ، ترى منها كل مكان فى فيينا وضواحيها .

ولقد علمت مؤخراً أنهم أنشأوا مدينة جديدة للملاهى تجب القديمة وتتسم بسمة الحاضر الإلكترونى التكنولوجى . والزمن يطير بجناحين من

العلم والتطبيق فى كل جوانب الحياة .

وفى معظم حدائق فيينا العامة ، تنتشر الملاهى والمطاعم . وفى حديقة (شتادبارك) تمثال جميل للموسيقار ( يوهان شتراوس ) ، ( ١٨٢٥ — ١٨٩٩ ) وهو واضع موسيقى الفالس الشهيرة ، وأينما ذهبت فى فيينا تسللت إلى أذنك موسيقى الفالس التى أصبحت رمزاً لفيينا ورقصات فيينا ، مثلما أصبحت موسيقى القرب رمزاً للموسيقى الأسكتلندية والجاز للموسيقى الأمريكية والميجانا والعتابا لسوريا ولبنان والموال المصرى العريق ، النعمانى أو البغدادى مع الأرغول ذى النغم المنفرد فى عالم الآلات الموسيقية المعروفة الذى يترجم عن مشاعر اللوعة والحنين والصبر والكبرياء . أقول إن الموال المصرى بكلامه وتفاعيله من بحر البسيط ونغمه من مقام البياتى ، هو رمز مصر وعنوان ثباتها ، وقدرتها على هضم كل دخيل إليها وصبغه بصبغتها .

ولعل أجمل ما وضعه شتراوس من موسيقى الفالس ، مقطوعة ( الدانوب الأزرق ) ، وكذلك ( الفالس الكبير ) . ولقد أخذنى العجب عندما رأيت الدانوب فى يوجوسلافيا وفى بلغاريا وفى النمسا ، ولم أجد فيه من الحسن شيئاً يوحى بتلك الموسيقى الناعمة الحالمة التى وضعها (شتراوس) للدانوب الأزرق . ولكننى عندما رأيت الدانوب ، يخترق بودابست وهو يختال فى سيره بين ضفتيها أو قسميها ، مثلما يختال نيلنا المارد الأسمر بين ضفتين خضراوين وورفرفين سندسيين ، آمنت بأن شتراوس استقى من هذا الجمال ما أفاء به على موسيقاه الخالدة . وقد يكون قد جلس فى هذا الموضع من النهر ساعة مع من أحب ، كانت كافية لتلهمه ما أطرب به العالم وخلد به اسم النهر واسم المقطوعة الموسيقية . وما أصدق شوقى الخالد ، عند ما قال على لسان قيس :

قد يهون العمـــر إلا ساعة وتهون الأرض إلا موضعا

ويطول شرح ما فى فيينا من كنوز الفن ومباهج العين ، ولكن الأمر

البارز فيها ، هو انتشار المسارح على كافة أنواع عروضها ، وهى تجاوز المائة عداً ، إذ أن السينما لا إقبال عليها من الأهالى الذين تجذبهم الموسيقى والغناء والتمثيل على خشبة المسرح ، حيث يسرى تيار كهربى يجذب المشاهد لما يجرى فوق المسرح من فن رفيع سامق ، له الغلبة والدوام على غيره من فنون العرض ، كما تقوم بين الممثل والمشاهد ألفة روحية لا بديل عنها . وهو ما يطلق عليها فى العرف المسرحى ( كريزما ) .

ومن عجيب ما شاهدت فى فيينا . تلك البشاشة التى تترقرق فى وجوه الناس ، لا فرق بين شيخ أو صبى وسيدة أو صبية . ولكنه الرخاء يدغدغ الحواس وينشر الوداعة :

يا للوداعة ما ذرت طفلا ولا شيخاً مسنا
يا للبشاشة فى الوجـ ـوه ترقرقت أنساً وحسنا

وفيينا فى كلمة ، مدينة تفيض بالجمال ، وتفوح بعبير التاريخ وعطر الزمن وروعة الحاضر .

* * *

وأعود إلى قواعدى فى صوفيا . وكنا فى تلك السنوات فى وحدة مع سوريا . وقد حضر إلى صوفيا وفد سورى على مستوى فنى رفيع ، ليقيم معرضاً متنقلا ، يعرض فيه ما اشتهرت به سوريا من التطريز والنسيج الدمشقى الشهير ( البروكار ) وأشغال الدانتيل والإبرة وقطع النحاس والسيراميك والحفر والزجاج . وكنت أتصل بالهيئات المختصة لتوفير أماكن عامة لعرض ما حملوه فى مختلف مدن بلغاريا الكبيرة . وقد نجح هذا المعرض فى هدفه ولاقى نجاحاً وإقبالاً من الجمهور المشاهد ، بفضل معاونة السلطات المختصة .

وكان يشرف على هذا المعرض المتنقل أستاذان من وزارة الثقافة فى دمشق . وكانا مرهقين بالعمل حتى لم يجدا متسعاً لتصفح الجرائد المصرية التى كانت تصلنا بالطائرة . وكانا يكتفيان عندما يحضران إلى السفارة ،

بأن أوجز لهما شفاهاً أهم الأحداث الجارية فى العالم بصورة عامة وفى جمهوريتنا بصورة خاصة . وذات يوم من عام١٩٥٨ ، الذى توفى فيه بابا روما ، سألانى عن أهم الأحداث الجارية ، فذكرت لهما أبرز الأحداث بإيجاز ومن بينها وفاة البابا . وقد ذكرت النبأ بعدم عناية ، حيث قلت : ومن بين الأنباء كذلك ، وفاة البابا . وقد بدا عليهما التأثر ، ولكن الدهشة ألجمت لسانيهما ، وراحا ينظران ، أحدهما للآخر ، ثم ينظران إلى وجهى عساهما يجدان تأثراً أو أسى ، ولكنهما يفشلان فى استطلاعهما الصامت . ويستعيدان سؤالى بقولهم : البابا مات ؟!

وكنت أجيب بغير اكتراث : أى نعم مات . ويستجمعان كل ما لديهما من علامات التعجب والاستفهام ليقولا : أتقول إن البابا مات؟ فأجيب ، وقد أدهشنى إلحاحهما فى السؤال ، إذ أننا نحمل للبابا الراحل ولكل من يأتى بعده كل احترام وتقدير ، ولكن لماذا هذا الإلحاح :

أى نعم مات البابا ، وماذا فى هذا ؟ . ثم ينكشف لهما ولى ، رويداً رويداً ، أنهما ظنّا أن والدى هو الذى مات ، لأنهم فى سوريا العزيزة يقولون عن الأب ، البابا ، وعن الأم الماما . . .

وفى النصف الثانى من عام ١٩٥٩ يصدر قرار بنقلى سفيراً بالأرجنتين ثم يعدل بالنقل سفيراً بفنزويلا ، وتحول صحتى دون تنفيذ هذا القرار ، وتتفضل الوزارة مشكورة بقبول ملتمسى للنقل إلى ديوان الوزارة . ويتم بالفعل نقلى للوزارة سفيراً مشرفاً على الشئون العربية ومندوباً دائماً للجمهورية العربية المتحدة لدى جامعة الدول العربية للمرة الثانية . وأستعد لرحلة العودة .

نعود بالسيارة من صوفيا إلى ( فارنا ) أجمل موانئ وشواطئ بلغاريا الذى يقع على البحر الأسود . ويؤم هذه المدينة فى الصيف للاستمتاع بجوها ورملها وحماماتها ، مئات الآلاف من دول شمال أوربا ودول وسط أوربا التى لا تطل أرضها على بحار . وبهذه المدينة فنادق رائعة تتكون من

مجموعة من الفيلات التى لا ترتفع أكثر من طابقين أو ثلاثة . وهم لا يقدمون وجبات الطعام فى هذه الفيلات ، ولكنهم يخصصونها للنوم والراحة وتناول طعام الإفطار . أما الغداء أو العشاء ، فإن المصطافين يتناولونه فى مطاعم عديدة تنتشر بين أشجار الحور فينعم المنتجعون بالبحر وهواء الغابات وملاعب الرمل على الشاطئ البديع الضحل . وقد وفر إقامة الفيلات على هذا النحو ، استخدام الأسانسير ومشاكل تعطاه ، كما وفر إقامة مطابخ فى كل مبنى اكتفاء بعدة مطاعم متناثرة كالعقد المنظوم . وهى فى الليل متعة بما توفر لها من موسيقى الطبيعة ومن وشوشة أوراق الشجر وهينمات أمواج البحر ، وما يمتع الآذان من أوركسترا ترضى كل ذوق .

أمضينا ثلاثة أيام بهذا المصيف الجميل ، قبل أن نبحر منه على الباخرة السوفيتية (فيلكس ديرجينسكى) التى مخرت البحر الأسود فى اقتدار ومهارة ، فهى فى بحرها وفى بيتها . . .

وهبطنا إستانبول بعد غيبة ست سنوات . ثم نغادرها إلى بيريه لنبقى بها نهاراً بطوله حتى المساء، يتيسر لنا أن نمضيه كله فى أثينا التى أراها للمرة الرابعة ، والتى كانت أول عاصمة أعمل بها عام ١٩٣١ . لقد مضى ثلاثون عاماً على ذلك التاريخ تقريباً . وقد رأيت عجباً . رأيت جديداً فى كل ما وقع عليه نظرى، أو مجدداً للقديم مما ألفته. وقصدت المطارح التى كنت أراها فى صباى . ولكنها كانت غير ما كانت إنها هى ببحرها وكورنيشها وأرصفتها وما تجدد من مبانيها، ولكن شيئاً فى روحها قد تغير . لقد تسللت إلى روحها، المادية والزمن المهرول فى سيره والشعور بالقلق من مشاكل العصر ومصاعب العيش ، وإن كانت السياحة التى تدر مئات الملايين من الدولارات سنوياً ، قد أصلحت كل شىء فى اليونان . ولعل السعادة الحقة هى التى تكون فى عين الناظر لا فى الشىء المنظور .

وكنت أرى ما أرى وأقول مع الشاعر :

أما الخيام فإنهـــا كخيامهم ۞ وأرى نساء الحى غير نسائها

ونبحر إلى بيروت التى أراها ربما للمرة العاشرة . ورأيتها تقفز فوق مدارج الغنى والتجديد قفزاً سريعاً لا ياوى على شىء ، ويطأ بأقدامه كل شىء ، ويرحب بكل جديد مهما خلا من القيم .

وفى يوم معلوم من أيام الرحلة التى استغرقت خمسة أيام ، طالعتنا الإسكندرية بشاطئها الصبوح الوديع . ومنارتها التى أرسلت شعاعات الفكر والعرفان إلى كل العالم ، والتى أضاءت لفلاسفة الإغريق طريقهم إلى خلود فلسفتهم وخلود ذكرهم فى العالمين .

* * *

أوهن الترحال جلدى ، وكاد أن يجف الزيت فى المصباح . وكان كل أملى أن أحرص على ما بقى فيه من اشتعال . بعد أن أضاء طريقى وأنا أعمل مدى اثنين وثلاثين عاماً . لأنصرف إلى تدوين ما شغلتنى الوظيفة عنه من أدب أو قصة أو شعر أو ترجمة أو أبحاث أو ذكريات . حتى إذا ما تم تقاعدى ، لبيت على عجل ، داعى الرغبة فى هذا التدوين ، وعكفت على إصدار ما كان اجتمع لى من فنون الكتابة التى أسلفت الإشارة إليها ، وتكون قد تمت بذلك آخر نبوءة لابنة الشاعر الأمريكى ( جواكيم ميللر ) .

وإذا استطاب لى أمل أو حق لى رجاء . فهو أن يكون التوفيق قد لازمنى فى لمس جوانب من مسائل كنت تمنيت أن أراها قائمة ، فحقق الله رجائى ، وأن يكون ما عرضته من صور متحركة ، هو من سبيل التذكير بشئون مضت وزمان تولى ، ولعل القارئ الذى رأى تلك المطارح وعايش تلك الأزمنة ، يستعيد ذكرى أماكن نائية ، يقربها التذكار ، كما أن من يستعرض من الشباب الطامح المجد ، ما دونت فى هذا الكتاب ، يرى ملامح هى فى ظنه ، قد تولى عهدها ، ولكن التأسى بما مضى محطة لا بد من الوقوف عندها فترة ، ليرى ما قطعه الأجداد والآباء ، وما بقى على الأبناء أن يقطعوه و يبلغوا منه وطرهم .

ولمن رأى ما رأيت من بلدان ودول ووسائل نقل وطرق ومسارح وجامعات وعلوم وفنون ، بعد الستينات ، يعذرني فيما دونت ، وقد يشفع لي أنه لم يكن هناك شيء يوصف سواه . كما يشفع لي إخفاقي في اللحاق بزمان طائر نحو مستقبل بعيد أطلق عليه علماء الاجتماع اسم Futureology ، أي دراسة التطلعات المستقبلية في مختلف المجالات وعلى كافة المستويات . ولا يعد الكتاب ترجمة ذاتية للمؤلف فقط ، ولكنه ترجمة ذاتية لكل ما أحاط به .

وحتى مساحات الدول التي أتيت على ذكرها ووصفها ، قد نالها تغيير ، بعد احتلال أو ضم أو انفصال ، ولم يبق مما لم يتناوله تغيير بالنقص أو الزيادة ، سوى ارتفاع جبال إفرست والألب وهيمالايا ، وهذا ما أنا واثق منه ومن مدى ارتفاعها بالباع والذراع . ومع ذلك فمن يدري ، فقد تكون ازدادت ارتفاعاً مع موجات ارتفاع الغلاء التي عمت العالم جميعاً . . .

وبعد ، فلقد أتعبت القارئ معي في السفر والترحال ، وهو أمر إن لم يكن من شأنه ، فلعله مهما أخفى من تأثره مما قرأ ، قد أتيحت له رؤية جوانب من الحياة لا يستطيع أن يراها إلا بالسرد والرواية . ولست أزعم أني عرضتها شاملة كاملة . ولكني كنت أبذل فيها جهد من تنوعت جهوده وتجاذبته ألوان ليس من سبيل إلى وصفها بكل ما تحمل من ظلال وأطياف ، وإنما رحت أعرضها في إطارات تختلف النظرة إليها باختلاف موقف كل ناظر لها من زاويته التي يقف في دائرتها ، ومن متابعته لمشاهد ومرئيات ، هو بين أن يكون مهتماً برؤيتها ، أو مهموماً بأمر يصرفه عما يرى .

# مراجع الكتاب


١ – المذاهب الاجتماعية الحديثة للدكتور محمد عبدالله عنان .

٢ – مآثر العرب على الحضارة الأوربية للأستاذ جلال مظهر .

٣ – الدبلوماسى الضاحك . دانييل فاريه .

٤ – السفارات : روجيه بيريفيت .

٥ – الدبلوماسى : جول كامبون .

٦ – أوراق مطوية عن فلسطين للأستاذ أحمد فراج طايع .

٧ – الدبلوماسية لسير هارولد نيكلسون .

٨ – من وحى فلسطين للأستاذ السفير السابق أحمد رمزى .

٩ – منادمة الماضى للأستاذ السفير السابق أحمد رمزى .

١٠ – منادمة الحروب للأستاذ السفير السابق أحمد رمزى .

١١ – بلغاريا أمس واليوم . جان كابانا .

١٢ – أبحاث ومراجع عن فلسطين . مختلف المصادر .

١٣ – نشرات الجامعة العربية .

١٤ – التيارات القومية والدينية فى تركيا المعاصرة للدكتور أحمد السعيد سليمان .

# فهرس الكتاب

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٣/٥٢٤٢

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣

